الحائز على جائزة نوبل للآداب 1983

ويليام جولدينج

أمير الذباب

ترجمة:
عبد الحميد الجمال

مكتبة
Telegram Network

الدار المصرية اللبنانية

الحائز على جائزة نوبل للآداب 1983
ويليام جولدينج
أمير الذباب
ترجمة:
عبد الحميد الجمال
مكتبة
Telegram Network
الدار المصرية اللبنانية

مكتبة

Telegram Network

2023

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(أميـــر الذبـــاب)

لـ « ويليام جولدينج »

إلى صيغة نصية:

«(فريق الكتب النادرة)»

أمِيـر الذُّبَـاب

Lord of the Flies

ويليام جولدينج

نوبل/1954

ترجمة: عبد الحميد الجمال

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام: **محمد رشاد**

رئيس التحرير: **فتحي العشري**

الإعداد والصياغة: **محمد فتحي**

---

16 شارع عبد الخالق ثروت – تليفـون:3910250 - فاكس: 3909618

ص. ب. 2022. برقيًا دار شادو - القاهرة

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع: 94/3320

الترقيم الدولي:4 - 132 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناشر

الطبعة الثانية: شعبان 1421 هـ - نوفمبر 2000 م

الطبعة الثالثة: ذو القعدة 1424 هـ - يناير 2004 م

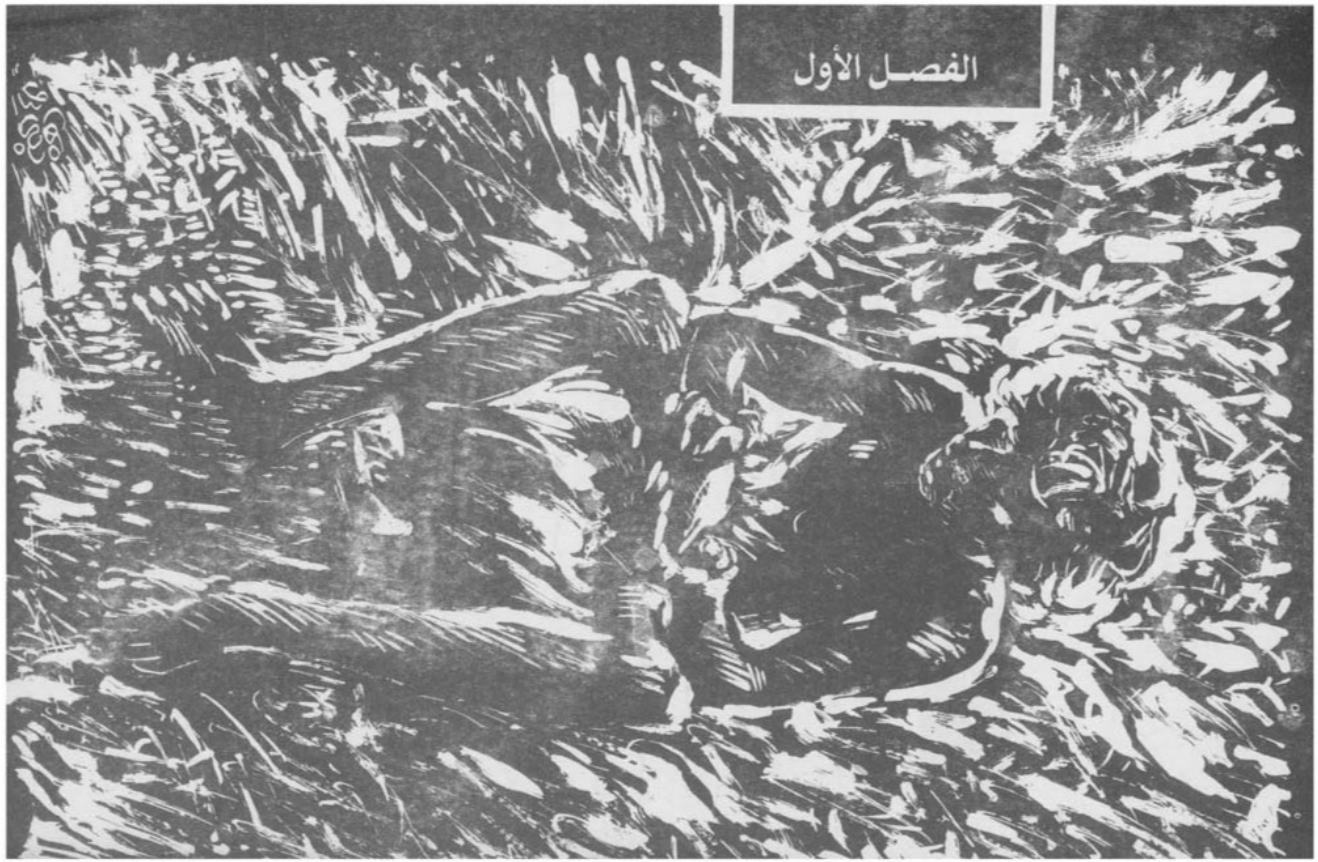
الفصل الأول

صوت المحارة

أنزل الولد ذو الشعر الأشقر نفسه عبر الأقدام القليلة المتبقية من الصخرة، وبدأ يشق طريقه نحو «اللاجون» وبرغم أنه كان قد خلع «السويتر» المدرسي الخاص به وجره حينئذ من أحد كميه فإن قميصه الرمادي التصق بجسده كما التصق شعره بجبهته. فالصخرة المنخفضة الطويلة المحدقة به، المغمورة قليلًا بالمياه والمهشمة في وسط الغابة الكثيفة كانت مثل حمام تشع منه السخونة والحرارة. وبينما كان يتسلق ويشق طريقه بصعوبة بين النباتات المتسلقة والجذوع المكسورة إذ حلق طائر لأعلى بسرعة خاطفة كالوميض في شكل كتلة من اللون الأحمر والأصفر، وصدرت عنه صيحة مثل صيحة الساحرة. وتلت هذه الصيحة صيحة أخرى:

- «هاي. انتظر قليلًا»، ثم اهتزت النباتات العشبية القصيرة في الغابة عند حافة الندبة الغائرة، وعندئذٍ تساقطت قطرات لا حصر لها - قطرات المطر - محدثة قرعًا خفيفًا لدى تساقطها.

وقال الصوت:

- انتظر قليلًا، لقد وقعت في حبائل النباتات المتسلقة.

فتوقف الولد الأشقر وهز أكياسه الشبكية المليئة باللعب والحلوى في حركة تلقائية، مما جعل الغابة الصغيرة تبدو للحظات وكأنها المقاطعات المحيطة بلندن.

وتحدث الصوت مرة أخرى:

- إنني لا أستطيع التحرك بسبب وجود كل هذه النباتات المتسلقة.

وتخلص صاحب الصوت من الأعشاب القصيرة المحدقة به، حتى إن الأغصان راحت تخدش حاجزًا للريح أملسَ. وكانت الانثناءات العارية في ركبتيه ممتلئة ومتشابكة مع النباتات المتسلقة ومخدوشة بسبب الأشواك، وانحنى لأسفل وأزاح الأشواك في حرص وعناية واستدار متلفتًا. لقد كان أقصر من الولد الأشقر، وكان سمينًا للغاية، وتقدم للأمام وهو يبحث عن مواضع آمنة يطؤها بقدميه، وبعدئذ رفع بصره لينظر من خلال نظارته السميكة، وتساءل:

- أين الرجل الذي معه مكبر الصوت؟

فهز الولد الأشقر رأسه وقال:

- هذه جزيرة.، إنها على الأقل جزيرة على ما أظن، وتلك الأشياء الموجودة هناك في البحر هي شعب مرجانية، وربما لا يوجد هنا في أي مكان أي أناس كبار.

فظهر الذعر على وجه الولد السمين. وقال:

- كان هناك ذلك الطيار، ولكنّه لم يكن موجودًا في «كابينة» المسافرين، وإنما كان هناك في المقدمة.

وكان الولد الأشقر يحملق في الشعب المرجانية وقد أغمض عينيه بعض الشيء؛ ليتجنب الضوء القوي.

واستطرد الولد السمين:

- كانوا جميعًا من الصبية، ومن المؤكد أن بعضهم قد نجا وأفلت من الموت، لابد أن بعضهم قد نجا من الموت.. أليس كذلك؟

وبدا الولد الأشقر يخطو في حرص وحذر بقدر المستطاع نحو المياه. وحاول التظاهر بعدم الاكتراث والخشونة في تصرفاته، والتظاهر بأنه لا يشعر بعدم التسلية. ولكن الولد السمين هرول وراءه. وتساءل:

- ألا يوجد هناك أي أشخاص كبار على الإطلاق؟

- لا أظن ذلك.

قال الولد الأشقر قوله في وقار وجديّة، ولكن بهجة تحقيق آماله ومطامحه اجتاحته آنئذ، فوقف على رأسه في منتصف الندبة الغائرة وابتسم للولد السمين وقال:

- لا يوجد أشخاص كبار.

- وذلك الطيار.

فسمح الولد الأشقر لقدميه بالنزول ثم جلس على الأرض الشديدة السخونة وقال:

- لابد أنه قد حلق بعيدًا عقب إسقاطنا؛ إذ لم يكن بمقدوره الهبوط هنا حتى ولو كانت طائرته لها عجلات كبيرة.

- لقد وقع علينا هجوم!

- من المؤكد أنه سيعود إلينا.

فهز الولد السمين رأسه:

- عندما كنا ننحدر في هبوط وتهاو نظرت من خلال إحدى النوافذ فشاهدت الجزء الآخر من الطائرة وقد تصاعدت منه ألسنة اللهب.

ثم نظر في استهجان إلى الندبة الغائرة:

- وهذه هي ما فعلته الكابينة.

ومد الولد الأشقر يده ولمس الحافة المشرشرة لجذع شجرة، وبدا عليه أنه يشعر بالتسلية للحظات.

وتساءل:

- ماذا حدث لها؟ وإلى أين وصلت الآن؟

- لقد جذبتها تلك العاصفة نحو البحر. ولم يكن الأمر خطيرًا للغاية حيث لم يتساقط سوى ثلاثة جذوع أشجار فقط، ومن المؤكد أنّ بعض الصبية كانوا لا يزالون موجودين فيها.

وتردد للحظات ثم استطرد:

- ما اسمك؟

- رالف.

وانتظر الولد السمين متوقِّعا أن يسأل هو الآخر عن اسمه، غير أن التعارف لم يتم، إذ ابتسم الولد الأشقر المسمى «رالف» ابتسامة باهتة ونهض واقفًا على قدميه وبدأ يشق طريقه مرة أخرى نحو «اللاجون» فسار إلى جواره الولد السمين وقال:

- أتوقع أن يوجد عدد آخر من الصبية مبعثرين هنا وهناك.. ألم تشاهد أي صبية آخرين؟

فهز «رالف» رأسه وزاد من سرعته في المشي. ثم تعثر في أحد الأغصان ووقع على الأرض.

فوقف الولد السمين لاهث الأنفاس، وقال موضحًا الأمور:

- لقد نصحتني عمتي نظرًا لإصابتي بمرض الربو.

- مرض الربو؟!

- نعم، فأنا لا أستطيع الإمساك بأنفاسي.. ولقد كنت الولد الوحيد في المدرسة المصاب بمرض الربو.

قال الولد السمين عبارته تلك في شيء من الزهو والافتخار، واستطرد قائلًا:

- كما أنني أضع نظارة على عيني منذ أن كان عمري ثلاثة أعوام.

وخلع نظارته وعرضها على «رالف» وهو يرمش بعينيه ويبتسم، ثم راح ينظفها ويمسحها في حاجز الريح المتسخ الخاص به، وأدت تعبيرات الألم والتركيز الداخلي إلى تغيير الخطوط الخارجية الشاحبة لوجهه، وأخذ يمسح العرق عن خديه، ثم وضع النظارة بسرعة على أنفه قائلًا:

- تلك الفواكه.

وألقى نظرة سريعة على الندبة الغائرة وقال:

- تلك الفواكه.. إنني أتوقع.

ثم ثبت نظارته على عينيه وسار مبتعدًا عن «رالف» وجثم بين أوراق الشجر الخضراء المتشابكة وقال:

- سأخرج مرة أخرى في خلال دقائق قليلة.

وفى حرص وحذر حرر «رالف» نفسه من أعواد النباتات، وشق طريقه بين الأغصان..

وبعد لحظات قليلة كان شخير الولد السمين يترامى وراءه حيث كان يتجه بسرعة نحو الحاجز الذي لا يزال يمتد بينه وبين «اللاجون» وتسلق على جذع مكسور وخرج بذلك من منطقة الأحراش والأدغال.

وكان الشاطئ البكر زاخرًا بأشجار النخيل.. وكانت تلك الأشجار واقفة أو مستندة أو مائلة في مواجهة الضوء، وكانت ملامحها الخضراء توجد على ارتفاعه مائة قدم في الهواء، وكانت الأرض تحتها بمثابة شاطئ رملي مغطى بالأعشاب الخشنة الجافة الممزقة في كل مكان بسبب التمرد الفجائي للأشجار المتساقطة. وكانت ثمار جوز الهند التالفة وشجيرات النخيل الحديثة مبعثرة هنا وهناك بين تلك الأعشاب. وخلف هذا لم يكن يوجد سوى ظلام الغابة والفضاء المكشوف للندبة الغائرة.

ووقف «رالف» وقد وضع يده على جذع رمادي وأغمض عينيه قليلًا في مواجهة فيض المياه اللامعة المتلألئة. وهناك بعيدًا على مسافة ميل تقريبًا كان الزبد الأبيض يرتطم في هياج على سلسلة الصخور المرجانية القريبة من سطح الماء، ووراء الزبد كان يوجد البحر المكشوف بمياهه الزرقاء الداكنة. وفى نطاق مساحة مائة المتر المربعة غير المنتظمة من الشعب المرجانية كان «اللاجون» لا يزال يبدو كأنه بحيرة جبلية تضم بين طياتها جميع درجات اللون الأزرق، بالإضافة إلى اللون الأخضر الظليل واللون الأرجواني. و«البلاج» الذي يقع ما بين أرض النخيل المرتفعة المستوية ومياه البحر، كان بمثابة شريط ضيق لا نهائي على ما يبدو؛ لأنّه على يسار «رالف» كان منظر النخيل والمياه «والبلاج» يجذب المشاهد إلى نقطة ما في اللانهائية، أمّا الحرارة والسخونة فتكاد تكون مرئية باستمرار.

وقفز هابطًا من فوق ذلك المكان المرتفع، وكانت الرمال كثيفة فوق حذائه الأسود، وهاجمته حرارة الجو في عنف، فبدأ يشعر بثقل الملابس التي يرتديها، فركل الرمال بقدميه في عنف، فطار حذاؤه من قدميه، ومزق جوربه الذي يوجد به ذلك الرباط المطاط بضربة واحدة، ثم قفز صاعدًا إلى ذلك المكان المرتفع، وخلع قميصه ووقف هنالك وسط ثمار جوز الهند الشبيهة بالجماجم، والأشجار ذات الظلال الخضراء المترامية، وأشجار النخيل، وقام بفك المشبك الثعباني الشكل

الموجود في حزامه، وخلع سرواله وبنطلونه ووقف هنالك عاريًا وراح ينظر إلى مياه البحر والبلاج المبهر من شدّة الضياء.

لقد كان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا وبضعة شهور قليلة؛ ولذلك اختفى من جسده ذلك الكرش البارز الذي يصاخب عادة فترة الطفولة، ولكنّه لم يصل إلى سن المراهقة الذي يصيب المرء بالحيرة والارتباك وفقدان الثقة بالنفس، وقد يتخيل المرء أنه ربما يصبح ملاكمًا؛ نظرًا لاتساع وثقل كتفيه، إلا أنّ عينيه وفمه كان يشع منها اللطف والرقة، مما يوحى بأنه ليس شريرًا. وراح يربّت بيده على جذع شجرة النخيل في رقة، وبعد أن اضطر أخيرًا إلى الاعتقاد بأن الجزيرة حقيقة واقعة أخذ يضحك في ابتهاج مرة أخرى، ثم وقف على رأسه، وبعدئذ اعتدل واقفًا على قدميه في تناسق وقفز هابطًا إلى البلاج وركع وجرف كمية من الرمال ملء الذراعين، وأخذ يكومها أمام صدره، وبعدئذ استراح عقب هذا الجهد، وراح ينظر للمياه بعينين شَرِقَتين مليئتين بالإثارة. وسمع صوتًا ينادي:

- رالف.

لقد نزل الولد السمين من على ذلك المكان المرتفع، وجلس في حرص وعناية مستخدمًا الحافة كمقعد..

آسف لانشغالي عنك كل هذا الوقت. إنها الفاكهة.

ومسح نظارته وواءمها على أنفه، وكان إطار النظارة قد حز على قصبة أنفه حزًا عميقًا وردي اللون على شكل حرف (V). ونظر نظرة انتقادية لجسم «رالف» الذهبي، ثم نظر لأسفل نحو ملابسه، ووضع يده على نهاية الزمام المنزلق الذي كان يمتد على صدره. وقال:

- عمتي الحبيبة!

ثم فتح الزمام المنزلق في شيء من التصميم، وجذب السترة الجلدية كلها على رأسه.

فنظر «رالف» إليه نظرة جانبية ولم يقل شيئًا، فقال الولد السمين:

- أظن أننا نود معرفة جميع أسمائهم ونعد قائمة بذلك، وينبغي علينا أن نعقد اجتماعًا.

ولم يفطن «رالف» إلى التلميح؛ ولذلك اضطر الولد السمين إلى الاستمرار في التحدّث، فقال في شيء من الثقة، وعلى نحو يوحي بأنه يأتمن «رالف» على الأسرار:

- لا يهمني ما يدعونني به طالما أنهم لا يدعونني بذلك الاسم الذي اعتادوا أن ينادوني به في المدرسة.

وشعر «رالف» بالتسلية بعض الشيء، ثم تساءل:

- وما هو ذلك الاسم؟

وألقى الولد السمين نظرة خاطفة من فوق كتفه، ثم مال نحو «رالف» وهمس قائلًا:

- لقد اعتادوا أن يسموني «بيجي» Piggy «الخنزير الصغير»

فانفجر «رالف» ضاحكًا في صراخ.. وقفز واقفًا:

- الخنزير الصغير! الخنزير الصغير!

- لو سمحت – يا «رالف»

وأمسك «بيجي» يديه في خوف من شيء مرتقب:

- قلت إنني لم أرغب...

- بيجي! بيجي!

وحلق «رالف» راقصًا في الهواء الساخن للبلاج، ثم عاد مثل الطائرة المقاتلة وقد ألقى بأجنحته إلى الوراء، وأطلق مدفعه على «بيجي».

- شيي-أ-أو!

وغاص في الرمال عند قدمي «بيجي» واستلقى هنالك ضاحكًا.

- «بيجي»!

فابتسم «بيجي» على مضض، وشعر - على الرغم منه - بالسرور من مثل هذا القدر الكبير من الاعتراف.. وقال:

- طالما أنك لن تخبر الآخرين

فضحك «رالف» في بلاهة ونظر إلى الرمال. فعادت تعبيرات الألم والتفكير العميق إلى الظهور مرة أخرى على وجه «بيجي».

- شبه جافة ومذاقها ليس حلوًا.

وأسرع عائدًا إلى الغابة، ونهض «رالف» واقفًا، وانطلق مهرولًا إلى اليمين..

وهنا كان «البلاج» يقطع فجأة بسبب الشكل المربع للمنظر الطبيعي..

رصيف هائل من الجرانيت الوردي يشق طريقه في ثبات بين الغابة والأراضي المستوية في محاذاة البحر، وبين الرمال «واللاجون» مشكلًا بذلك رصيف ميناء على ارتفاع أربع أقدام، وكانت قمة هذا الرصيف مغطاة بطبقة خفيفة من التربة والعشب الخشن، كما كانت تظلها أشجار نخيل صغيرة؛ إذ لم يكن هناك قدر كاف من التربة بحيث يجعلها تنمو وتصل إلى أي ارتفاع من ارتفاعاتها المعهودة، فما إن تصل إلى حوالي عشرين قدمًا في الارتفاع حتى تتساقط وتجف،

وتشكل بذلك كتلًا من الجذوع المتشابكة المتقاطعة المريحة للغاية لدى جلوس الإنسان عليها. أمّا أشجار النخيل التي كانت لا تزال واقفة فإنها كونت سقفًا أخضر اللون تغطت جوانبه السفلية بكتل متشابكة مرتعدة من «اللاجون» وتحامل «رالف» على نفسه إلى أن صعد على هذا الرصيف، ولاحظ وجود الظلال والبرودة في الجو، فأغلق عينًا واحدة، وتراءى له أن الظلال الواقعة على جسده كانت خضراء اللون بالفعل، وسار في حذر نحو حافة الرصيف من جهة البحر ووقف هنالك يلقى بنظراته لأسفل نحو المياه.. لقد كانت مياه البحر صافية حتى القاع ومتلألئة بالنباتات المائية الاستوائية المزهرة، وبالشعاب المرجانية.. وانساب سرب من السمك الصغير بسرعة في خفة هنا وهناك، فتحدث «رالف» وبدا السرور والبهجة على صوته:

- يا إلهي!

وفيما وراء الرصيف كان هناك المزيد من الفتنة والسحر والجمال، فشيء من القضاء والقدر - ربما كان إعصارًا أو العاصفة التي صاحبت مجيئه - قد أقام كومة من الرمال في داخل «اللاجون» ما أدى إلى تكوين بركة عميقة طويلة على «البلاج» لها حافة عالية من الجرانيت الوردي عند الطرف البعيد.. وكان «رالف» قد خُدع من قبل بالمظهر المعقول للعمق في بركة بلاجية، فاقترب من هذه البركة وهو يعد نفسه لأن يشعر بالإحباط، غير أن الجزيرة كانت متخذة شكلها الحقيقي، والبركة الهائلة التي غزا ها البحر عند حدوث مد وجزر مرتفع كانت عميقة للغاية في أحد أطرافها حتى إن لون المياه كان أخضر قاتمًا.. وتمحص «رالف» الثلاثين ياردة بأكملها في حرص وعناية، ثم ألقى بنفسه في المياه وغاص فيها، وكانت المياه أشد سخونة من دمائه، وبدا له الأمر كأنه يسبح في حمام سباحة ضخم.

وظهر «بيجي» مرة أخرى.. وجلس على الحافة الصخرية، وراح يرقب جسم رالف المتخذ اللون الأخضر والأبيض في شيء من الحسد:

- أنت لا تجيد السباحة.

- بيجي.

ثم خلع «بيجي» حذاءه وجوربيه ورتبهما في عناية على الحافة الصخرية، وراح يختبره المياه بأحد أصابع قدمه.

- يا لها من مياه ساخنة!

- ماذا كنت تتوقع؟

- لم أكن أتوقع أنها كذلك. إن عمتي

- دعك من عمتك.

وغطس «رالف» غطسة سطحية وراح يسبح تحت الماء وقد فتح عينيه، وبدت له الحافة الرملية للبحيرة ضخمة للغاية وكأنما حافة تل، ثم انقلب ممسكًا بأنفه، وتراقص ضوء ذهبي وتلاشى فوق وجهه مباشرة. وكان «بيجي» يبدو عليه التصميم، فبدأ في خلع بنطلونه، وسرعان ما أصبح عاريًا بشحومه المكتنزة الشاحبة اللون. وسار على أطراف أصابع قدميه هابطًا على الجانب الرملي للبحيرة، وجلس هنالك في المياه، وغمرته المياه حتى رقبته، وأخذ يبتسم لـ «رالف» في شيء من الفخر.

- ألن تبدأ في العوم؟

فهز «بيجي» رأسه:

- لا أستطيع أن أسبح؛ إذ لم يسمح لي بذلك، فمرض الربو الذي أعاني منه.

- دعك من الربو.

وسار «رالف» في الماء إلى الخلف مع اتجاه المنحدر، وغمر فمه في الماء ونفث نافورة من الماء في الهواء، ثم رفع ذقنه وتكلم:

- لقد تعلّمت العوم عندما كان عمري خمس سنوات، فقد علمني والدي السباحة، وهو يعمل قائدًا في البحرية البريطانية، وهو عندما يحصل على إجازة سيجيئ لإنقاذنا.

- ما هي وظيفة والدك؟

وعلى الفور أحمرَّ وجه «بيجي».. وقال على وجه السرعة:

- لقد مات والدي.

واستطرد:

- وأمي.

ثم خلع نظارته وراح يبحث بدون جدوى عن شيء ما ينظف به نظارته.

- ولقد كنت أعيش مع عمتي. وهي تمتلك دكانًا كبيرًا لبيع الحلوى.. ولقد اعتدت الحصول على كميات كبيرة للغاية من الحلوى، كميات كبيرة كما يحلو لي.. متى سيقوم والدك بإنقاذنا؟

- بأسرع ما يمكنه.

ونهض «بيجي» واقفًا يقطر ماء، ووقف عاريًا، وراح ينظف نظارته بالجورب، وكان الصوت الوحيد الذي ترامى إلى سمعهما في تلك الآونة عبر حرارة الجو في الصباح هو صوت الأمواج الزاخرة العارمة التي تصطدم بالشعب المرجانية:

- كيف يمكنه أن يعرف أننا موجودان هنا؟

فأخذ «رالف» يفكر:

- لأن.. لأن. لأن.

وأصبح صوت الموج المترامي من الشعب المرجانية بعيدًا للغاية.

- إنهم سيخبرونه في المطار.

فهز «بيجي» رأسه ووضع نظارته المتلألئة على عينيه، ونظر لأسفل نحو «رالف».

- ليسوا هم. هل سمعت ما قاله الطيار عن القنبلة الذرية؟ إنهم جميعًا ميتون.

وجذب «رالف» نفسه وخرج من الماء ووقف في مواجهة «بيجي». وراح يفكر في هذه المشكلة غير العادية.

وأصر «بيجي» على رأيه:

- هذه بمثابة جزيرة، أليس كذلك؟

فقال «رالف» في بطء:

- لقد تسلقت إحدى الصخور وأظن أنها جزيرة.

فقال «بيجي»:

- لقد ماتوا جميعًا، وهذه عبارة عن جزيرة، ولا أحد يعرف أننا موجودان هنا. ووالدك لا يعرف أننا هنا. لا أحد يعرف!

وارتعدت شفتاه وغشت الدموع عينيه مما جعل نظارته معتمة.

- قد نمكث هنا إلى أن نموت.

وبعد أن قال تلك العبارة بدت الحرارة وكأنها تتزايد إلى أن أصبحت عبئًا ثقيلًا للغاية، وهاجمهما «اللاجون» بأضواء ساطعة تخطف الأبصار.

وقال «رالف» بصوت منخفض:

- سأذهب لإحضار ملابسي الموجودة هنالك.

ثم انطلق مهرولًا عبر الرمال، متحملًا شدّة حرارة الشمس المتوهجة، وعَبرَ الرصيف المرتفع، فوجد ملابسه المبعثرة.. وما إن ارتدى قميصه الرمادي مرة أخرى حتى شعر ببهجة غير مألوفة، ثم تسلق حافة الرصيف المرتفع، وجلس تحت الظلال على جذع شجرة مريح..

وجذب «بيجي» نفسه بصعوبة صاعدًا لأعلى، وقد حمل معه معظم ملابسه تحت ذراعيه، وبعدئذ جلس في حرص وعناية فوق جذع شجرة متداعٍ بالقرب من الصخرة الصغيرة التي كانت تواجه «اللاجون» واجتاحته الخواطر المتشابكة، فقال عَلى الفور:

- ينبغي علينا أن نبحث عن الآخرين.. يجب أن نفعل شيئًا!

ولم يرد «رالف» بكلمة واحدة. فهنا كانت توجد جزيرة مرجانية، ونظرًا لأنّه كان محميًا من وهج الشمس، وحيث إنّه تجاهل كلام «بيجي» المنذر بالشر المستطير، فقد اجتاحته الخيالات والأحلام السارة.

وتشبث «بيجي» برأيه وموقفه:

- كم عدد زملائنا الموجودين هنالك؟

فسار «رالف» نحو «بيجي» ووقف بجواره وقال:

- لا أعرف.

وهبت نسمة خفيفة هنا وهناك عبر المياه الساكنة اللامعة تحت وطأة ضباب الحرارة.. وعندما وصلت تلك النسائم إلى الرصيف المرتفع بدأ سعف النخيل يصدر صوتًا كالهمس، حتى إن مساحات ضئيلة من ضوء الشمس المشوشة انزلقت عبر جسديهما، أو تحركت مثل الأشياء المجنحة الناصعة عبر الظلال..

ونظر «بيجي» لأعلى نحو «رالف» وكانت جميع الظلال الموجودة على وجه «رالف» منعكسة، فاللون الأخضر في المساحة العلوية واللون الساطع في المساحة السفلية كانا منعكسين عن «اللاجون» وكانت هناك بقعة مشوشة من ضوء الشمس آخذة في الزحف على شعره.

- ينبغي علينا أن نفعل شيئًا.

ونظر إليه «رالف» نظرة فاحصة. لقد بدا أخيرًا المكان الذي سبق أن تخيّله، والذي لم يتحقق مطلقًا، يقفز إلى الحياة الواقعية. وانفرجت شفتا «رالف» عن ابتسامة مليئة بالبهجة والسرور، وأخذ «بيجي» هذه الابتسامة لنفسه على أنها دليل على الاعتراف به، فانفجر ضاحكًا في ابتهاج.

- لو أن هذه جزيرة بالفعل.

- ما هو ذلك الشيء؟

وكان «رالف» قد توقف عن الابتسام، وأخذ يشير إلى «اللاجون». لقد كان هناك شيء ما ذو لون أصفر باهت ملقى بين النباتات المائية والطحالب البحرية السرخسية.

- إنه حجر.

- لا، إنها محارة.

وعلى الفور بدأ «بيجي» يرغي ويزبد في شيء من الإثارة:

- هذا صحيح.. إنها محارة! لقد سبق لي أن شاهدت محارة مثلها من قبل عند السور الخلفي الخاص بأحد الأشخاص. وكان يُطلق عليها اسم «محارة»، وكان ينفخ فيها كلما أراد استدعاء والدته.. وهي غالية الثمن للغاية.

وبالقرب من مرفق «رالف» كانت هناك شجيرة نخيل مائلة نحو «اللاجون» بل كان ثقلها قد جذب بالفعل كتلة من التربة المجدبة بحيث أصبحت على وشك السقوط. فقام باقتلاع الساق، وبدأ يضرب فيما حوله في الماء، في حين كانت الأسماك اللامعة تنساب بعيدًا نحو ذلك الجانب أو ذاك. ومال «بيجي» منحنيًا بشكل خطير وقال:

- احترس، لكيلا تكسرها.

- اخرس.

وكان «رالف» يتكلم وهو شارد الذهن.. فالمحارة كانت ممتعة وجميلة وبمثابة دمية قيمة وجميلة، غير أن الخيالات القوية لأحلام يقظته كانت لا تزال تتدخل بينه وبين «بيجي» الذي كان بمثابة شيء لا علاقة له بهذه البيئة. وانحنت شجيرة النخيل فجذبت معها المحارة عبر الطحالب البحرية، فاستخدم «رالف» إحدى يديه كنقطة ارتكاز وضغط بيده الأخرى لأسفل إلى أن ارتفعت المحارة لأعلى وهي تقطر ماء، وعندئذٍ تمكّن «بيجي» من الإمساك بها.

ولم تعد المحارة شيئًا يُرى، وإنما عادت شيئًا ينبغي ألَّا يُلمس، وأصبح «رالف» غاية في الإثارة، وتكلم «بيجي» مثل طفل معتوه:

- محارة غالية الثمن للغاية دائمًا.. وأنا واثق تمامًا من أنك إن كنت تريد أن تشترى واحدة فإنك ستدفع جنيهات وجنيهات.

وأخذ «رالف» المحارة من «بيجي» فانسابت كمية ضئيلة من المياه إلى ذراعه. وكان لون المحارة هو اللون الأصفر القاتم الذي تتخلّله هنا وهناك مساحات ضئيلة من اللون الأحمر الوردي الفاتح، وما بين الرأس الذي بلى وأصبح في شكل ثقب صغير، والشفاه الوردية اللون الخاصّة بالفم توجد ثماني عشرة بوصة من المحارة، مع التواء حلزوني خفيف. وهي مغطاة بنقوش دقيقة زخرفية. وقام «رالف» بهز الرمال لإخراجها من الأنبوبة العميقة.. وقال:

- كانت تخور مثل البقرة.

وكان لديه أيضًا بعض الأحجار ألبيضاء، وقفص طائر به ببغاء أخضر، وهو بالطبع لم ينفخ في الأحجار البيضاء.

توقف «بيجي» ليلتقط أنفاسه وراح يربّت على ذلك الشيء المتلألئ الموجود بين يدي «رالف» وناداه:

- رالف.

فنظر «رالف» لأعلى:

- يمكننا أن نستخدم هذه في النداء على الآخرين، ثم نعقد اجتماعًا، وهم سيحضرون عندما يسمعوننا.

ورمق «رالف» بابتسامة مشرقة:

- ذلك هو ما كنت تهدف إليه، أليس كذلك؟ وذلك هو السبب الذي جعلك تُخرج المحارة من الماء؟

فألقى «رالف» بشعره الأشقر للوراء:

- كيف كان صديقك ينفخ في المحارة؟

فقال «بيجي»:

- كان يقوم بنوع من البصق، ولم تكن عمتي تسمح لي بأن أنفخ بسبب إصابتي بمرض الربو. وقال صديقي: إن الإنسان ينفخ من الجزء الأسفل هنا.

ثم وضع «بيجي» يده على بطنه البارز واستطرد:

- حاول أن تنفخ يا رالف. يجب عليك أن تنادي الآخرين.

وفى شيء من التردد وضع «رالف» الطرف الصغير للمحارة على فمه ونفخ، فانساب صوت مندفع من فمه ليس إلاَّ، وأخذ «رالف» يمسح المياه المالحة عن شفتيه ثم راح يجرب مرة أخرى، ولكن المحارة ظلت صامتة.

- كان صديقي ينفخ بطريقة معينة.

فزم «رالف» شفتيه ونفخ الهواء في المحارة، فصدر عنها صوت ضئيل منخفض، فأدخل هذ الصوت السرور الشديد على كلا الولدين، حتى إن «رالف» استمر في النفخ لبضع دقائق ما بين نوبات الضحك المتفجرة:

- لقد كان ينفخ من أسفل بطنه.

وأدرك «رالف» الفكرة تمامًا، ونفخ في المحارة بهواء منبعث من الحجاب الحاجز في بطنه، فأصدرت المحارة صوتًا على الفور، وعندئذٍ وقعت نغمة عميقة خشنة تحت أشجار النخيل وانتشرت عبر تعقيدات الغابة.. وارتد صدى الصوت من الجرانيت القرنفلي للجبل، وعندئذٍ طارت

سُحب من الطيور من فوق قمم الأشجار، وصرخ شيء ما صرخة طويلة حادة، وجرى بين الشجيرات الصغيرة بالغابة فأبعد «رالف» المحارة عن شفتيه وقال:

- يا للعجب!

وكان صوته العادي يشبه الهمس عقب ذلك الصوت الأجش الذي انبعث عن المحارة، ووضع المحارة على شفتيه وأخذ نفسًا عميقًا، ونفخ مرة أخرى، فدوى الصوت من جديد، ثم ضغط في مزيد من الثبات، فظهرت - من قبيل المصادفات السعيدة - نغمة ثمانية الأجزاء، ذات دوي عالٍ النغمة، وأشد اختراقًا عن ذي قبل. وكان «بيجي» يصيح ببعض الكلمات، وكان وجهه مشرقًا بالبهجة والسرور، وكانت نظارته تلمع وتتلألأ وتعكس الضوء.. وصاحت الطيور، وانطلقت الحيوانات الصغيرة تجرى بسرعة، وتخاذلت أنفاس «رالف»، فضاعت النغمة ذات الثمانية الأجزاء، وأصبحت مجرد هواء مندفع.

وأصبحت المحارة صامتة وكانت تشبه الغاب الذي يسطع بالوميض، وكان وجه «رالف» مكفهرًا ومحتقنًا بسبب تقطع أنفاسه، وكان الهواء المنتشر فوق الجزيرة مملوءًا بصياح الطيور ودوي أصداء الأصوات.

- من المؤكد أن تلك الأصوات يمكن سماعها على مسافة أميال.

واستجمع «رالف» أنفاسه ونفخ مجموعة من النغمات القصيرة، فصاح «بيجي» في تعجب:

- يوجد واحد هنالك.

وكان طفل قد ظهر بين أشجار النخيل على مسافة ياردة على البلاج، وكان يبلغ من العمر حوالي ست سنوات، وكان وسيمًا وقوى البنيان، وكانت ملابسه ممزقة، وكان وجهه مغطى بخليط لزج من الفاكهة، وكان بنطلونه قد جُذب لأسفل من أجل تأدية غرض واضح، ثم جُذب لأعلى لنصف المسافة فقط، وقفز هابطًا من مصطبة النخيل إلى الرمال، فسقط بنطلونه إلى رسغي قدميه. فخرج بقدميه من البنطلون وأسرع مهرولًا نحو الرصيف، فساعده «بيجي» على النهوض لأعلى، وفى تلك الأثناء أخذ «رالف» ينفخ في المحارة إلى أن امتلأت الغابة بضجيج الأصوات، وجلس الولد الصغير القرفصاء أمام «رالف» وراح ينظر لأعلى نظرة عمودية مشرقة، وما إن تلقى التأكيد بأنه يتم اتخاذ إجراء هادف حتى ظهر عليه الشعور بالرضا والسرور، وانزلق أصبعه الوحيد النظيف - وهو إبهام وردى اللون -إلى فمه.. وانحنى «بيجي» لأسفل قائلًا:

- ما اسمك؟

- «جوني».

وراح «بيجي» يتمتم بالاسم في نفسه، وبعدئذ صاح بالاسم لـ «رالف» الذي لم يكن يشعر بالتسلية؛ لأنّه كان لا يزال ينفخ في المحارة، وكان وجهه متسمًا بالبهجة العنيفة المترتبة على

إحداث هذا الصوت الهائل المذهل، وكان قلبه يتسبب في اهتزاز قميصه المنبسط، وأصبح الصباح في الغابة أكثر قربًا.

وأصبحت دلائل الحياة مرئية على البلاج آنئذ، فالرمال المرتعدة تحت ضباب الحرارة كانت تخفي أعدادًا كثيرة من مظاهرها في أميالها الطويلة. ويبدأ الأولاد يشقون طريقهم نحو الرصيف عبر الرمال الساخنة الصامتة البكماء. وظهر ثلاثة أولاد صغار لا يزيدون في السن عن «جوني» من مكان قريب للغاية، حيث كانوا يلتهمون الفواكه في نهم بالغابة. وشق ولد أسود البشرة صغير السن ليس أصغر كثيرًا في السن من «بيجي» طريقه بين بعض النباتات والشجيرات المتشابكة، واستمر في المسير إلى أن وصل إلى الرصيف، ثم ابتسم في إشراق في وجه الجميع. وبعدئذ ظهر المزيد والمزيد من الأطفال، وجلسوا جميعًا على جذوع أشجار النخيل الساقطة مثلما فعل «جوني» الذي يتّسم بالبساطة والسذاجة، وانتظروا.

واستمر «رالف» في النفخ في المحارة نفخات قصيرة حادة ونافذة وتحرك «بيجي» بين الجمهور المحتشد، وراح يسأل كل واحد منهم عن اسمه، وكان يتجهم لدى سماع كل اسم لكي يحفظ ويتذكر جميع الأسماء، وكان الأطفال يطيعونه في بساطة وإذعان، مثلما كانوا يفعلون من قبل مع الرجال الذين كانوا يستخدمون الأبواق المكبرة للصوت، وكان بعض الأطفال عرايا تمامًا وممسكين بملابسهم. والبعض الآخر كان شبه عار، أو يرتدي ملابس أكثر أو أقل، وكانت ملابسهم من الزي المدرسي الرمادي أو الأزرق، أو من لون جلد الظباء في شكل «جاكيت أو جرسي»، وكانت هناك شارات مدرسية وشعارات وشرائط ملونة ملتصقة على الجوارب وعلى البلوفرات، وكانت رءوس الأولاد تبدو كالعناقيد فوق جذوع النخيل تحت الظلال الخضراء: رءوس بنية اللون، وشقراء، وسوداء، وكستنائية، ورملية اللون، وفئرانية اللون. رءوس راحت تغمغم وتهمس. راحت العيون ترقب «رالف» وتفكر وتتأمل وتخمن. لقد كانت الإجراءات تُتخذ لإنجاز شيء ما.

والأطفال الذين جاءوا على طول البلاج فرادى أو مثنى ظهروا للعيان بوضوح عندما عبروا الخط من عند سديم الحرارة إلى الرمال القريبة. وهنا انجذبت العين لأول وهلة نحو مخلوق أسود اللون يشبه الخفاش راح يرقص على الرمال، ثم أدركت بعد ذلك وجود الجسد فوقه، لقد كان منظر الخفاش هو ظل الطفل، وتقلص هذا الظل بسبب الشمس العمودية، فأصبح مساحة صغيرة بين القدمين المهرولين بسرعة.. ولقد لاحظ «رالف» - حتى أثناء قيامه بالنفخ - الجسدين الأخيرين اللذين وصلا إلى الرصيف فور رقصة مرفرفة من السواد.

وألقى الولدان اللذان لهما رأس مدور وشعر مثل نسالة الكتان بنفسيهما على الأرض واضطجعا، وراحا يلهثان ويبتسمان لـ «رالف» مثل كلبين. وكانا تؤامين، وحارت العين، واجتاحها عدم التصديق لدى رؤية مثل هذا التطابق بين النسختين المرحتين المبتهجتين. كانا يتنفسان معًا وكانا يبتسمان معًا، وكانا قصيرين مكتنزين ومليئين بالحيوية، ورفعا شفاهًا مبللة نحو «رالف» حيث بدا عليهما أنهما مزودان بقدر غير كاف من البشرة، حتى إن منظرهما الجانبي كان مشوشًا في غير وضوح، وقد فتح كل منهما فاه بشيء من الشد والجذب، وأحنى «بيجي»

نظارته اللامعة وأمكن سماع صوته أثناء لحظات الصمت التي تتخلل النفخ في المحارة وهو يكرر اسميهما.

- سام - إريك - سام - إريك.

وبعدئذ وقع في التشويش والخلط بينهما. وهز التوءمان رأسيهما وأشار كل منهما إلى الآخر، وانفجر الموجودون في الضحك.

وأخيرًا توقف «رالف» عن النفخ في المحارة، وجلس هنالك وقد تدلت المحارة من إحدى يديه وانحنى رأسه على ركبتيه، ثم تلاشت أصداء أصوات المحارة، وتلاشت معها أيضًا الضحكات، وساد الصمت المطبق. ومن خلال الضباب الماسي للبلاج ظهر شيء ما معتم يشق طريقه في تعثر، وكان «رالف» هو أول من شاهد ذلك الشيء أولًا، وراح يرقبه في تمعن إلى أن جذبت حدة تمعنه جميع العيون إلى ذلك الاتجاه، وبعدئذ تخطى ذلك المخلوق السراب ودخل إلى مساحة الرمال الصافية، وعندئذٍ أدركوا أن الظلام لم يكن كله في شكل ظلال، وإنما كان معظمه في شكل ملابس، لقد كان ذلك المخلوق بمثابة مجموعة من الأولاد يسيرون بخطوات متجانسة تقريبًا في صفين متوازيين، ويرتدون ملابس غاية في الغرابة والشذوذ، وكانوا يحملون في أيديهم بنطلونات قصيرة وقمصانًا وأثوابًا مختلفة. وكان كل ولد منهم يضع على رأسه طاقية سوداء مربعة الشكل عليها شارة فضية اللون. وكانت أجسادهم ابتداء من الحلق إلى رسغ القدم مخبأة وراء معاطف سوداء فضفاضة تحمل صليبًا طويلًا فضي اللون فوق الصدر من جهة اليسار، وكانت كل رقبة مختفية وراء أهداب زخرفية، وكانت حرارة المناطق المدارية والغارة الفجائية والبحث عن الطعام ثم هذه المشية العسكرية المفعمة بالإرهاق والعرق على طول البلاج المتوهج باللهيب - قد أعطتهم بشرة في لون ثمار الخوخ المغسولة حديثًا. وكان الولد الذي يقودهم مرتديًا ملابس مماثلة باستثناء الشارة الموجودة على طاقيته حيث كان لونها ذهبيًا. وعندما وصلت جماعته إلى حوالي عشر ياردات من الرصيف صاح مصدرًا أوامره لهم، فتوقفوا عن السير وهم يلهثون ويتصببون عرقًا، ويترنحون تحت وطأة الضوء المفترس، وتقدم قائدهم بنفسه للأمام ووثب صاعدًا إلى الرصيف وقد تطاير معطفه الفضفاض في الهواء، وراح يحملق فيما بدا له وكأنه شبه ظلام دامس. وتساءل:

- أين الرجل الذي يوجد معه البوق؟

وأدرك «رالف» أنه لا يكاد يرى بسبب شدّة وهج الشمس، فرد عليه قائلًا:

- لا يوجد رجل معه بوق. لا يوجد سواي.

فاقترب الولد أكثر، وحملق لأسفل نحو «رالف» وهو يقطب جبينه وينظر بوجه عابس، ويبدو أن ما شاهده من الولد الأشقر الذي يضع المحارة ذات اللون الأصفر الشاحب على ركبتيه لم يقنعه، فاستدار بسرعة، ودار معه معطفه الأسود الفضفاض، وتساءل:

- ألا توجد هناك سفينة؟

وبدا من داخل المعطف الفضفاض طويلًا ونحيلًا بارز العظام، وكان شعره أحمر اللون تحت الطاقية السوداء، وكان وجهه مجعدًا ومملوءًا بالنمش والبقع السمراء، وقبيحًا في غير غباء أو بلاهة، وكانت تطل في حملقة من هذا الوجه عينان لهما لون أزرق فاتح، بدا عليهما مشاعر الإحباط مع التحول أو الاستعداد للتحول إلى الغضب.

- ألا يوجد رجل هنا؟

فتحدث «رالف» وهو يدير ظهره له قائلًا:

- لا، نحن بصدد عقد اجتماع.. تعال وانضم إلينا.

وبدأت مجموعة الأولاد الذين يرتدون المعاطف الفضفاضة في التفرق والتبعثر من صف قريب، فصاح الولد الطويل فيهم:

- أيها الفريق، لا تتحركوا من أماكنكم.

وفى حياء وطاعة رجع الفريق إلى الانتظام في الصف، ووقفوا هنالك يترنحون تحت وطأة الشمس، ومع ذلك بدأ بعضهم يحتج في وهن وضعف شديد:

- ولكن يا «مريديو». لو سمحت يا «مريديو». ألا يمكننا...

وعندئذ سقط أحد الأولاد مغشيًا عليه فوق الرمال، فتصدع الصف، فرفعوا بصعوبة ذلك الولد الساقط على الأرض وحملوه إلى الرصيف، ومددوه على الأرض ليستريح، فحملق «مريديو» في دهشة، وبذل غاية جهده برغم المصاعب. وقال:

- حسنًا، إذن أجلس.. دعوه وشأنه.

- ولكن يا «مريديو»..

فقال «مريديو»: «إنّه دائمًا ما يتعرض للإغماء، فقد سبق له أن تعرض للإغماء في جبل طارق، وفى أديس أبابا، وفى صلاة الفجر بالكنيسة بجوار قائد جوقة المرتلين».

وهذه الوشاية الأخيرة أدت إلى تفجير ضحكات مكتومة صادرة عن فريق الأولاد الذين جلسوا قابعين مثل الطيور السوداء على الجذوع المتقاطعة، وراحوا يرقبون ويتفحصون «رالف» باهتمام كبير. ولم يسأل «بيجي» عن أسمائهم لأنّه شعر بالخوف والرهبة من هذا الزي الموحد، ومن هذا التفوق، ومن تلك السلطة الفظة المتمثلة في صوت «مريديو» فتراجع إلى الجانب الآخر الذي يوجد به «رالف» وراح يشغل نفسه بالعبث في نظارته.

واستدار «مريديو» ملتفتًا نحو «رالف».

- ألا يوجد أي أشخاص كبار؟

- لا.

فجلس «مريديو» على جذع نخلة، وأدار رأسه ملتفتًا إلى حلقة الجالسين: إذن ينبغي علينا جميعًا أن نرعى شئون أنفسنا.

وتحدث «بيجي» في شيء من الخوف عقب إحساسه بالاطمئنان؛ نظرًا لوجوده عند الجانب الآخر لـ «رالف»:

- وهذا هو السبب في أن «رالف» عقد اجتماعًا حتى يمكننا أن نقرر ما ينبغي علينا أن نفعله، ولقد سمعنا الأسماء، فذلك هو «جوني» وهذان الاثنان توءمان أحدهما يُسمّى «سام» والآخر يُسمّى «إريك». من منكما الذي يُسمّى «إريك»؟ لا، أنت «سام».

- أنا سام.

- وأنا إريك.

فقال «رالف»:

- يجب أن تكون لنا جميعًا أسماؤنا؛ ولذلك فأنا أقول لكم إن اسمي هو «رالف»

وقال «بيجي»:

- لقد عرفنا معظم الأسماء، عرفناها توًا.

فقال «مريديو»:

- أسماء أولادنا. ولماذا ينبغي أن يكون اسمي جاك؟ أنا اسمي «مريديو».

فالتفت «رالف» نحوه بسرعة، فقد كان هذا هو صوت شخص لا يستبد به الشك أو التردد.

واستطرد «بيجي»:

- ثم ذلك الولد... قد نسيت.

فقال «مريديو»:

- أنت تثرثر كثيرًا في حديثك.. اخرس أيها الولد السمين.. يا فاتي.

فدوت عاصفة من الضحك.

وصاح «رالف»:

- ليس اسمه فاتي، وإنما اسمه الحقيقي هو «بيجي».

- بيجي!

- أوه. بيجي.

فدوت عاصفة من الضحك في مزيد من الانفجار، بل واشترك في الضحك أصغر الأولاد حجمًا. وفى تلك الآونة أصبح الأولاد بمثابة دائرة من التعاطف الوثيق مع «بيجي» فقد احتقن وجه «بيجي» احتقانًا شديدًا، فأحنى رأسه وراح ينظف نظارته مرة أخرى.

وأخيرًا تلاشى الضحك تدريجيًا، واستمر ذكر الأسماء، فكان هناك «موريس» وهو يلي «جاك» من حيث الحجم بين الأولاد جوقة المرتلين، إلا أنه عريض المنكبين، ومبتسم طوال الوقت. وكان هناك ولد نحيل ماكر لا يعرفه أحد، حيث اعتزل الناس مع إصرار داخلي شديد على تجنب الناس والالتزام بالسرية التامة. قال في غمغمة إن اسمه «روجر» ثم التزم بالصمت مرة أخرى «بيل» و«روبرت» «وهارولد» و«هنري»، وولد جوقة المرتلين الذي كان قد تعرض للإغماء أفاق من إغمائه، وجلس على جذع شجرة نخيل، وابتسم في شحوب لـ «رالف» وقال إن اسمه «سيمون».

وتحدث جاك:

- يجب أن نتخذ قرارًا بشأن إنقاذ حياتنا.

فصدر عن الحاضرين طنين وغمغمة، وقال أحد الأولاد الصغار إنّه يرغب في الذهاب إلى منزله.

فقال «رالف» وهو شارد الذهن:

- اخرس.

ثم رفع المحارة وقال:

- يبدو لي أنه ينبغي أن يكون لنا زعيم لكي يحسم الأمور.

- زعيم!.. زعيم!

فقال «جاك» في غطرسة خالية من التصنع:

- يجب أن أكون أنا زعيمًا.. لأنني أنا الذي أقوم بدور المنشد في جماعة الرهبان بالدير.. كما أنني رئيس على الأولاد، ويمكنني أن أغنى النغمة الموسيقية الحادة التي يرمز لها بعلامة الرفع.

فقال جاك:

- حسنًا إذن... أنا.

وتردد، وعندئذٍ تحرك الولد الأسود الذي يُسمّى «روجر» أخيرًا، وعبر عن رأيه في وضوح وبدون خوف أو تردد.

- هيا بنا نجري انتخابًا.

- نعم!

اقتراع لاختيار الرئيس.

- فلندل بأصواتنا.

وكانت لعبة التصويت هذه مسلية مثل لعبة المحارة تقريبًا، وبدأ «جاك» يحتج، ولكن الصخب الغاضب تحول إلى رغبة عامّة في وجود رئيس بالانتخاب إلى المناداة «برالف» رئيسًا، ولم يجد أحد من الأولاد سببًا وجيهًا لهذا. فقد تمكّن «بيجي» من تتبع ما ظهر من اتصالات وتبادل معلومات، في حين كان «جاك» هو أبرز قائد. ولكن كان هناك نوع من الهدوء والسكون الذي تميَّز به «رالف» أثناء جلوسه، مما جعل الأنظار تنتبه إليه.. وكان حجمه ومظهره جذابين، والأهم من ذلك كله كانت هناك المحارة، وهي أكثر العناصر قوة وغموضًا. وأدركوا أن المخلوق الذي نفخ في تلك المحارة، والذي جلس منتظرًا إياهم على الرصيف ومعه ذلك الشيء الرقيق الجميل الذي وضعه متوازنًا فوق ركبتيه لم يأخذ وضعه اللائق به.

- الولد الممسك بالمحارة.

- رالف! رالف!.

- وافقوا عليه كرئيس لنا، فهو معه البوق.

فرفع «رالف» يده طالبًا من الجميع الالتزام بالصمت وقال:

- حسنًا! من منكم يريد «جاك» رئيسًا؟

فرفع فريق المنشدين أيديهم في طاعة مليئة بالاكتئاب والحزن.

- ومن الذي يريدني رئيسًا؟

فرفع جميع الأشخاص أيديهم باستثناء «فريق المنشدين» وباستثناء «بيجي» غير أن «بيجي» هو الآخر رفع يده في شيء من الحقد والضغينة عالية في الهواء.

وراح «رالف» يحصي ويعد الأصوات، ثم قال:

- إذن فأنا الرئيس.

فانفجرت دائرة الأولاد في تصفيق حاد، بل واشترك معهم في التصفيق الأولاد التابعون لفريق المنشدين. واختفى النمش المنتشر على وجه «جاك» لدى احتقان وجهه بالدماء نتيجة شعوره

بالخزي والعار. وهب واقفًا ثم غيَّر رأيه وجلس مرة أخرى، والتصفيق مازال يدوي.

فنظر «رالف» إليه حيث كان متلهفًا لأن يقدم له شيئًا.

- فريق المنشدين ينتمي إليه بالطبع.

- يمكن أن يكونوا بمثابة الجيش.

- أو الصيادين.

واختفى الاحتقان تدريجيًا من وجه «جاك» ولوح «رالف» بيده مرة أخرى لكي يلتزم الجميع بالصمت، وقال:

- «جاك» هو المسئول عن فريق المنشدين، وهذا الفريق يمكن أن يصبح.. ماذا تريد لهم أن يكونوا؟

- صيادين.

وابتسم «جاك» و«رالف» كل منهما للآخر في ود وإعجاب مشوب بالتحفظ والحذر، وشرع باقي الحاضرين في التحدّث بعضهم مع بعض في اهتمام وشغف، ونهض «جاك» واقفًا.

- حسنًا يا فريق المنشدين.. اخلعوا ملابسكم.

وعلى الفور نهض أولاد فريق المنشدين واقفين، وكأنما قد أطلق سراحهم من الفصل المدرسي، وبدءوا يثرثرون ويرنمون، ويكومون معاطفهم السوداء الفضفاضة على العشب، ووضع «جاك» معطفه الأسود الفضفاض على جذع الشجرة بجوار «رالف»، وكان بنطلونه القصير ملتصقًا على جسده بسبب العرق، وألقى «رالف» نظرة خاطفة عليهم مليئة بالإعجاب، وعندما شاهد «جاك» نظرته قام بشرح الموقف.

- لقد حاولت الصعود إلى ذلك التل لمعرفة ما إذا كانت هناك مياه من جميع الجوانب، ولكن المحارة الخاصّة بك نادت علينا.

فابتسم «رالف» ورفع المحارة في يده طالبًا من الجميع الالتزام بالصمت وقال:

- استمعوا إليَّ جميعًا، لقد بدأت في التفكير في الأمور، ولا أستطيع أن أقرر ما يجب علينا أن نفعله الآن على الفور، فإذا لم يكن هذا المكان الذي نحن فيه بمثابة جزيرة فإن حياتنا قد تنقذ حالًا؛ ولذلك ينبغي علينا أن نعرف أولًا ما إذا كانت هذه جزيرة أم لا، ويجب على كل شخص أن يبقى هنا وينتظر ولا يتحرك إلى أي مكان آخر، وسيذهب ثلاثة منا فقط في بعثة لاستكشاف الموقع، وإذا ذهب أكثر من ثلاثة أشخاص فسيحدث بينهم ارتباك، ويتوهون، ويفقد بعضهم بعضًا. وأنا سأذهب في هذه البعثة ومعي جاك و.. و..

وراح يطوف بنظره متفحصًا دائرة الوجوه المتطلعة، وكان هناك عدد وافر من الأولاد للاختيار منهم.

- و«سيمون».

فانفجر الأولاد المحيطون بسيمون في ضحكات بلهاء ونهض «سيمون» واقفًا يضحك هو الآخر ضحكات قليلة.. والآن وقد انتهى الامتقاع وشدة الشحوب الناجم عن إغمائه، فإنّه بدا ولدًا نحيلًا حيويًا، تصدر عنه نظرات كالوميض من تحت خصلة من الشعر الأسود الخشن المرتب والمتدلي لأسفل، وأومأ برأسه لـ «رالف» قائلًا:

- سأجيئ.

- وأنا أيضًا.

وهنا انتزع «جاك» من جيبه الخلفي مدية ذات غمد كبير بعض الشيء وطعن بها جذع الشجرة، فصدرت همهمة من الحاضرين ثم تلاشت على الفور.

وتحرك «بيجي» في مكانه.

- سأجيئ.

فالتفت «رالف» نحوه وقال:

- أنت لا تصلح لمهمة كهذه.

- الأمر سواء.

فقال «جاك» بصراحة:

- نحن لا نريدك معنا، ويكفي ثلاثة أشخاص.

وانعكس الضوء على نظارة «بيجي» فصدر عنها لمعان:

- لقد كنت معه عندما عثر على المحارة، وكنت معه قبل مجيء أي شخص آخر.

ولم يهتم «جاك» والآخرون بكلامه، وكان هناك تشتت عام. وقفز «رالف» و«جاك» و«سيمون» هابطين من فوق الرصيف وساروا عبر الرمال خلف بركة الاستحمام. وسار «بيجي» وراءهم وهو يطن ويئز في تلعثم.

وقال «رالف»: إذا سار «سيمون» في المنتصف بيني وبينك، عندئذٍ يمكننا أن نتحدث من فوق رأسه.

وسار ثلاثتهم بخطوات منتظمة، وكان هذا يعنى أن «سيمون» ينبغي له من وقت لآخر أن يأخذ خطوتين في آن واحد لكي يلحق بالآخرين، وبعدئذ توقف «رالف» عن المسير نحو «بيجي» قائلًا:

- انتبه لما أقوله لك.

وتظاهر «جاك» و«سيمون» بأنهما لا يلحظان شيئًا واستمرا في سيرهما:

- لن تجيء معنا.

وغشى الضباب نظارة «بيجي» مرة أخرى، كان في هذه المرّة بسبب الشعور بالمهانة والإذلال:

- لقد أخبرتهم: بعد ما قلته لك.

وتصاعدت الدماء على وجهه وارتعد فمه:

- بعد أن قلت لم أراد..

- بالله خبرني عمَّ تتحدّث؟

- أتحدث عن تسميتي باسم «بيجي» ولقد سبق أن قلت لك إن الأمر لا يعنيني في شيء طالما أنهم لا ينادونني بكلمة «بيجي»، وأنا قلت لك ألا تخبر أحدًا، ومع ذلك فإنك بعدئذ ناديتني بكل صراحة بكلمة «بيجي».

وهبط السكون عليهما. ونظر «رالف» إلى «بيجي» في مزيد من الفهم والتعقل، وعندئذٍ أدرك أن «بيجي» قد جرحت مشاعره وهُزم هزيمة نكراء. وتأرجح بين تقديم الاعتذار له أو توجيه المزيد من الإهانات إليه.

ثم قال أخيرًا في شي ء من الرقة ودماثة الخلق التي تتصف بها القيادة الحكيمة:

- إن كلمة «بيجي» piggy أفضل من كلمة «فاتي» Fatty - أي «شحمي» - وعلى أية حال فأنا آسف إذا كنت تشعر أنني أسأت إليك. والآن ارجع يا «بيجي» وخذ أسماء.. فتلك هي وظيفتك.. إلى اللقاء.

واستدار راجعًا بسرعة لكي يلحق بالولدين الآخرين. أمّا «بيجي» فقد وقف في مكانه، وبدأ الاحتقان الوردي يزول عن وجهه تدريجيًا مع زوال الشعور بالتذمر والسخط. ثم عاد إلى الرصيف.

وسار الأولاد الثلاثة في رشاقة على الرمال. وكان المد والجزر منخفضًا، وكان هناك شريط من الشاطئ مفروشًا بالأعشاب المتناثرة، وكان هناك نوع من السحر والجاذبية منتشرًا حولهم

وفوق المنظر الطبيعي كانوا مدركين ذلك السحر وتلك الجاذبية، وقد أسعدهم ذلك كثيرًا، فالتفت بعضهم إلى بعض وراحوا يضحكون في إثارة بالغة، ويتحدثون ولا يستمعون.

وكان الهواء عليلًا، والجو مشرقًا وضاءً. وواجه «رالف» مهمّة ترجمة كل هذا إلى بيان عملي، فوقف على رأسه وسقط على الأرض. وبعد أن فرغوا من الضحك راح «سيمون» يربّت على ذراع «رالف» في خجل، وكان عليهم أن يضحكوا مرة أخرى.

وقال «جاك» على الفور:

- هيا بنا. نحن رواد مستكشفون.

فقال «رالف»:

- سنذهب إلى نهاية الجزيرة وننظر حول الركن.

- إذا كانت هذه بمثابة جزيرة.

ومع الاقتراب من نهاية فترة ما بعد الظهر بدأت موجات السراب تستقر بعض الشيء، فاكتشفوا نهاية الجزيرة على مسافة، وكانت واضحة للغاية.. كان هناك خليط مشوش من الأشكال المربعة العادية، مع وجود كتلة واحدة هائلة قابعة في «اللاجون» وكانت الطيور البحرية تأوي إلى أعشاشها هنالك.

فقال «رالف»:

- مثل السكر الناعم فوق كعكة وردية اللون.

وقال «جاك»:

- لن نستطيع الدوران حول هذه الزاوية؛ لأنّه لا توجد هناك زاوية، وإنما يوجد فقط انحناء تدريجي، ويمكنك أن تلحظ أن الصخور تزداد سوءًا.

فوضع «رالف» يده على عينيه كالمظلة ليقيها من وهج الضوء، وراح يتابع الخطوط الخارجية المشرشرة للصخور الشامخة نحو الجبل. كان هذا الجزء من الشاطئ أو «البلاج» أقرب إلى الجبل من أي جزء آخر شاهدوه، فقال:

- سنحاول تسلق الجبل من هنا، وأعتقد أنّ هذه هي أسهل وسيلة، أن توجد كميات قليلة من الأحراش، وكميات كثيرة من الصخور الوردية اللون. هيا بنا.

وبدأ الأولاد الثلاثة في الزحف لأعلى فوق المنحدر الوعر، ومن المؤكد أن قوى مجهولة قد انتزعت وبعثرت هذه المكعبات في عنف، حتى إنها أصبحت ملقاة هكذا في اعوجاج، ومكومة على بعضها البعض على نحو يوحى بتناقص قوتها. وكان أهم المعالم المألوفة هو وجود منحدر صخري شاهق وردي اللون تعلوها كتلة صخرية منحرفة ومائلة، وهذه الكتلة تعلوها كتلة أخرى،

وتلك تعلوها كتلة أخرى، إلى أن أصبح اللون الوردي بمثابة كومة من الصخر المتوازن الناتئ. عبر الخيالات الحلقية للنباتات المتسلقة للغاية. وحيثما ترتفع المنحدرات الصخرية الشاهقة عن الأرض تكون هناك غالبًا الدروب الضيقة المتجهة لأعلى في التواء. وكان باستطاعتهم أن يتقدموا شيئًا فشيئًا على تلك الدروب متوغلين في عالم الشجيرات، بحيث تكون وجوههم متجهة نحو الصخر.

- ما الذي أنشأ هذا الدرب؟

وتوقف «جاك» عن السير وراح يمسح العرق المتصبب من وجهه، ووقف..

- رجال؟

وهز «جاك» رأسه:

- بل حيوانات؟!

وحلق «رالف» في الظلام تحت الأشجار. واهتزت الغابة اهتزازًا خفيفًا للغاية.

- هيا بنا.

ولم تكن الصعوبة متمثلة في الصعود المنحدر حول أكتاف الصخرة، وإنما كانت متمثلة في الغوص من وقت لآخر عبر الشجيرات من أجل الوصول إلى الممر التالي، فهناك كانت جذور وسيقان النباتات المتسلقة متشابكة للغاية، حتى إن الأولاد اضطروا لأن يشقوا طريقهم بينها في حذر مثل الإبر المرنة، وكان مرشدهم الوحيد - بصرف النظر عن الأرض البنية اللون، وومضات الضوء المنبعثة من وقت لآخر من خلال أوراق النباتات -هو ميل المنحدر، وما إذا كان هذا الثقب على الرغم من تطويقه بحزمات من النباتات المتسلقة يقف في وضع أعلى من ذلك الثقب..

وتحركوا صاعدين لأعلى بطريقة أو بأخرى، وبعد أن وقعوا في حبائل هذه الشراك المتشابكة ووصلوا إلى أحرج اللحظات التفت «رالف» للآخرين ونظر إليهما بعينين لامعتين:

- واكو!

- ساحر!

- رائع!

ولم يكن هناك سبب واضح يدعو إلى ابتهاجهم، فهم الثلاثة كانوا يموجون بالسخونة في داخل أجسادهم، وكانوا متسخين ومرهقين من شدّة التعب. وكان «رالف» قد تعرض لخدوش شديدة للغاية، وكانت النباتات المتسلقة في نفس سُمك أفخاذهم، ولم تترك بينها سوى أنفاس قليلة تسمح بالمزيد من التوغل. وصاح «رالف» على سبيل التجربة، وراحوا يصغون لتلك لأصداء.

وقال «جاك»:

- هذا استكشاف حقيقي. أراهن على أن أحدًا لم يوجد هنا من قبل.

فقال «رالف»:

- ينبغي علينا أن نرسم خريطة، ولكن المشكلة أننا لا يوجد معنا أي ورق.

فقال «سيمون»:

- يمكننا أن نرسم على لحاء الشجر بأن ندعك مادة سوداء عليه..

ومرة أخرى ظهرت المشاعر المشتركة الجليلة منبثقة عن العيون اللامعة في المكان المعتم.

ولم يكن هناك مكان يصلح للوقوف على الرأس، وفى هذه المرّة عبر «رالف» عن حدة العاطفة في داخله، وذلك بالتظاهر بطرح «سيمون» على الأرض فأصبحا كومة لاهثة سعيدة تحت الضوء الأقل من الغسق.

وعندما انفصلا تحدث «رالف» أولًا:

- يجب أن نستأنف المسير.

وكان الجرانيت الوردي للصخرة التالية بعيدًا عن النباتات المتسلقة والأشجار، حتى إنّه أصبح بمقدورهم الهرولة والانطلاق بسرعة فوق الممر، وهذا أدى مرة أخرى إلى غابة مفتوحة أكثر من ذي قبل، حتى إنهم لمحوا البحر الممتد، ومع الانفتاح جاءت الشمس فجففت العرق الذي نفذ إلى ملابسهم في الظلام بسبب الحرارة المشبعة بالرطوبة. وأخيرًا أصبح الطريق المؤدى إلى القمة يشبه التسلق فوق صخرة وردية بدون أي خوض أو غوص عبر الظلام، واختار الأولاد طريقهم عبر ممرات ضيقة، وفوق أكوام من الحجارة المدببة الأطراف.

- انظر! انظر!

ففوق هذا الطرف من الجزيرة رفعت الصخور المبعثرة أكوامها ومداخنها لأعلى، والصخرة التي كان «جاك» يستند عليها تحركت وأحدثت صوتًا مزعجًا كالصرير عندما دفعوها.

- هيا بنا.

- هيا بنا إلى القمة.

ينبغي تأجيل الهجوم على القمة واقتحامها لبعض الوقت لحين أن يوافق الأولاد الثلاثة على قبول هذا التحدي. وكانت الصخرة في جسم سيارة صغيرة.

- ارفع. هيلا هوب!

وينحنون للخلف وللأمام مع الالتزام بالإيقاع:

- ارفع. هيلا هوب!

- زيدوا من سرعة البندول أكثر فأكثر.. تقدموا وركزوا على تلك النقطة عند التوازن البعيد - زيدوا - زيدوا - زيدوا.

- ارفعوا، هيلا هوب.

وتلكأت الصخرة الهائلة واحتفظت بتوازنها مرتكزة على أصبع قدم واحدة، وقررت عدم الرجوع، وتحركت عبر الهواء، وهبطت وارتطمت وانقلبت وقفزت في طنين عبر الهواء، وهشمت الأرض وأحدثت حفرة عميقة في الجزء الأعلى المتغضن من الغابة، فتطايرت الأصداء والطيور وطافت سحب التراب البيضاء والوردية، واهتزت الغابة الواقعة على مسافة أسفلهم، وكأنما قد مر بها وحش هائج مغتاظ، وبعدئذ ساد الصمت في أرجاء الجزيرة.

- واكو!

- مثل القنبلة!

- هوي - أ- أو!

وظلوا لمدّة خمس دقائق غير قادرين على جر أنفسهم بعيدًا عن هذا الانتصار. ولكنهم في نهاية الأمر غادروا هذا الموقع.

وأصبح الطريق إلى القمة سهلًا بعد ذلك. وعندما وصلوا إلى المساحة الأخيرة توقف «رالف»:

- يا إلهي!

لقد كانوا يقفون عند حافة تجويف دائري في طرف الجبل، وكان هذا التجويف مملوءًا بالأزهار الزرقاء اللون، وهي نباتات صخرية من نوع ما، وكانت الأزهار متدفقة ومنسابة لأسفل عبر فتحة التجويف، كما كانت ملقاة بكميات هائلة بين أنحاء الغابة، وكان الهواء مثقلًا بالفراشات التي كانت تحوم وترفرف وتستقر.

وإلى ما وراء التجويف كانت توجد القمة المربعة للجبل، وسرعان ما أصبحوا واقفين على تلك القمة. وكانوا قد خمنوا من قبل أنّ هذا المكان بمثابة جزيرة، فهم عندما تسلقوا الصخور القرمزية ورأوا وجود البحر على كلا الجانبين مع وجود الارتفاعات الشفافة للهواء أدركوا بالغريزة أن البحر يقع على جميع الجوانب، غير أنهم آثروا عدم الإفصاح عن ذلك بشكل قاطع إلى أن وقفوا أخيرًا فوق القمة وتمكنوا من مشاهدة الأفق الدائري للمياه.

وهنا استدار «رالف» نحو الآخرين:

- هذه الجزيرة تخصنا وتنتمي إلينا.

وكانت الجزيرة تشبه الزورق من حيث الشكل إلى حد ما، فهي محدبة ومقوسة بالقرب من الطرق، عن طريق الانحدار غير المنتظم نحو الشاطئ. الواقع خلفهم. وعلى الجانبين توجد الصخور والمنحدرات الصخرية الشاهقة وقمم الأشجار والمنحدر الشديد الميل، وإلى الأمام هنالك كان يوجد طول القارب وانحدار خفيف بعض الشيء مع وجود منطقة مكسوة بالأشجار، بالإضافة إلى بعض المساحات الوردية اللون، وبعدئذ يجئ السطح المستوى للجزيرة المملوء بالأحراش والخضرة الكثيفة، ولكنّه يتخذ في نهايته شكل الذيل القرمزي اللون. وعند انتهاء الجزيرة في الماء كانت توجد جزيرة أخرى في شكل صخرة تكاد تكون منفصلة وواقفة مثل القلعة في مواجهتهم عبر المساحة الخضراء، مع وجود برج واحد ناتئ وردي اللون.

وراح الأولاد يحملقون في كل هذا، ثم بدءوا يرقبون البحر. لقد كانوا على ارتفاع شاهق، وكانت فترات ما بعد الظهر قد حلت، ولم يؤثر السراب على جمال المنظر وروعته.

- تلك شعاب مرجانية. شعاب صخرية مرجانية. لقد سبق لي أن شاهدت صورًا تشبه تلك الشعب.

وكانت هذه الشعب المرجانية تطوق أكثر من جانب حول الجزيرة، وتقع إلى مسافة ميل تقريبًا من الجزيرة، وتتوازى مع المساحة التي ظنوا أنها بمثابة «البلاج» الخاص بهم. وكانت الشعب المرجانية مرسومة في خربشة تخلو من العناية في البحر، كما لو كانت عملاقًا وقد انحنى لأسفل ليحدد شكل الجزيرة بوضع علامات بالطباشير منسابة، ولكنّه لم يتمكّن من إنجاز هذا العمل بسبب شعوره بالتعب. وفى الداخل كانت توجد مياه لها لون أزرق طاووسي يميل إلى الاخضرار، كما كانت توجد بعض الصخور والأعشاب المائية، وكأنك أمام معرض للأحياء المائية. أمّا في الخارج فكانت توجد زرقة مياه البحر الداكنة، وكانت مياه البحر تجري بسرعة، حتى إن سلاسل طويلة من زبد البحر كانت تصطدم بالشعب المرجانية وتتناثر في تضاؤل بعيدًا عنها. فشعروا للحظات أن القارب كان يتحرك للخلف بانتظام فأشار «جاك» بيده لأسفل.

وإلى ما وراء سلسلة الجبال والمنحدرات الصخرية الشاهقة كان هناك شقّ بالغ يمكن مشاهدته بسهولة بين الأشجار؛ إذ كانت توجد جذوع الأشجار المتمزقة. وبعدئذ كان يوجد السحاب أعلى الأرض، الذي لم يترك سوى أهداب شجرة نخيل تقع ما بين المنحدرات الصخرية والبحر. وكان يوجد هناك أيضًا الرصيف الناتئ في «اللاجون» والذي يتحرك بالقرب منه أشكال تشبه الحشرات.

ووضع «رالف» تخطيطًا كروكيًا، فرسم خطًا مجدولًا يمتد من البقعة الجرداء التي يقفون عليها ويهبط إلى أسفل المنحدر، ثم الأخدود وعبر الأزهار، وحول وإلى أسفل الصخرة التي تبدأ من عندها الصخرة المغمورة في مياه البحر.

ذلك هو أسرع طريق للعودة، واستمتعوا بحقوق السيطرة والهيمنة، وظهر البريق واللمعان في عيونهم، وتفتحت أفواههم، ودب الانتصار في أوصالهم، وارتفعت روحهم المعنوية، وشعروا بالصداقة تهيمن عليهم. وقال «رالف» في وقار:

- لا يوجد ذلك الدخان الذي ينبعث من القرى، ولا توجد قوارب، ولسوف نتأكد تمامًا من هذه الحقيقة فيما بعد، ولكني أعتقد أنّ هذا المكان غير مسكون.

فصاح «جاك»:

- سنعمل على الحصول على الطعام والاصطياد والإمساك بالأشياء إلى أن يتمكنوا من العثور علينا.

ونظر «سيمون» إلى كليهما بدون أن ينطق بكلمة واحدة، مكتفيًا بالإيماء برأسه إلى أن يهدل شعره الأسود للخلف وللأمام، وكان وجهه محتقنًا في انفعال.

ونظر «رالف» لأسفل في الاتجاه الآخر الذي لا يوجد به شعاب مرجانية.

وقال «جاك»: إنّه أكثر انحدارًا.

وقال «رالف» بحركة على شكل الكوب.

- تلك المساحة من الغابات الموجودة لأسفل هنالك.. إن الجبل يعترضها.

وكان كل نتوء في الجبل يعترض الأشجار والأزهار. وفى تلك الآونة تحركت الغابة وزجرت، وظهر ما يشبه الضرب أو الارتطام بين الأغصان. ورفرفت الأراضي القريبة الزاخرة بالأزهار الصخرية، وهب نسيم بارد لمدّة نصف دقيقة على وجوههم.

فمد «رالف» ذراعيه.

- كل شيء هنا ملكنا.

وضحكوا جميعًا وتشقلبوا، وراحوا يتصايحون فوق الجبل:

- أشعر بالجوع.

وعندما تكلّم «سيمون» عن شعوره بالجوع أدرك الآخران أنهما يشعران أيضًا بالجوع.

فقان «رالف»:

- هيا بنا. لقد توصلنا إلى ما كنا نريد أن نعرفه.

وتدافعوا بالمناكب هابطين على منحدر صخري، ووقعوا بين الأزهار، وشقوا طريقهم بين الأشجار.. وهنا توقفوا وراحوا يفحصون الشجيرات فيما حولهم في حب استطلاع ودهشة.

وكان «سيمون» أول من تحدث:

- إنها تشبه الشموع.. شجيرات على شكل شموع، وبراعم على شكل شموع. وكانت الشجيرات شديدة الاخضرار للغاية، وعطرية الرائحة، وكانت البراعم العديدة باهتة الاخضرار ومضمومة

لتتفادى الضوء. وأغمد «جاك» سكينته في إحداها وأحدث بها جرحًا، فهبت الروائح العطرية عليهم.

- براعم على شكل شموع!

وقال «رالف»:

- لا يُمكنك إيقاد هذه الشموع.. فهي تشبه الشمع فقط.

وقال «جاك» في ازدراء:

- شموع خضراء.. لا يمكننا تناولها كطعام.. هيا بنا.

وكانوا عند بدايات الغابة الكثيفة يجرون بأقدام مرهقة فوق أحد الدروب عندما سمعوا الأصوات - أصواتًا حادة قصيرة - ووقع الحوافز الحادة على الممر. وعندما اندفعوا للأمام تزايدت الأصوات الحادة القصيرة إلى أن أصبحت بمثابة نوبة من الجنون المؤقت، وعثروا على خنزير صغير واقع في حبائل من النباتات المتسلقة، حيث كان يلقي بنفسه بين الحبائل المرنة المطاطة بكل جنون الرعب المطلَق، وكان صوته رفيعًا وثاقبًا ومفعمًا بالإلحاح الشديد، فاندفع الأولاد الثلاثة للأمام، وسحب «جاك» سكينته مرة أخرى متظاهرًا بالشجاعة، ورفع ذراعه في الهواء، وتوقفت يده، وحدثت هناك فجوة، واستمر الخنزير في الصراخ، واستمرت النباتات المتسلقة في الاهتزاز بعنف واستمر نصل السكينة في اللمعان في نهاية ذراع ناتئ العظام، وكانت فترة التوقف طويلة على نحو جعلهم يدركون مدى عنف السكينة لدى هبوطها لأسفل، وعندئذٍ تمكّن الخنزير من تحرير نفسه من النباتات المتسلقة، وانطلق مسرعًا للاختباء بين الأحراش، فراحوا ينظر بعضهم إلى بعض، وإلى المكان الذي حدث فيه الرعب، وكان وجه «جاك» شاحبًا تحت بقع النمش، ولحظ أنه كان لا يزال رافعًا السكينة لأعلى، فأنزل ذراعه ووضع السكينة في غمدها. وبعدئذ تضاحك ثلاثتهم في خجل، وبدءوا في التسلق عائدين إلى الممر.

وقال «جاك»:

- لقد كنت أتخير مكانًا. لقد كنت أنتظر للحظات لكي أتخذ قرارًا بشأن أي الأماكن التي ينبغي أن أطعنها في جسد الخنزير.

فقال «رالف» في وحشية:

- كان ينبغي عليك أن تضرب الخنزير وتقتله بطعنة واحدة، ولقد سمعت من قبل أن الناس يربكون الخنزير ويطعنونه.

فقال «جاك»:

- ينبغي على المرء أن يقطع أولًا حلق الخنزير لكي ينزف دماءه، وإلا فإنّه لا يُمكنك أن تأكل لحمه.

- ولماذا لم تفعل ذلك؟

كانوا يدركون جيدًا أن السبب في عدم قيامه بطعن الخنزير هو بشاعة السكينة وهي تهبط وتقطع في اللحم الحي، وأيضًا بسبب الدماء التي لا تطاق.

وقال «جاك»:

- كنت بصدد ذبحه، ولكنّه سارع إلى الهرب.

وكان يسير أمامهما فلم يتمكنا من مشاهدة وجهه. واستطرد:

- لقد كنت أتخير مكانًا، وفى المرّة القادمة!

وسحب سكينته بعنف من الجراب وطعن جذع شجرة في عنف..

- في المرّة القادمة لن تكون هناك رحمة أو شفقة.. ونظر بوحشية فيما حوله متحديًا أن يعارضه أو يكذبه أحد.

وبعدئذ خرجوا إلى ضوء الشمس الساطع، وانشغلوا لبعض الوقت في البحث عن الطعام والتهامه أثناء تحركهم لأسفل هابطين من الصخرة المنخفضة، ومتجهين نحو الرصيف والاجتماع.

الفصل الثانى

نيران فوق الجبل

ما إن انتهى «رالف» من النفخ في المحارة حتى ازدحم الرصيف. وكان هذا الاجتماع مختلفًا عن الاجتماع الذي عقد في الصباح؛ لأن شمس ما بعد الظهر مالت وانحدرت من الجانب الآخر للرصيف، وارتدى معظم الأطفال ثيابهم؛ لأنّهم لم يشعروا بالآلام الشديدة الناجمة عن وهج الشمس إلا بعد فوات الأوان.. وكان أولاد جوقة المرتلين قد خلعوا معاطفهم الفضفاضة.

وجلس «رالف» على جذع شجرة واقع على الأرض وقد جعل جانبه الأيسر في اتجاه الشمس، وعلى يمينه كان يوجد معظم أفراد جوقة المرتلين، وعلى يساره كان يوجد الأولاد الأكبر سنًا الذين لم يكونوا قد تعرف بعضهم على البعض قبل الإجلاء عن الموقع الحربي، وأمامه كان يوجد الأطفال الصغار جالسين القرفصاء فوق العشب.

وساد الصمت في تلك الآونة، ورفع «رالف» المحارة الشاحبة الاصفرار الوردية اللون إلى ركبتيه، ولم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن ينهض واقفًا أم يظل جالسًا، وألقى نظرة جانبية إلى يساره نحو بركة الاستحمام، وكان «بيجي» جالسًا في مكان قريب، غير أنه لم يقدم أي عون أو مساعدة.

وسلك «رالف» حنجرته:

- حسنًا إذن.

واكتشف على الفور أنه باستطاعته التحدّث بطلاقة مع شرح وتوضيح الأمور لهم.. فمرر بيده على شعره الأشقر ثم قال:

- نحن موجودون على جزيرة، فقد صعدنا إلى قمة الجبل وشاهدنا المياه المحيطة بنا من جميع الجوانب، ولم نشاهد منازل ولا دخانًا ولا آثار أقدام على الأرض، ولا قوارب ولا آدميين، فنحن موجودون على جزيرة غير مسكونة، حيث لا يوجد بها أناس آخرون.

وقاطعه «جاك» أثناء حديثه:

- ومع ذلك فأنتم في حاجة إلى جيش للقيام بأعمال الصيد.. صيد الخنازير.

- نعم، توجد خنازير في هذه الجزيرة.

وحاول ثلاثتهم نقل الإحساس والشعور الغامض بذلك الشيء الحي الوردي الذي كان يكافح ويناضل بين النباتات المتسلقة.

- لقد شاهدناه.

- كان يُطلق صرخات جنونية طويلة وحادة.

- وأفلت هاربًا.

- قبل أن أتمكن من قتله.. ولكن.. في المرّة القادمة!

وطعن «جاك» جذع شجرة بسكينته في عنف، ونظر فيما حوله في شيء من التحدي.

ثم ساد الهدوء الاجتماع مرة أخرى.

فقال «رالف»:

- ولعلكم تدركون الآن أننا بحاجة إلى صيادين لكي يحضروا لنا اللحوم، وهناك شيء آخر أود الإشارة إليه.

ورفع المحارة على ركبتيه وتفحص الوجوه التي لفحتها حرارة الشمس.

- لا يوجد هنا أي أشخاص كبار؛ لذلك سنضطر لأن نرعى شئوننا بأنفسنا.

وظهرت بعض الهمهمة، ثم ساد الصمت الأوضاع مرة أخرى.

- وهنا شيء آخر: لا يمكننا أن ندع كل شخص يتحدث على الفور وفى الحال. ولكننا سنطبق نظام «رفع الأيدي» مثلما هو الحال في المدارس.

ورفع المحارة أمام وجهه، وألقى نظرة خاطفة على الفم:

- سوف أعطيه المحارة.

- المحارة؟

- ذلك هو الاسم الذي يُطلق على هذه الصدفة.

- سأعطى المحارة للشخص التالي ليتكلم.. فهو يمكنه الإمساك بالمحارة أثناء تحدثه.

- ولكن..

- انتبهوا.

- ولن يقاطعه أحد أثناء تكلمه.. باستثنائي أنا.. فأنا فقط الذي أقاطعه.

ونهض «جاك» واقفًا على قدميه، وصاح في إثارة:

- وسنضع القوانين.. مجموعة من القوانين. وبعدئذ إذا انتهك أي فرد القوانين..

- هوي.. أوه!

- واكو!

- دوانك!

وأحس «رالف» بالمحارة وهي تُرفع من حجره. وبعدئذ كان «بيجي» واقفًا محتضنًا المحارة العظيمة ذات اللون الأصفر الشاحب، وتلاشى الصياح.. ونظرًا لأن «جاك» قد تُرك واقفًا على قدميه فقد راح ينظر إلى «رالف»، فابتسم «رالف»، وطرق بخفة على الكتلة الخشبية. فجلس «جاك» وخلع «بيجي» نظارته وراح يرمش بعينيه أمام جموع الحاضرين أثناء قيامه بمسح نظارته على قميصه.

- أنت بذلك تعرف «رالف» وتعطله؛ لأنك لا تدعه يصل إلى أهم النقاط على الإطلاق.

وتوقف عن الكلام على نحو أعطى تأثيرًا قويًا:

- من يعرف أننا موجودون هنا؟ من؟

- إنهم علموا بذلك في المطار.

- الرجل الذي معه البوق.

- والدي.

ووضع «بيجي» نظارته على عينيه.

وقال «بيجي»:

- لا أحد يعرف أين نحن الآن.

وازداد شحوبه عن ذي قبل، بل وأصبحت أنفاسه لاهثة:

- ربما كانوا يعرفون المكان الذي كنا نهدف للوصول إليه، وربما لم يعرفوا ذلك، ولكنهم لا يعرفون المكان الذي نوجد فيه الآن بعد أن تأكد لهم أننا لم نصل إلى هناك على الإطلاق.

وحملق فيهم فاغرًا فاه للحظات ثم تمايل وجلس.. فأخذ «رالف» المحارة من يديه.. واستطرد:

- ذلك هو ما كنت بصدد أن أقوله لكم.. فعندما أطلقت النيران على الطائرة وسقطت مشتعلة لا أحد منكم كان يعرف المكان الذي كنا نحلق فوقه، وقد نستمر في البقاء هنا لفترة طويلة.

وساد صمت مطبق، حتى إنّه كان بمقدورهم سماع تنفس «بيجي» غير المنتظم، ومالت الشمس، وأرسلت أشعه ذهبية على نصف ساحة الرصيف، وتتابعت موجات النسيم فوق

«اللاجون» مثل القطط الصغيرة وهي تشق طريقها عبر الرصيف ونحو الغابة. وأزاح «رالف» للخلف كتلة الشعر الأشقر التي كانت متدلية على جبهته.

- ولذلك فإننا قد نظل هنا لفترة طويلة.

ولاذ كل فرد بالصمت المطبق، وابتسم هو فجأة.

- ولكن هذه الجزيرة. رائعة! فنحن - جاك وسيمون وأنا - قد تسلقنا الجبل وأدركنا أنها جزيرة ممتازة. إذ يوجد بها طعام وشراب و..

- وصخور.

وأزهار زرقاء للون..

وأفاق «بيجي» إغمائه بعض الشيء.. وأشار إلى المحارة الموجودة بين يدي «رالف»، والتزم كل من «جاك و«سيمون».. واستطرد «رالف» في حديثه:

- ويمكننا أثناء انتظارنا أن نقضي وقتًا جميلًا رائعًا على هذه الجزيرة.

وأومأ إيماءة كبيرة شاملة أثناء كلامه:

- فهي تشبه ما قرأناه في الكتب..

وعلى الفور ظهر شيء من الصخب والضوضاء:

- جزيرة الكنوز.

- طيور السنونو والأمازونيات.

- جزيرة الشعب المرجانية.

ولوح «رالف» بالمحارة:

- هذه هي جزيرتنا، وإنها لجزيرة رائعة.. وإلى أن يحضر الناس الكبار لتسلمنا سنقضي وقتًا مرحًا مليئًا بالتسلية والبهجة.

ورفع «جاك» يده طالبًا التحدث في المحارة، ثم قال:

- وتوجد خنازير، ويوجد طعام، وتوجد مياه للاستحمام في ذلك الجدول المائي الصغير الموجود هنالك... يوجد كل شيء. ألم يعثر أي شخص على أي شيء آخر؟

وأعاد المحارة إلى «رالف» ثم جلس، وكان من الواضح أن أحدًا لم يعثر على أي شيء آخر.

ولاحظ الأولاد الكبار أولًا الطفل عندما قام، إذ كانت هناك مجموعة من الأولاد الصغار تستحثه للسير والتقدم للأمام، ولكنّه لم تكن لديه الرغبة في الذهاب، وكان ولدًا ضئيل الجسم للغاية، ويبلغ من العمر حوالي ست سنوات، وكان أحد جانبي وجهه موسومًا بوحمة في لون ثمرة التوت. ثم وقف آنئذ منحرفًا عن الخط العمودي بسبب الإعلان البغيض عنه، وشق طريقه بصعوبة على العشب الخشن في حذر، وكان يغمغم ويدمدم وهو على وشك البكاء.

ودفعه الأولاد الصغار الآخرون وهم يتهامسون، ولكن في شيء من الجديّة.، نحو «رالف».

فقال «رالف»:

- حسنًا. تعال.

ونظر الولد الصغير حوله في ذعر شديد:

- تكلم بوضوح في غير تردد أو خوف.

ومد الولد الصغير يديه ليمسك بالمحارة، فضج الحاضرون بالضحك، فسحب يديه على الفور وأجهش بالبكاء.

فصاح «بيجي»:

- دعوه يمسك المحارة.. دعوه يمسك بها.

وحثه «رالف» أخيرًا على الإمساك. بالصدفة (المحارة) ولكن الانفجار الضاحك كان قد سلب صوت الطفل. فركع «بيجي» بجوار الطفل ووضع إحدى يديه على المحارة الهائلة وراح يصغي ويستمع ويشرح ويفسر لجمهور الحاضرين:

- إنّه يريد أن يعرف ما ستفعلونه بشأن الشيء الثعباني؟!

فضحك «رالف» وانفجر الأولاد الآخرون في الضحك معه.

فانسحب الولد الصغير إلى داخل ذاته أكثر من ذي قبل.

- حدثنا عن ذلك الشيء الثعباني.

- إنّه يقول الآن إنّه يشبه الحيوان المفترس.

- حيوان مفترس؟

- شيء كالثعبان. كبير وضخم للغاية، ولقد شاهده بنفسه.

- أين؟

- في الغابة.

فلا النسائم المنتشرة، ولا ميل الشمس نحو الغروب كانت تسمح بوجود أي قدر - ولو ضئيل - من البرودة المعتدلة، بحيث يستطيع أي كائن أن ينام تحت الأشجار وتحرك الأولاد في قلق.

وقال «رالف» في عطف وحنان.

- لا يمكن أن يوجد حيوان مفترس أو شيء ثعباني على جزيرة صغيرة كهذه، فهذه الأشياء لا توجد إلا في البلاد الضخمة مثل إفريقيا أو الهند.

فدبت التمتمة والإيماءات الوقور من رءوس الحاضرين:

- إنه يقول إن الوحش جاء في الظلام.

- إذا كان قد جاء في الظلام فهذا يعنى أنه لم يستطع مشاهدته.

فدوت عاصفة من الضحك والهتاف والتهليل:

- أسمعت هذا؟ إنّه يقول إنّه شاهد ذلك الشيء في الظلام.

- إنّه لا يزال يكرر بأنه قد شاهد الحيوان المفترس، ويقول إن الحيوان جاء، ثم انصرف، ثم جاء مرة أخرى وكان يريد التهامه.

وتضاحك «رالف.» وراح ينظر فيما حوله بين الوجوه المحدقة به للحصول على تأييد لكلامه، فوافق على كلامه الأولاد الأكبر سنًا، ولكن ظهر - بين الأولاد الصغار هنا وهناك - الشك الذي كان يتطلب ما هو أكثر من التأكيد المنطقي العقلاني.

- لابد أنه كان يحلم حلمًا مروعًا أو كان يمرّ بكابوس بعد أن تعثر بين كل ذلك الكم الهائل من النباتات المتسلقة.

فظهر مزيد من الإيماءات الوقور، فهم يعرفون الكوابيس، ومروا بتلك التجربة.

- إنّه يقول إنّه شاهد الوحش المفترس الذي يشبه الثعبان، ويتساءل عما إذا كان سيعود مرة أخرى في هذه الليلة.

- ولكن لا توجد هناك أية وحوش مفترسة!

- إنّه يقول إن الشيء الشبيه بالثعبان تحول في الصباح إلى أشياء تشبه الحبال في الأشجار، وتدلت من الأغصان، وهو. يتساءل عما إذا كانت ستعود في هذه الليلة؟

- ولكن لا توجد هناك أية وحوش مفترسة.

ولم تظهر أية ضحكات على الإطلاق في هذه المرّة، وإنما ظهر المزيد من الحذر والترقب. ودفع «رالف» بكلتا يديه عبر شعره، ونظر إلى الولد الصغير في شيء من التسلية الممزوجة بالضيق والسخط.

وهنا أمسك «جاك» بالمحارة:

- بالطبع «رالف» على حق فيما يقوله إذ لا يوجد هناك شيء يشبه الثعبان، ولكن إذا كان يوجد هناك ثعبان فإننا سنصطاده ونقتله، كما أننا سنقوم باصطياد الخنازير؛ لكي نقدم لحومها لكل شخص هنا، ولسوف نبحث عن الثعبان أيضًا.

- ولكن لا يوجد هناك أي ثعبان.

- سنتأكد من ذلك تمامًا عندما نخرج للصيد.

وكان «رالف» يشعر بالضيق والتبرم، بل كان يشعر بالإحباط والهزيمة في تلك اللحظات؛ إذ وجد نفسه يواجه شيئًا لا يمكن الإمساك به، وكانت العيون التي تنظر إليه في انتباه وتركيز شديدين خالية تمامًا من روح الفكاهة والمزاح.

- ولكن لا يوجد هناك أي وحش!

وتصاعد شيء ما غير معروف له في داخله وأرغمه على الإصرار على رأيه، فقال بصوت مرتفع مرة أخرى:

- ولكن أقول لكم إنِّه لا يوجد هناك أي وحش.

والتزم الحاضرون بالصمت المطبق.

ورفع «رالف» المحارة مرة أخرى، وعادت له روح الفكاهة عندما فكر فيما ينبغي أن يقوله بعد ذلك:

- والآن نصل إلى أهم الأمور على الإطلاق.. لقد كنت أفكر في ذلك الأمر، كنت أفكر في ذلك الأمر أثناء تسلقنا الجبل.

وابتسم للشخصين الآخرين ابتسامة سرية كالوميض، بها روح التآمر، وأكمل حديثه:

- وعلى البلاج توًا، وهذا هو ما فكرت فيه الآن.. إننا نريد قدرًا من المرح، ونريد أيضًا أن يتم إنقاذنا.

فصدر صوت متحمس للغاية عن الحاضرين معبرًا عن الموافقة بالإجماع، وارتطم به ذلك الصوت وكأنه موجة عارمة، ففقد سياق الحديث.. وراح يفكر مرة أخرى:

- نحن نرغب في أن يتم إنقاذنا، وبالطبع سيتم إنقاذنا.

وتصاعدت الأصوات في ثرثرة مملوءة بالارتياح، فبرغم أن العبارة التي قالها «رالف» لا يدعمها أي دليل أو برهان فإن ثقل السلطة الجديدة لـ «رالف» قد نشر السعادة والأمل بين الحاضرين.. واضطر «رالف» للتلويح بالمحارة؛ لكي يلتزموا الصمت ويستمعوا إليه.

- إن والدي يعمل في الأسطول البحري، وقد سبق أن أوضح لي أنه لا توجد جزيرة على وجه الكرة الأرضية غير معروفة، وقال لي إن ملكة إنجلترا لديها غرفة كبيرة مملوءة بالخرائط، وإن جميع الجزر الموجودة في العالم قد رسمت في تلك الخرائط؛ ولذلك فإن الملكة لديها صورة عن هذه الجزيرة.

فصدرت مرة أخرى أصوات معبرة عن البهجة وارتفاع الروح المعنوية.

- وإن عاجلًا أو آجلًا ستجيئ سفينة إلى هنا، بل قد تكون سفينة والدي ذاتها، وهكذا ترون أننا سيتم إنقاذنا إن عاجلًا أو آجلًا.

وتوقف عن الكلام مع الوصول إلى تلك النقطة.

وشعر الحاضرون أنهم أصبحوا قريبين من الإنقاذ عقب سماع كلماته، وبدءوا يشعرون بالاحترام نحوه، علاوة على ارتياحهم وحبهم له، وبشكل تلقائي راحوا يصفقون بأيديهم، فدوى الرصيف على الفور بالتصفيق الحاد، فتدفقت الدماء إلى وجه «رالف» خجلًا، وألقى نظرة جانبية على «بيجي» الذي كان يعبر عن إعجابه بكل صراحة، ثم ألقى نظرة جانبية أخرى على «جاك» الذي كان يتظاهر بالابتسام وبين أنه يعرف كيف يصفق بيديه.

ولوح «رالف» بالمحارة.

- التزموا بالصمت.. انتظروا.. استمعوا إليَّ..

واستأنف كلامه وسط الصمت المطبق ونشوة الانتصار:

- ... وهناك شيء آخر أود الإشارة إليه.. وهو أننا باستطاعتنا أن نساعدهم على سرعة العثور علينا، إذا اقتربت سفينة ما من الجزيرة فإنهم ربما لا يلحظوننا؛ لذلك ينبغي لنا أن نطلق دخانًا فوق قمة الجبل، وينبغي أن نشعل نيرانًا.

- نيران؟! نشعل نيرانًا؟! '

وعلى الفور نهض نصف عدد الأولاد واقفين، وصاح «جاك» في صخب:

- ونسيت المحارة؟!

- هيا بنا.. اتبعوني.

وضج المكان الواقع تحت أشجار النخيل بالفوضى والحركة. نهض «رالف» واقفًا على قدميه هو الآخر، صائحًا في الموجودين، وطالبا منهم الالتزام بالهدوء، ولكن أحدًا لم يسمعه. إذ انجرف جمهور الحاضرين على الفور نحو الجزيرة، وانصرف وراء «جاك» بل وذهب الأطفال الصغار أيضًا وراحوا يشقون طريقهم بصعوبة بين الأوراق والأغصان، وانفضوا جميعًا من حول «رالف» الذي وجد نفسه واقفًا ومسكًا بالمحارة، ولا أحد حوله، إلا «بيجي».

وكان تنفس «بيجي» قد عاد إلى حالته الطبيعية تمامًا، فقال في شيء من الاستهزاء والاحتقار:

- إنهم يشبهون الأطفال الصغار، ويتصرفون كمجموعة من الأطفال الصغار!

فنظر «رالف» إليه في شيء من الريبة والشك ووضع المحارة على جذع الشجرة.

وقال «بيجي»:

- أعتقد أن الوقت الآن هو وقت تناول الشاي، فماذا سيفعلون على ذلك الجبل؟

وراح يربّت على المحارة في تبجيل واحترام، ثم توقف ونظر لأعلى:

- «رالف» يا «رالف»! إلى أين أنت ذاهب؟

وكان «رالف» قد بدأ يتسلق ويشق طريقه بصعوبة فوق الأعشاب الأولى المحطمة من سياق النباتات. وعلى مسافة بعيدة أمامه كان يرى تحطيم الأعشاب، ويسمع صرخات الضحك والشغب.

وراح «بيجي» يرمقه في اشمئزاز:

- مثل جمهور من الأطفال لصغار.

وتنهد وانحنى وأخذ يعقد رباط حذائه.

وتلاشت تدريجيًا أصوات الأطفال الهائمين على وجوههم فوق الجبل.. ثم ظهر على وجهه تعبيرات الأب الذي يضحي بنفسه من أجل أولاده، والذي ينبغي عليه أن يساير حماس الأطفال العديم المعنى، فالتقط المحارة واتجه نحو الغابة، وبدأ يشق طريقه فوق المساحات التي أشاع فيها الأولاد الفوضى والتلف.

وتحت الجانب الآخر لقمة الجبل كان يوجد رصيف من الغابات. ومرة أخرى وجد «رالف» نفسه يستخدم يده للإشارة لهم.

- هناك عند السفح يمكننا العثور على كمية كبيرة من الأخشاب كما نريد..

فأومأ «جاك» برأسه وعض على شفته السفلى، وعلى مسافة مائة قدم تقريبًا عند الجانب المنحدر للجبل بدت تلك الرقعة من الأرض وكأنها قد خصصت من أجل الحصول على الوقود، فالأشجار التي سبق أن تعرضت بشدة للحرارة المشبعة بالرطوبة ولم تجد سوى طبقة ضئيلة للغاية من الطمى لم تتمكّن من النمو نموًا كاملًا، فسقطت قبل بلوغ النمو الكامل، وأصيبت بالتلف والسوس، فغلفتها النباتات المتسلقة، وشقت الشجيرات الجديدة طريقًا لها بينها.

واستدر «جاك» نحو أفراد جوقة المنشدين - الذين كانوا يقفون على أهبة الاستعداد، وكانت طاقياتهم السوداء التي تحمى رءوسهم قد انزلقت على أذن واحدة مثل «البيريه» - قائلًا:

- سنقوم بتكويم كومة كبيرة.. هيا بنا.

وعثروا على أنسب الممرات المؤدية إلى أسفل الجبل وراحوا يجذبون ويشدون الأخشاب الناشفة بقوّة، أمّا الأولاد الصغار الذين كانوا قد وصلوا إلى قمة الجبل فقد راحوا ينزلقون أيضًا على الممر إلى أن أصبح كل فرد منهمكًا في العمل، إلا «بيجي» وكانت معظم الأخشاب مسوسة للغاية، حتى إنها كانت تتكسر وتتحطم إلى وابل من القطع الصغيرة والشظايا لدى جذبها، غير أنّ بعض جذوع الشجر خرجت سليمة متماسكة في كتلة واحدة. وكان التوءمان: «سام» و«إيريك» هما أول من حصلا على قطعة خشبية أسطوانية الشكل، إلا أنهما لم يتمكنا من عمل أي شيء إلى أن وجد «رالف» و«جاك» و«سيمون» و«روجر» مكانًا يمسكون منه القطعة ليرفعوها. وبعدئذ شقوا طريقهم في بطء مصحوب بالغناء وهم يرفعون ذلك الشيء الميت المشوه المنظر فوق الصخور ويضعونه فوق القمة. وأضاف كل مجموعة من الأولاد كمية - أكبر أو أقل - إلى الكومة، وبدأت الكومة تتزايد في حجمها، ولدى العودة وجد «رالف» نفسه وحيدًا فوق غصن من أغصان الشجر مع «جاك» فابتسم كل منهما لزميله وهما يشاركان في هذا الجهد. ومرة أخرى تزايد الصياح بين النسيم وتحت انحدار ضوء الشمس على الجبل العالي، وظهر الرونق والسحر، وتدفق ضوء الصدفة الرائع غير المرئي، ودبت روح المغامرة فيهما والشعور بالرضا والسرور. قال «رالف»:

- تكاد تكون ثقيلة للغاية!

فالتفت «جاك» نحوه مبتسمًا:

- ليس بالنسبة لنا، فنحن اثنان.

وترنحا معًا وهما يبذلان الجهد المشترك لنقل الحمل الثقيل لأعلى فوق المنحدر الأخير لجبل. وراحا ينشدان معًا.

- واحد. اثنين. ثلاثة..:

ثم ألقيا بالقطعة الخشبية فوق الكومة الهائلة، وبعدئذ قفلا راجعين وهما يضحكان في بهجة ملوءة بمشاعر الانتصار، حتى إن «رالف» اضطر لأن يقف على الفور على رأسه معبرًا عن شدّة نشوته، وتحتها كان الأولاد لا يزالون يعملون في جد واجتهاد، برغم أنّ بعض الأطفال الصغار ظهر عليهم بعض الملل وعدم الاكتراث، حيث راحوا يبحثون في تلك الغابة الجديدة عن الثمار ليأكلوها، وعندئذٍ وصل التوءمان في مثابرة وفى ذكاء واضح إلى قمة الجبل وقد امتلأت أذرعهما بأوراق الشجر الجافة، وألقيا بها على الكومة الكبيرة. وعندما أحسّ الأولاد أن الكومة أصبحت كاملة بدءوا يتوقفون الواحد تلو الآخر عن إحضار المزيد من الأخشاب، ووقفوا عند قمة الجبل الوردية اللون وبعدئذ عادت الأنفاس اللاهثة إلى حالتها الطبيعية، وجف العرق.

ونظر كل من «رالف» و«جاك» إلى زميله، والتف باقي الأولاد حولهما.. وتصاعدت في داخلهما مشاعر الخجل من نفسيهما، ولم يعرفا كيف يبدأان في الاعتراف بذلك الإدراك لمخجل.

وكان «رالف» هو الذي تحدث أولًا، وقد اكتسى وجهه باللون القرمزي.

- هل يُمكنك؟

وسلك صوته وحنجرته واستطرد:

- هل يُمكنك أن تشعل النيران؟

وأصبح الموقف الحرج مكشوفًا أمام الجميع، وتصاعدت الدماء في وجه «جاك» هو الآخر، وبدأ يتمتم في غير وضوح:

- عليك أن تحك عصوين. عليك أن تحك.

وحملق في «رالف» الذي نطق في غير تبصر بالاعتراف الأخير بالعجز وعدم الصلاحية.

- هل يوجد أي كبريت مع أي شخص؟

فقال «روجر»:

- عليك بعمل عقدة أنشوطية مع جعل السهم يدور بسرعة.

وحك يديه في حركة تمثيلية صامتة وقال:

- بس، بس..

وكان هناك قدر ضئيل من الهواء يتحرك فوق الجبل. وجاء «بيجي» مع ذلك الهواء مرتديًا قميصًا وبنطلونا قصيرًا، وكان يجري في تثاقل وحذر خارجًا من الغابة مع ضوء شمس المساء المنعكس في بريق على نظارته، وكان ممسكًا بالمحارة تحت ذراعيه.

فناداه «رالف» وصاح قائلًا:

- «بيجي» أيوجد معك كبريت؟

وردد الأولاد الآخرون نفس التساؤل بصوت مرتفع إلى أن دوى الجبل بضجيج الأصوات، فهز «بيجي» رأسه، ووصل إلى الكومة.

- يا إلهي! لقد كومتم كومة كبيرة، أليس كذلك؟

وهنا أشار «جاك» فجأة:

- نظارته - يمكن استخدامها كنظارة احتراق.

ووجد «بيج» نفسه محاطًا بالأولاد قبل أن يتمكّن من الإفلات والرجوع إلى الوراء.

- دعوني أذهب وشأني.

وتصاعد صوته إلى حد الصراخ في رعب عندما جذب «جاك» نظارته في عنف وخلعها من وجهه.

- لا تقم بهذا العمل الطائش.. أعد لي نظارتي.. إنني لا أكاد أرى بدونها.. إنك ستحطم المحارة!

فأزاحه «رالف» بمرفقه إلى جانب، وركع بجوار الكومة.

- لا تحجب ضوء الشمس.

وكان هناك دفع وجذب وصيحات فضولية..

وراح «رالف» يحرك العدسات للأمام والخلف ونحو هذا الاتجاه وذاك الاتجاه إلى أن وقعت صورة بيضاء لامعة للشمس المنحدرة نحو الغروب فوق قطعة الخشب المتآكل. وعندئذٍ تصاعد على الفور دخان ضئيل رفيع، مما جعل «رالف» يسعل.. وركع «جاك» هو الآخر وراح ينفخ في رفق إلى أن انحرف الدخان بعيدًا وتزايدت كثافته، وظهر لهيب ضئيل - وكان اللهيب الضئيل يكاد يكون غير مرئي في بادئ الأمر تحت الضوء الساطع للشمس، وبعدئذ أحاط بغصن ضئيل، وتزايد وتصاعد، وتزخرف بالألوان، وتصاعد إلى أن وصل إلى غصن مرتفع، فتفجر ذلك الغصن في طقطقة حادة عالية، وتلاطم اللهيب مرتفعًا لأعلى ولأعلى، وانفجر الأولاد في التهليل والهتاف.

وراح «بيجي» يصرخ:

- نظارتي! أعطوني نظارتي!

ووقف «رالف» على مسافة بعيدة من الكومة ووضع النظارة في يد «بيجي» التي كانت تتحسس وتتلمس طريقها. فانخفض صوته وأصبح في شكل تمتمة:

- مجرد ضباب وخيالات مشوشة، لا أكاد أرى يدي.

وكان الأولاد يرقصون ويتمايلون، وكانت الكومة عفنة للغاية، وأصبحت جافة وسريعة الاشتعال للغاية، حتى إن الأغصان الكبيرة تداعت أمام ألسنة اللهيب الصفراء التي ارتفعت لأعلى، ونتجت عنها كتلة هائلة من اللهيب يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا في الهواء، وكانت الحرارة على مسافة ياردات حول النيران بمثابة لطمة أو ضربة على الوجه، وكان الوهج المنبعث منها بمثابة نهر متدفق من الشرر، وتقوضت جذوع الأشجار وتحولت إلى تراب أبيض اللون.

وصاح «رالف»:

- نريد المزيد من. الأخشاب.. اذهبوا جميعًا لإحضار المزيد من الأخشاب.

وأصبحت الحياة بمثابة سباق مع النيران، وتبعثر الأولاد بين الأجزاء العلوية من الغابة، وكان الهدف المباشر أمام الأولاد هو الإبقاء على أعلام اللهيب الصافية من الدخان مرفرفة باستمرار فوق الجبل، ولم يذهب واحد من الأولاد إلى ما هو أبعد من ذلك. وراح الأولاد الصغار يشاركون

في إحضار قطع صغيرة من الأخشاب وإلقائها في كومة النيران، اللّهم إلا إذا أغرتهم الفواكه وجذبتهم إليها. وتحرك الهواء على نحو أسرع من ذي قبل، وأصبح بمثابة رياح خفيفة يسهل معها التفريق ما بين الجانب الواقع تحت مهب الريح والجانب المحمي من الريح. فعلى أحد الجانبين كان الهواء باردًا، ولكن على الجانب الآخر كانت النيران تدفع بذراع من الحرارة المتوحشة التي تجعد الشعر على الفور. والأولاد الذين شعروا برياح المساء التي كانت تلامس وجوههم الرطبة كانوا يتوقفون للاستمتاع بتيارها المنعش، وبعدئذ اكتشفوا أنهم أصيبوا بالإرهاق والتعب، فألقوا بأنفسهم تحت الظلال التي تتخلل الصخور المتحطمة، وتضاءلت حدة اللهيب على وجه السرعة، ثم تداعت الكومة من الداخل بصوت هادئ مخلفة الرماد.. وأطلقت شجرة كمية هائلة من الشرر لأعلى.. انحدرت بعيدًا ثم انحرفت في اتجاه الريح، واستلقى الأولاد لاهثين مثل الكلاب.

ورفع «رالف» رأسه من بين ساعديه قائلًا:

- هذا العمل الذي قمنا به ليس عملًا حسنًا.

وبصق «رالف» في عنف في الغبار الساخن.

قال «بيجي»:

- ماذا تعنى؟

- لم يظهر أي دخان، مجرد لهيب فقط.

وكان «بيجي» قد قبع بين صخرتين وجلس واضعًا المحارة على ركبتيه..

- إننا لم نشعل نيرانًا تعود علينا بأي منفعة، ولا يمكننا أن نجعل نيرانًا مثل هذه تستمر في الاشتعال على الدوام إذا لم نسعَ لذلك..

فقال «جاك» في احتقار:

- لقد اكتفيت أنت بموقف المتفرج ولم تبذل أي جهد.

فقال «سيمون» وهو يضع ساعده على خده فيتلوث خده بالسواد:

- لقد استخدمنا نظارته، وهو قد ساعدنا على ذلك النحو.

وقال «بيجي» في سخط وتبرم:

- المحارة معي، دعوني أتكلم.

فقال «جاك»:

- المحارة لا أهمية لها فوق الجبل؛ لذلك عليك بالسكوت والالتزام بالصمت.

- إنني أمسك بالمحارة في يدي.

وقال «موريس»:

- ضعوا أغصانًا خضراء، فهذه هي أفضل طريقة للحصول على الدخان.

- إنني أمسك بالمحارة.

فاستدار «جاك» في وحشية نحو «بيجي» وقال:

- لتخرس.

فدب اليأس والضعف في «بيجي» وأخذ «رالف» المحارة منه ونظر إلى الحلقة التي تضم الأولاد:

- ينبغي علينا أن نخصص أولادًا من أجل الاهتمام بشئون النيران ورعايتها؛ فقد تصل إلى هنا ذات يوم أي سفينة.

وأشار بيده إلى حبل الأفق المشدود. واستطرد:

- فإذا حرصنا على الاستمرار في إطلاق الإشارات فإنهم سيجيئون إلينا وينقذوننا. وهناك شيء آخر أود التطرق إليه: ينبغي أن يكون لدينا المزيد من القواعد إذا استخدمنا المحارة، فهذا معناه عقد اجتماع، سواء هنا فوق الجبل أم عند السفح هنالك.

فوافقوا على هذا الرأي، وفتح «بيجي» فمه لكي يتكلم، ولكنّه أغلق فمه مرة أخرى عندما وقع نظره على عين «جاك».. ومد «جاك» يده للحصول على المحارة، ونهض واقفًا ممسكًا المحارة بعناية بيديه الملوثتين بالسواد.

- إنني أوافق «رالف» على رأيه؛ إذ ينبغي أن تكون لدينا قوانين وأنظمة، وينبغي أن نطيع تلك القوانين، وفوق كل ذلك فنحن لسنا همجيين.. لأننا إنجليز، والإنجليز هم أفضل الناس في جميع الأمور، ومن ثم ينبغي علينا أن نفعل الصواب ونبتعد عن الخطأ.

ثم التفت نحو «رالف» قائلًا:

- يا «رالف»، إنني سأقسم جوقة المنشدين - الصيادين التابعين لي -إلى مجموعات، وسيكونون مسئولين عن الاستمرار في إشعال النيران.

ونتج عن هذا الكلام المتسم بالكرم والسخاء تصفيق حاد من جانب الأولاد، حتى إن «جاك» ابتسم لهم، ثم لوح بالمحارة نحوهم طالبًا الالتزام بالهدوء..

- سوف نخمد النيران الآن، فمن ذا الذي يمكنه مشاهدة الدخان ليلًا؟ ويمكننا أن نشعل النيران مرة أخرى هذا الأسبوع، وأنت يا «التومى» يُمكنك أن تتولى مسألة إشعال النيران في خلال هذا

الأسبوع، ويزاد العدد إلى ثلاثة أضعاف في الأسبوع التالي.

ووافق الأولاد على هذا القول في رزانة ووقار:

- وسوف نكون مسئولين عن الالتزام بإلقاء نظرة على البحر باستمرار أيضًا.

وتابعوا بعيونهم اتجاه ذراعه البادي العظام.

- ولسوف نضع الأغصان الخضراء على الكومة حتى يمكننا إطلاق المزيد من الدخان.

وحلقوا بشدة في الأفق الشديد الزرقة كما لو كانوا يتوقعون ظهور صورة ظلية ضئيلة في أي لحظة.

وكانت الشمس في الغرب مثل ثمرة من الذهب المحترم، وأحسوا جميعًا بمقدم المساء فجأة لدى تلاشى الضوء والدفء.

وأخذ «روجر» المحارة ونظر فيما حوله نحوهم في تشاؤم واكتئاب:

- لقد ظللت أرقب البحر لفترة طويلة، ولكني لم أشاهد أي أثر لسفينة عابرة، وربما لا يتم إنقاذنا على الإطلاق.

وتصاعدت همهمة بين الحاضرين، ثم تلاشت تدريجيًا. وأخذ «رالف» المحارة.

- لقد سبق أن قلت إننا سننقذ في وقت ما. علينا فقط أن نتذرع بالانتظار، وهذا هو كل في الأمر.

وفى شيء من السخط والجرأة أخذ «بيجي» المحارة:

- ذلك هو ما سبق أن قلته.. لقد تحدّثت عن اجتماعاتنا وأمورنا وبعدئذ قلتم لي: «اخرس».

وتردى صوته إلى حالة من التباكي الناجمة عن رد الاتهام عن شخص فاضل ملتزم.

فتململ الحاضرون وبدءوا يصيحون في وجهه لكي يكف عن الكلام.

فصاح «بيجي» في نغمة واقعية مملوءة بالمرارة:

- لقد قلتم إنكم تريدون إشعال نيران صغيرة، ولكنكم كومتم كومة كبيرة. وإذا قلت لكم أي شيء تقولون لي «اخرس». ولكن إذا كان المتحدث هو «جاك» أو «موريس» أو «سيمون»..

وتوقف عن الكلام بسبب تصاعد موجات الضوضاء والاضطراب، ووقف على قدميه وراح إلى ما وراءهم وإلى أسفل نحو الجانب غير المريح من الجبل، حيث توجد تلك الرقعة الهائلة التي وجدوا بها الأخشاب الجافة. ثم انفجر في ضحكات عصبية غريبة للغاية، مما جعلهم يلتزمون

الصمت المطبق.. وينظرون إلى الوميض المنعكس على نظارته في دهشة، وتابعوا حملقته ليدركوا النكتة المرّة.

- لقد أشعلتم نيرانًا صغيرة على خير وجه.

وكان الدخان يتصاعد هنا وهناك بين النباتات المتسلقة التي كانت تزين الأشجار الميتة أو الأشجار التي هي بصدد الانجراف إلى الموت، وكانوا يرقبون ظهور وميض النيران عند جذور كتلة خشبية صغيرة، وبعدئذ تصاعد الدخان في كثافة.

وتحركت ألسنة صغيرة من النيران عند جذع شجرة وزحفت لأعلى بين الأوراق والأغصان في انقسام وتزايد وتعاظم. ولمست قطعة صغيرة جذع شجرة وتسلقت لأعلى في تدافع مثل حيوان السنجاب البارع المتألق. وتزايد الدخان وقفز سنجاب فوق أجنحة الرياح وأمسك بشجرة أخرى منتصبة القامة وراح يأكل فيها متجهًا لأسفل. وتحت تعريشة الأوراق الداكنة والدخان أمسكت النيران بالغابة وبدأت عملية القضم والنحر والقرض وتدحرجت فدادين من «السواد» والدخان نحو البحر بانتظام. وعندما شاهد الأولاد ألسنة اللهيب وسريان النيران في إصرار لا يمكن مقاومته انفجروا في هتاف جاد مملوء بالإثارة، وبرغم أن ألسنة اللهب كانت نوعًا من الحياة المتوحشة فإنها كانت تزحف مثل فهد أمريكي يزحف على بطنه نحو خط من الشجيرات الصغيرة التي تشبه أشجار البقولا، والتي أنبتت طبقة بارزة من الصخر القرمزي. وراحت تثير الهياج أولًا بين الأشجار الأولى وأنبتت الأغصان أوراقًا قصيرة من النيران، وقفز اللهيب في رشاقة عبر الفجوة ما بين الأشجار ثم بدأ يتأرجح ويحتدم على طول صف الأشجار وتحت الأولاد المتقافزين. وكانت هناك مساحة ربع ميل مربع من الغابة محتدمة بالدخان واللهيب. واندمجت أصوات النيران المميزة في قرع للطبول بدا وكأنه يهز الجبل.

- لقد نفذتم نيرانكم الصغيرة على ما يرام.

وجفل «رالف» وأدرك على الفور أن الأولاد كانوا ملتزمين بالسكون والصمت، حيث كانوا يشعرون ببدايات الرعب والخوف من القوى التي أطلقت في حرية تحتهم. وما إن أدرك حقيقة الموقف وأحس بتفشي الرعب بين الموجودين حتى تحول إلى إنسان شرس.

- أوه. اخرس.

فقال «بيجي» في صوت مملوء بالاستياء:

- لقد أمسكت بالمحارة وأصبح لي الحق في التكلم.

فنظروا إليه بعيون لا تشعر بأي شغف بما شاهدوه وراحوا يرهفون آذانهم ليسمعوا قرع طبول النيران. وحلق «بيجي» في عصبية في نار جهنم واحتضن المحارة.

- لقد تسببنا في إحراق الغابة، وتلك هي النيران الصغيرة التي أردنا إشعالها.

ولعق شفتيه:

- ليس هناك أمامنا ما نفعله. ينبغي علينا أن نكون أكثر حرصًا وحذرًا. إنني في غاية الفزع!

فأبعد «جاك» عينيه في تثاقل عن النيران:

- أنت دائمًا يا «فاتي» في حالة من الفزع!

فقال «بيجي» في برود شديد:

- إنني أمسك بالمحارة.

واستدار نحو «رالف» وقال:

- إنني أمسك بالمحارة. يا «رالف» أليس كذلك؟

وأدار «رالف» وجهه على الرغم منه عن المنظر الرائع المخيف:

- ماذا في الأمر؟

- المحارة. إن لي الحق في التكلم.

وانفجر التوءمان في الضحك معًا:

- لقد كنا نريد دخانًا.

- والآن انظروا.!

لقد كانت هناك سحب من الدخان الكثيف الممتدة لأميال بعيدًا عن الجزيرة، وبدأ جميع الأولاد إلا «بيجي» يضحكون ثم انفجروا جميعًا في ضحكات عالية هستيرية مدوية.

فتصاعدت موجات الغضب في داخل «بيجي»:

- المحارة معي.. عليكم بالإنصات والاستماع إليّ.. إن أول شيء كان ينبغي علينا إنجازه هو بناء أكواخ لنا هنالك بالقرب من «البلاج»، ففي ذلك المكان لم يكن الجو شديد البرودة ليلًا، ولكن ما إن قال لكم «رالف» «النيران» حتى انطلقتم في صراخ وعواء، وصعدتم إلى هذا المكان فوق الجبل. تمامًا مثل مجموعة الأطفال الصغار.

وفى تلك اللحظات كانوا ينصتون إلى الخطبة المسهبة العنيفة.

- كيف يمكنكم أن تتوقعوا أن يتم إنقاذ حياتكم إذا لم تضعوا أولويات للأمور التي تقومون بها وتسيرون في الاتجاه الصحيح؟

ثم خلع نظارته، وبدا وكأنه سيترك المحارة ويضعها جانبًا، إلا أنّ الحركة الفجائية التي قام بها معظم الأولاد لالتقاط المحارة جعلته يغير رأيه، فوضع المحارة تحت ذراعه، واستند إلى إحدى الصخور وقال:

- وبعد أن وصلتم إلى هنا أشعلتم نيرانًا في الهواء الطلق لا فائدة منها على الإطلاق، والآن لقد أشعلتم الجزيرة كلها بالنيران، أليس من السخف والعبث أن نشعلها كلها بالنيران؟ إننا سنضطر لتناول الفاكهة المطبوخة كطعام لنا، ونتناول لحوم الخنازير المشوية على النار، وليس في هذا ما يثير الضحك ولقد انتخبتم «رالف» رئيسًا على الجميع، ولكنكم لا تعطونه الوقت الكافي للتفكير من أجلكم، فهو ما إن يقول شيئًا حتى تندفعوا بدون تروٍّ مثل، مثل...

وتوقف عن الكلام ليلتقط نفاسه..

وراحت النيران تهدر، وتمتم في وجوههم:

- وليس هذا هو كل ما في الأمر، فهؤلاء الأطفال الصغار، هؤلاء الأطفال الصغار، هؤلاء الأطفال الصغيرو الأجسام. من ذا الذي اهتم بشئونهم؟ ومن منا يعرف عددهم على وجه التحديد؟

واتخذ «رالف» خطوة فجائية للأمام.

- لقد سبق أن طلبت منك أن تعد لي قائمة الأسماء؟

فصاح «بيجي» في استياء:

- كيف يمكنني القيام بهذا العمل بمفردي؟ لقد انتظروا لمدّة دقيقتين ثم ألقوا بأنفسهم في مياه البحر، ثم توغلوا في الغابة وتبعثروا في كل مكان. فكيف يتسنى لي أن أحصرهم؟..

فلعق «رالف» شفتيه الشاحبتين وقال:

- إذن أنت لا تعرف عدد الأطفال؟

- كيف لي أن أعرف والأطفال الصغار يهرولون هنا وهناك كالحشرات؟ وعندما عدتم أنتم الثلاثة، وبمجرد أن أصدرت أوامرك بإشعال النيران انطلقوا جميعًا، وبالتالي لم تتح لي أي فرصة لإحصائهم.

فقال «رالف» في حدة:

- كفى!

وأخذ منه المحارة في عنف واستطرد:

- إذا كنت قد تقاعست عن إنجاز هذا العمل فأنت لم تقم به.

- وبعدئذ تجيئون إلى هنا وتسرقون نظارتي.

فالتفت «جاك» نحوه وقال:

- اخرس!

- وأولئك الأطفال الصغار كانوا يتجولون في الأماكن السفلية هنالك حيث توجد النيران، فكيف لكم أن تعرفوا أنهم ليسوا هنالك حتى الآن؟

ووقف «بيجي» وأشار بيده إلى الدخان وألسنة اللهيب.. وتصاعدت الهمهمة بين الأولاد ثم تلاشت تدريجيًا. وكان هناك شيء عجيب يعتمل في داخل «بيجي» لأنّه كان يشهق ويلهث وقد تقطعت أنفاسه.

وشهق «بيجي» وهو يقول:

- فذلك الولد الصغير الذي له علامة على وجهه لم أعد أراه. ترى أين هو الآن؟

فهبط صمت على جمهور الحاضرين مثل صمت القبور:

- وذلك الولد الصغير الذي تحدث عن الثعابين كان أسفل هنالك..

وانفجرت شجرة في النيران مثل القنبلة، وارتفع صف من النباتات المتسلقة الطويلة للحظات لأعلى أمام أنظار الجميع، ثم هبطت لأسفل مرة أخرى، فصرخ الأولاد الصغار في هلع لدى مشاهدة هذا المنظر.

- الثعابين! الثعابين! انظروا إلى الثعابين!

وفى الغرب كانت الشمس تستلقي على مسافة بوصة واحدة أو اثنتين فقط فوق سطح البحر بدون أن يلتفت إليها أحد؛ إذ كانت وجوههم مضاءة باللون الأحمر من أسفل، ووقع «بيجي» على صخرة فنشبث بها بكلتا يديه.

- ذلك الولد الصغير الذي كان يوجد على وجهه تلك العلامة..

أين هو الآن؟ إنني أقول لكم: إنني لا أعرف مكانه الآن..

فنظر الأولاد إلى بعضهم البعض في ذعر وهلع وهم لا يصدقون ما يسمعونه.

- أين هو لآن؟

فتمتم «رالف» بالإجابة على نحو يوحي بأنه يعاني من الخجل والخزي.

- ربما عاد إلى الـ...الـ...

وتحتهم على الجانب غير الوردي من الجبل كان قرع الطبول ما زال مستمرًا.

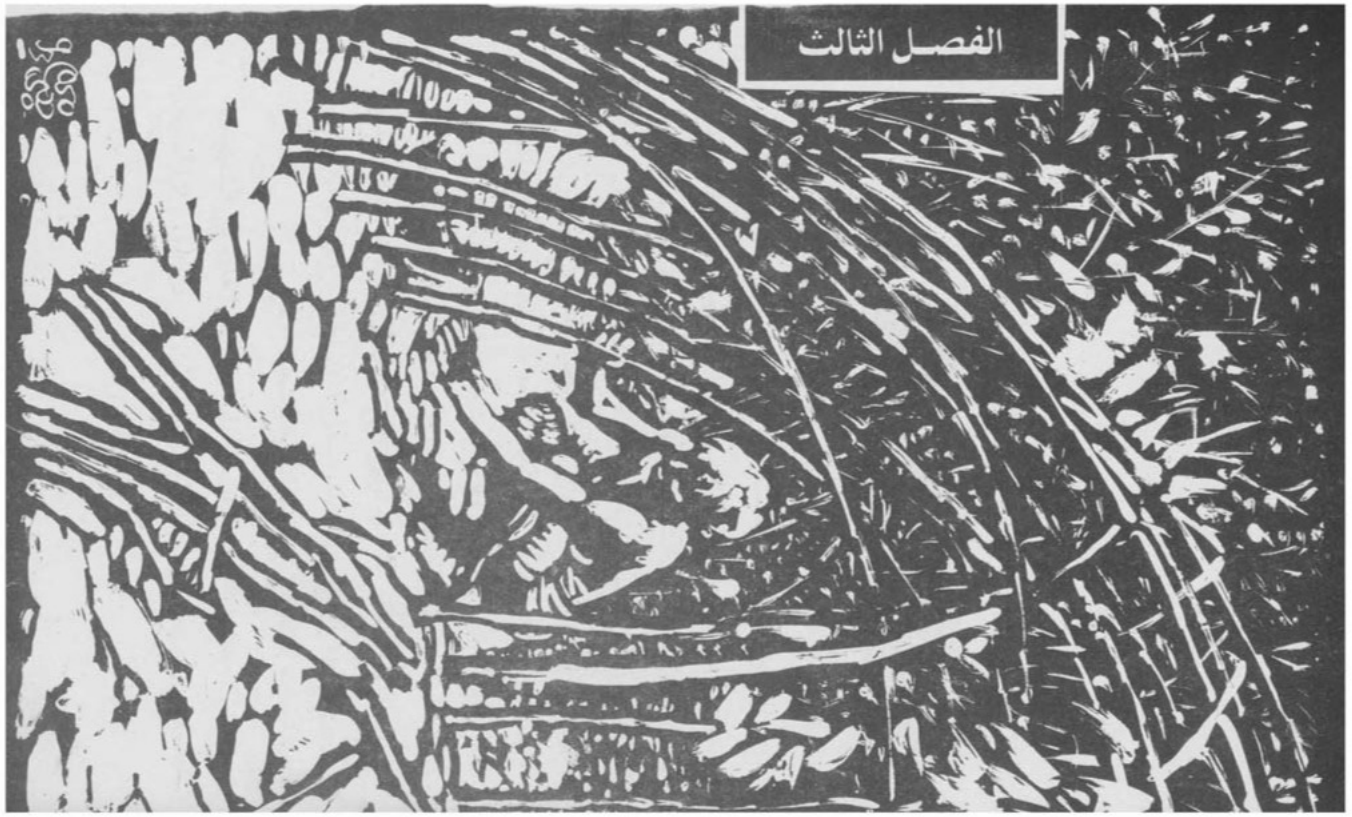
الفصل الثالث

أكواخ على «البلاج»

وكان «جاك» منحنيًا انحناءً مزدوجًا. كان مستلقيًا على الأرض مثل العداء وقد أصبح أنفه على مسافة بوصات قليلة من الأرض المشبعة بالرطوبة، وكانت جذوع الأشجار والنباتات المتسلقة التي تزينها قد ضاعت معالمها بين غياهب غسق أخضر يمتد لمسافة ثلاثين قدمًا فوقه، ففيما حوله كانت الشجيرات الصغيرة منتشرة في كل مكان. ولم يكن هناك سوى دليل واهن للغاية على وجود ممر هنا، غصن متحطم وما قد يكون انطباعًا لجانب واحد لحافر، فأخفض ذقنه وراح يحملق في آثار الأقدام كما لو كان يرغمها على التحدّث معه، ثم بدأ ينسل للأمام لمسافة خمس ياردات مثل الكلب، ولم يكن يشعر بالراحة وهو يتحرك على يديه ورجليه، غير أنه لم يبال بذلك، وبعدئذ توقف، فهناك كانت توجد حلقة من النباتات المتسلقة بها جزء لولبي رفيع متدلٍ من الشجرة. وكان الجزء اللولبي مصقولًا ولامعًا من الجانب السفلي؛ لأن الخنازير التي مرت من خلال الحلقة كانت تمسها برفق بجلدها المملوء بالشعر الخشن.

وجثم «جاك» بوجهه على مسافة قليلة من هذه الحلقة بين الشجيرات الصغيرة. وأصبح شعره الرملي اللون فاتح اللون عن ذي قبل، كما أصبح أطول مما كان عليه عندما هبطوا على هذه الجزيرة، أمّا ظهره العاري فقد كان كتلة من النمش والبقع السوداء، وسفعات الشمس المملوءة بالقشور الجلدية.

وانطلقت عصا مدية طولها حوالي خمس ياردات من يده اليمنى، وكان عاريًا ولا يرتدي سوى «الشورت» الممزق المثبت في وسطه بواسطة الحزام الذي يضع فيه السكين، وأغلق عينيه ورفع رأسه وراح يتنفس في اعتدال من فتحتي أنفه الذي يتسع للخارج، مع تردد الأنفاس، محاولًا تقييم تيار الهواء الدافئ بهدف الحصول على معلومات، وكان هو والغابة في صمت مطبق.

وأخيرًا سمح لأنفاسه بالخروج في شكل تنهيدة طويلة، وفتح عينيه. كانت عيناه زرقاوين صافيتين، وبدت عيناه في هذا الإحباط كأنهما تتقدان شررًا وجنونًا، ومرّ بلسانه عبر شفتيه الجافتين، وراح يتفحّص بدقة الغابة المتحفظة التي لا تبوح أسرارها.

وبعدئذ انسل متقدمًا للأمام، وأخذ يمعن النظر في هذا الاتجاه أو ذاك على الأرض.

وكان صمت الغابة المطبق مثيرًا للضيق، ومقبضًا للصدر، بل ويفوق حرارة الجو في هذا الشأن، وفى مثل هذه الساعة من النهار لم يكن هناك أية أصوات، ولا حتى طنين الحشرات، ولكن الصمت لم يتحطم إلا عندما تسبب «جاك» في إيقاظ طائر مبهرج الألوان من عشه البدائي المكون من الأعواد، حيث دوّت الأصداء الناجمة عن صرخة خشنة وكأنها صادرة عن أعماق عصور التاريخ القديمة. فجفل «جاك» نفسه لدى سماعه تلك الصيحة، وانسحبت أنفاسه للداخل بصوت

يشبه صوت الأفعى، وزالت عنه لبضع لحظات صفات الصياد، وأصبح مثل قرد بين الأشجار المتشابكة. وبعدئذ جذبه الإحباط والآثار المنطبعة على الأرض مرة أخرى، فراح يستكشف الأرض في حماس شديد.. وتوقف عند جذع شجرة ضخمة لها أزهار شاحبة فوق سيقانها الرمادية.. وأخذ نفسًا من الهواء الساخن. وفى هذه المرّة جاء نَفَسه قصيرًا، بل كان هناك شحوب غير طبيعي وامتقاع في وجهه وبعدئذ ظهر تدفق الدماء في وجهه مرة أخرى، ومرّ كالطيف تحت ظلام الشجرة، وانحنى في خوف وهو ينظر لأسفل عند قدميه إلى الأرض التي ظهرت عليها آثار أقدام سابقة على مجيئه.

وكان الروث دافئًا، كان مُلقىً في تكوم وسط التربة المقلوبة، وكان لونه أخضر زيتونيًا وناعمًا، وكان يتصاعد منه قدر ضئيل من البخار. فرفع «جاك» رأسه وراح يحملق في الكتل الغامضة من النباتات المتسلقة التي توجد عبر الممر، ثم رفع رمحه وتسلل متقدمًا للأمام. وإلى ما وراء النباتات المتسلقة لاحظ أن الممر متصل بطريق للخنازير متسع بما فيه الكفاية، ومطروق بالأقدام، بحيث يمكن القول إنّه ممر هو الآخر. وكانت التربة في طريق الخنازير ثابتة متماسكة بسبب اعتياد الأقدام على السير عليها، وعندما انتصب «جاك» بقامته ووصل إلى ارتفاعه الطبيعي سمع شيئًا ما يتحرك على طريق الخنازير، فألقى بيده اليمنى إلى الخلف، وقذف بالحربة بكل قوته. وترامى إلى سمعه صوت الحوافر السريعة الصلبة المنبعثة من فوق طريق الخنازير، وكان صوتًا مثل صوت الصنجات مغريًا ومثيرًا للشجون، ومبشرًا بتناول اللحوم.. فاندفع خارجًا من بين الشجيرات الصغيرة، وانتزع الحربة، وتلاشت طقطقة وأصوات أقدام الخنزير تدريجيًا مع الهروب إلى مسافة بعيدة.

ووقف «جاك» هنالك والعرق يتصبب منه، وكان جسده مخططًا بخطوط من التراب البني اللون، وكان ملوثًا بكل التغييرات الخاصّة بأيام الصيد، وراح يسب ويلعن، وانحرف مبتعدًا عن الممر، وأخذ يشق طريقه إلى أن تكشفت الغابة بعض الشيء، وبدلًا من جذوع الأشجار الصلعاء التي تساند سقفًا مظلمًا كانت هناك جذوع رماديّة فاتحة، وإكليل من سعف النخيل الخفيف، ووراء هذه كان هناك تألق مياه البحر، وأصبح بإمكانه سماع أصوات الأولاد. وكان «رالف» واقفًا بجوار جذوع وأشجار نخيل وأوراق غريبة الشكل، بمثابة مأوى بدائي يواجه «اللاجون»، ويبدو وكأنه على وشك التداعي والسقوط، ولم يكن «رالف» منتبهًا عندما تحدث «جاك»:

- ألديك أي قدر من الماء؟

فنظر «رالف» لأعلى من بين الأوراق في تجهم، فهو لم يلحظ «جاك» حتى عندما شاهده.

- أقول لك: هل لديك أي مياه لكي أشرب، فأنا أشعر بالعطش؟

فأبعد «رالف» ناظريه عن المأوى، وجفل لدى مشاهدة «جاك» أمامه.

- أوه. مرحبًا! تريد مياهًا؟ المياه هنالك عند الشجرة. من المتوقع أن تكون هناك كمية متبقية.

فالتقط «جاك» قشرة ثمرة جوز الهند ممتلئة تمامًا بالماء الطازج من بين مجموعة كانت موضوعة بترتيب ونظام في الظل، وراح يشرب منها، وتناثرت المياه على ذقنه ورقبته وصدره، وما إن انتهى من شرب الماء حتى أخذ يتنفس بصوت مرتفع.

- لقد كنت أعاني من العطش الشديد.

فتحدث «سيمون» من داخل المأوى:

- تناول كمية أخرى ضئيلة.

واستدار «رالف» نحو المأوى ورفع غصنًا مملوءًا بأوراق مغطاة بالقرميد وشبيهة بالقبعات.

واهتزت الأوراق متباعدة عن بعضها البعض وارتعدت متجهة لأسفل، وبدا وجه «سيمون» كأنه يغالب النوم في مدخل المأوى.

- آسف.

وألقى «رالف» نظرة على التلفيات في استياء:

- لم أنجز هذا العمل على الإطلاق.

وألقى بنفسه عند قدمي «جاك» وظل «سيمون» ناظرًا من مدخل المأوى حتى قال «رالف» موضحًا الأمور:

- لقد ظللت أعمل لأيام عديدة وأنظر ما حدث.

لقد كان هناك مأويان ملائمان، ولكنهما كانا ضعيفين وغير متماسكين، أمّا هذا المأوى فكان حطامًا:

- وهم يداومون على الجري هنا وهناك.. أتذكر الاجتماع، وكيف أنه تقرر أن يعمل كل فرد بجد واجتهاد إلى أن يتم الانتهاء من إعداد جميع المخابئ والمآوي؟

- باستثنائي أنا والصيادين التابعين لي.

- باستثناء الصيادين. حسنًا، إن الأطفال الصغار...

وأشار بيديه في حركة تعبيرية، وراح يبحث عن كلمات يعبر بها.

- لا أمل يرجى من ورائهم، والأولاد الأكبر سنًا ليسوا أفضل كثيرًا من الصغار. هل لاحظت ذلك؟ لقد ظللت أعمل طوال اليوم مع «سيمون» ولا أحد سوانا يعمل في إعداد المخابئ، فهم جميعًا منتشرون هنا وهناك يستحمون أو يأكلون أو يلعبون.

ودفع «سيمون» برأسه ليطل بها في حرص:

- أنت رئيس عليهم، يُمكنك أن تكلفهم إنجاز الأعمال.

واستلقى «رالف» منبطحًا، ونظر لأعلى نحو أشجار النخيل والسماء.

اجتماعات، اجتماعات، ألسنا نعشق الاجتماعات؟ في كل يوم اجتماعات، مرّتين يوميًا، إننا نحب الكلام، واستند على أحد مرفقيه واستطرد:

- أؤكد كذلك أنني إذا نفخت في المحارة في هذه اللحظة فإنهم سيهرعون إلى هنا على الفور، وبعدئذ سنصبح - كما تعرف - غاية في الوقار والاتزان. وقد يقترح أحدهم بأنه ينبغي علينا أن نصنع طائرة نفاثة أو غواصة أو جهاز تليفزيون.. وعقب انتهاء الاجتماع فإنهم قد يشتغلون لمدّة خمس دقائق، وبعدئذ ينطلقون متجولين هنا وهناك، أو يذهبون للصيد..

واحمرّ وجه «جاك» واحتقن بالدماء:

- إننا نريد لحومًا.

- حسنًا، إننا لم نحصل على أية لحوم حتى الآن، ولكننا نريد بناء مأوى ومخابئ لنا. وعلاوة على ذلك فإن باقي الصيادين التابعين لك قد رجعوا منذ ساعات، ولكنهم راحوا يسبحون في مياه البحر.

وقال «جاك»:

- لقد داومت على الكفاح المستمر وسمحت لهم بالذهاب، وكان عليّ أن أستمر، وأنا..

وأراد أن يعمل على اقتفاء الأثر، وقتل ذلك الذي كان يتوارى بعيدًا

- لقد عكفت على الاستمرار واعتقدت أنني بمفردي.

وأطل الجنون من عينيه مرة أخرى:

- أعتقد أنني قد أنجح في القتل.

- ولكنك لم تقتل.

وتذبذبت رغبات شغوف مستترة في صوت «رالف»:

- ولكنك لم تقتل حتى الآن.

وكان مطلبه سيمر كالمعتاد لو لم يتمتم بصوت منخفض:

- أعتقد أنك لن تهتم بالمساعدة في إنشاء أماكن الإيواء؟

- نحن نحتاج إلى اللحوم.

- ولكننا لا نحصل عليها.

وأصبح بالإمكان سماع التباغض والتنافر في تلك اللحظات:

- ولكنني سأحصل على اللحوم في المرّة القادمة! ولقد كان ينبغي أن يكون لدي شوكة أو صنارة في هذا الرمح، فلقد أصبنا بالفعل خنزيرًا بجراح، ولكن الرمح سقط على الأرض، فإذا ما تمكنا من صنع أشواك أو صنارات فسننجح.

- إننا بحاجة إلى مخابئ أو أماكن للإيواء.

فصاح «جاك» فجأة في غضب:

- أأنت تتهمني؟

- كل ما أقوله هو أننا قد اشتغلنا بكل جد واجتهاد إلى أقصى حد. وهذا هو كل ما في الأمر..

وكانت الدماء قد تصاعدت إلى وجهيهما، ووجدا من الصعب النظر إلى بعضهما البعض، وتدحرج «رالف» على بطنه وراح يعبث بالعشب.

- لو أن الدنيا أمطرت مثلما أمطرت في اليوم الذي أسقطنا فيه فإنا سنكون في مسيس الحاجة إلى أماكن للإيواء نحتمى فيها، وهناك شيء آخر، وهو أننا نحتاج إلى أماكن للإيواء بسبب الـ..

وتوقف عن الكلام للحظات، وتخلص كل منهما من الغضب في آن واحد. وبعدئذ استطرد متطرقًا إلى الموضوع الآمن الذي غير مجرى الحديث.

- هل لاحظت ذلك الشي؟

فوضع «جاك» رمحه، وجلس القرفصاء:

- لاحظت ماذا؟

وتقلب وحلق في وجه «جاك» المتسخ المفعم بالوحشية:

- أقصد تلك الأمور التي تحدث، إنهم يحلمون وباستطاعتك سماعهم، هل سبق لك أن استيقظت بالليل؟

فهز «جاك» رأسه:

- إنهم يتحدثون ويحلمون، أولئك الأولاد الصغار، بل ويحدث نفس الشيء مع عددٍ من الكبار أيضًا كما لو كانوا...

- كما لو كانت هذه الجزيرة غير لطيفة.

ودهشا لدى قطع حديثهما. ونظرا لأعلى نحو وجه «سيمون» الصارم المتسم بالجد والحزم.. وقال «سيمون»:

- كما لو كان الوحش.. الوحش أو ذلك الشيء الذي يشبه الثعبان شيئًا حقيقيًا. أتذكرون ذلك؟

وجفل الولدان الكبيران: «جاك» و«رالف» لدى سماعهما كلمة الثعبان. فالثعابين لم تكن تذكر آنئذ.. لم تكن من الأمور التي يمكن التنويه بها أو الإشارة إليها.

فقال «رالف» في بطء:

- كما لو كانت هذه الجزيرة ليست جزيرة ممتازة.

- نعم.. هذا صحيح.

وجلس «جاك» معتدلًا ومد ساقيه للأمام.

- إنهم معتوهون.

- إنهم كذابون وأفاقون، أتذكر عندما ذهبنا لاستكشاف الجزيرة؟ وابتسم كل منهما لصاحبه وهما يتذكران جمال وسحر اليوم الأول، واستطرد «رالف»:

- لذلك فنحن بحاجة إلى أكواخ نأوي إليها كنوع من الـ...

وسحب «جاك» ساقيه واحتضن ركبتيه وتجهم في محاولة للوصول إلى الوضوح الذهني.

- ومع ذلك ففي الغابة، أقصد عندما تقوم بأعمال الصيد في الغابة، وليس عندما تقوم بجمع الفاكهة بالطبع، ولكن عندما تقوم بالصيد بمفردك وبدون أي مساعدة من أحد...

وتوقف عن الكلام للحظات، حيث لم يكن واثقًا من أن «رالف» سيأخذ كلامه مأخذ الجد:

- استمر في كلامك.

- إذا كنت تقوم بأعمال الصيد فإنك أحيانًا تضبط نفسك متلبسًا بالشعور بأنك كما لو كنت..

وتوقف عن الكلام فجأة.. واستطرد:

- ولا يوجد شيء غريب في هذا الأمر بالطبع، فهو مجرد شعور أو إحساس، ولكنك يُمكنك أن تشعر كما لو كنت لا تقوم أنت بأعمال الصيد، وإنما تشعر كأنما أنت نفسك الذي يتم اصطيادك، تشعر كأنما يوجد هناك شيء ما وراءك باستمرار في الأدغال.

وهبط عليهما الصمت مرة أخرى: كان «سيمون» مصممًا على رأيه، وكان «رالف» ميالًا إلى الشك في هذا الأمر، كما كان يشعر ببعض الاستياء والسخط. فاعتدل في جلسته وراح يحك إحدى كتفيه بيد متسخة.

- حسنًا.. لا أعرف ذلك.

فقفز «جاك» واقفًا على قدميه وأخذ يتحدث بسرعة كبيرة للغاية.

- ذلك هو ما تشعر به وأنت في الغابة. ولا شيء في هذا الأمر بالطبع. مجرد.. مجرد..

وسار خطوات قليلة سرعة نحو «البلاج» ثم عاد مرة أخرى.

- كل ما هنالك أنني أعرف كيف يشعر الناس وهم في الغابة. أتفهمني؟

وذلك هو كل ما في الأمر.

- إن أفضل شيء يمكننا أن نفعله هو العمل على إنقاذ أنفسنا..

وكان على «جاك» أن يفكر للحظات ليعرف ما المقصود بكلمة «إنقاذ».

- الإنقاذ؟ نعم. بالطبع. ومع كل ذلك فأنا أود أولًا أن أصطاد خنزيرًا.

واختطف رمحه بسرعة وضرب الأرض في عنف فتناثرت أجزاء من التربة.. وأطلت من عينيه مرة أخرى النظرة المجنونة التي لا ينفذ منها الضوء، فنظر إليه «رالف» نظرة انتقادية من خلال شعره الأشقر المتشابك..

- طالما أن الصيادين التابعين لك يتذكرون النيران.

- أنت ونيرانك!

وراح الولدان يهرولان في مشيتهما نحو «البلاج» وعند حافة المياه، ونظرا وراءهما نحو الجبل الوردي اللون، وكان مجرى النيران يرسم تخطيطًا كروكيًا لخط طباشيري فوق الزرقة الشديدة للسماء، ثم يتمايل متهدجًا لأعلى، وبعدئذ يتلاشى.. وتجهم «رالف».

- ترى على أية مسافة يمكن مشاهدة ذلك الدخان؟

- إننا لا نطلق كمية كافية من الدخان.

وكان الجزء السفلي من مجرى الدخان - كما لو كان مدركًا لما يقومان به من حملقة وتفرس - يتجمع في شكل دخان كثيف، وعلى شكل ظلمة قشدية اللون تزحف فوق العمود الخافت.

فتمتم «رالف» قائلًا:

- لقد وضعوا أغصانًا خضراء.

واستطرد:

- يا للعجب!

وأغمض عينيه قليلًا، ودار حول نفسه باحثًا عن خط الأفق:

- ها هو ذا!

وصاح «جاك» فجأة بصوت مرتفع، مما جعل «رالف» يجفل قافزًا لأعلى:

- ما هذا؟ أين؟ أهي سفينة؟

ولكن «جاك» كان يشير إلى الانحدارات التي تنحدر من الجبل نحو الجزء المستوي من الجزيرة.

- بالطبع! إنها سوف ترقد هنالك، لابد أنها ترقد هنالك عندما تكون الشمس ساخنة للغاية.

وحلق «رالف» مشدوهًا في وجهه المستغرق في التفكير.

- إنها تصعد إلى هناك في الأماكن العلوية، هنالك بالأماكن العلوية وتحت الظلال، وتستريح هنالك أثناء الحرارة الشديدة مثلما تفعل الأبقار في المنازل.

- لقد اعتقدت أنك شاهدت سفينة.

- باستطاعتنا أن نتسلل خفية لأعلى نحو أحد الأماكن العلوية - ونطلي وجوهنا لكيلا ترانا - وربما نتمكن من تطويقها وعندئذٍ.

وشعر «رالف» بالضيق والخنق، عما جعله يفقد السيطرة على نفسه:

- لقد كنت أتحدث عن الدخان. هل ترغب في أن يتم إنقاذك؟ ولكن كلامك يدور دائمًا حول الخنازير، ولا شيء سوى الخنازير الخنازير.

- ولكننا نريد أن نتناول لحومًا.

- وأنا أعمل طوال اليوم ومعي «سيمون» فقط، وأنت تعود ولا تلحظ الأكواخ التي قمنا بتشييدها!

- وأنا كنت أعمل أيضًا.

فصاح «رالف»:

- ولكن تفكيرك ينصب على الصيد، ولا يوجد في ذهنك أي شيء سوى الصيد! في حين أني...

وواجه كل منهما الآخر فوق البلاج الساطع، وقد أدهشهما تضارب المشاعر بينهما. وبادر «رالف» إلى الإشاحة بوجهه أولًا متظاهرًا بأنه مهتم بمجموعة من الأولاد الصغار الموجودين فوق الرمال، ومن وراء الرصيف جاء صياح الصيادين في بركة السباحة، وعند حافة الرصيف كان «بيجي» يرقد منبطحًا ناظرًا لأسفل إلى المياه المتألقة.

- الناس لا يقدمون قدرًا كبيرًا من المساعدة..

وكان يريد أن يقول إن الناس ليسوا تمامًا على النحو الذي نظنهم عليه.

وأشار إلى الأكواخ:

- أمّا «سيمون» فهو يقدم العون والمساعدة..

- وجميع الباقين اندفعوا في العمل، و«سيمون» لم يبذل جهدًا أكثر مما فعلت. كل ما هنالك..

- إن «سيمون» موجود دائمًا ويزاول عمله باهتمام..

وبدأ «رالف» يشق طريقه عائدًا نحو الأكواخ وبجواره «جاك» وتمتم «جاك» قائلًا:

- إنني على استعداد لأن أنجز لك أي قدر من العمل قبل أن أذهب للاستحمام.

- لا تتعب نفسك!

ولكنهما عندما وصلا إلى الأكواخ لم يكن «سيمون» موجودًا هناك، فوضع «رالف» رأسه في الفتحة وسحبها واستدار نحو «جاك»:

- لقد ذهب من هذا المكان.

فقال «جاك»:

- لابد أنه شعر بالضجر والملل فذهب ليستحم.

وتجهم «رالف»:

- إنّه شخص غريب الأطوار وهو شخص مضحك ومُسلٍّ.

فأومأ «جاك» برأسه موافقًا على هذا الرأي لمجرد الموافقة.. وفى رضا وتوافق صامت غادرا الكوخ، واتجها نحو حمام السباحة.

وقال «جاك»:

- وبعد أن أستحم وأتناول شيئًا من الطعام سأشق طريقي صاعدًا إلى الجانب الآخر من الجبل للبحث عن أية آثار أقدام. هل ستأتي معي؟

- ولكن الشمس على وشك الغروب.

- وقد يسعفني الوقت على تحقيق ذلك.

وسارا معًا، وكانا بمثابة قارتين من الخبرة والمشاعر غير قادرتين على الاتصال مع بعضهما البعض.

- إن كل ما أريده هو النجاح في اصطياد خنزير!

- سأعود لاستئناف عملي في الكوخ.

ونظر كل منهما إلى صاحبه وهما يتأرجحان في حيرة بين الحب والكراهية. وكانت المياه الدافئة في حمام السابحة، والصياح، والطرطشة في المياه، والضحك سببًا كافيًا للتقريب بينهما مرة أخرى.

ولم يكن «سيمون» موجودًا في حمام السباحة كما توقعا، فعندما هرول الاثنان الآخران على «البلاج» ليكفا عن التقدم نحو الجبل سار هو وراءهما لمسافة ياردات قليلة توقف بعدئذ، وراح ينظر في تجهم إلى كومة من الرمال فوق «البلاج» حيث كان شخص يحاول بناء منزل صغير أو كوخ. ثم أدار ظهره نحو هذه الكومة وسار في الغابة وفى ذهنه هدف معين. وكان «سيمون» ولدًا ضئيل الحجم، نحيفًا، مدبب الذقن. وكانت عيناه لامعتين للغاية، مما جعل «رالف» يعتقد بطريق الخطأ أنه ولد خليع وشرير، وكانت كتلة الشعر الأسود الكثيفة الخشنة طويلة ومتدلية لأسفل، وتكاد تحجب وراءها جبهة عريضة منخفضة. وكان يرتدي بقايا «بنطلون» قصير، وكانت قدماه عاريتين مثل قدمي «جاك». وكانت بشرة «سيمون» تميل دائمًا إلى اللون الداكن، حيث كانت محترقة بسبب أشعة الشمس، ومتحولة إلى لون شديد السمرة ضارب إلى الصفرة، يلمع مع تصبب العرق.

وشق طريقه نحو الصخرة المنخفضة المغمورة بمياه البحر، وتخطى الصخرة الهائلة التي كان «رالف» قد تسلقها في صباح اليوم الأول، ثم انحرف نحو اليمين متوغلًا بين الأشجار، وسار بخطوات معتادة بين أشجار الفاكهة، حيث يستطيع أقل الأشخاص نشاطًا أن يجد وجبة يسيرة سهلة - وإن كانت غير مشبعة - وكانت الأزهار والفواكه تنمو مع بعضها البعض فوق الشجرة الواحدة، وفى كل مكان كان عبق الثمار اليانعة موجودًا، كما كان طنين الآلاف المؤلفة من النحل منتشرًا بين المراعي.

وفى هذا المكان لحق به الأطفال الصغار الذين كانوا قد جروا وراءه منذ البداية، وكانوا يتكلمون ويصيحون بكلام غير مفهوم ويسحبونه نحو الأشجار. وبين زئير النحل وتحت ضوء شمس ما بعد الظهر أحضر لهم «سيمون» الفواكه التي لم يتمكنوا من الوصول إليها، إذ كان يختار الثمار ويلقي بها للأيدي العديدة الممتدة نحوه.

وبعد أن ناولهم كفايتهم من الثمار توقف عن القطف ونظر فيما حوله، وراح الأولاد يرقبونه في حيرة وقد ملأ كل واحد منهم يديه بثمار الفواكه الناضجة.

واستدار «سيمون» منطلقًا بعيدًا عنهم، وذهب إلى حيث قاده الممر الظاهر بوضوح أمامه، وسرعان ما أطبقت عليه غابة كثيفة عالية، إذ ظهرت جذوع أشجار طويلة تحمل أزهارًا شاحبة

على طول المسافة لأعلى حتى العروض المظلمة حيث تستمر الحياة هناك في ضجيج وصخب. وكانت النباتات المتسلقة تلقى بحبالها مثل أشرعة السفن المرهقة. وتركت أقدامه انطباعات على التربة اللينة، وكانت النباتات المتسلقة ترتعش في كل جزء من أذيالها الممتدة عندما كان يرتطم بها.

ووصل أخيرًا إلى مكان يسقط عليه المزيد من ضوء الشمس، ونظرًا لأن النباتات المتسلقة في هذه البقعة لم تكن مضطرة للصعود لأعلى لمسافات بعيدة جريًا وراء ضوء الشمس - فإنها قد نسجت حصيرة هائلة تعلقت عند أحد جوانب مساحة مكشوفة بالغابة، حيث اقتربت هنا رقعة من الصخور من سطح الأرض، بحيث لم تسمح إلا لنباتات قليلة وبعض نباتات السرخس بالنمو. وكان المكان الشاغر بأكمله مسوَّرًا بشجيرات داكنة عطرية الرائحة، وكان بمثابة إناء مملوء بالحرارة والضوء. وكانت هناك شجرة هائلة ساقطة عبر أحد الأركان، ومستندة على الأشجار التي ظلت واقفة.

وكان هناك نبات متسلق ممتد في تباهٍ بألوانه الحمراء والصفراء حتى القمة.

وتوقف «سيمون» ونظر عبر كتفه مثلما فعل «جاك» من قبل إلى الطرق المتقاربة خلفه، وحملق بسرعة فيما حوله ليتأكد أنه أصبح بمفرده تمامًا، وكانت حركاته تكاد تتسم بالتلصص والاستتار للحظات قليلة.. وبعدئذ انحنى لأسفل وتسلل نحو وسط الحصيرة، وكانت النباتات الزاحفة والشجيرات الصغيرة متقاربة للغاية، حتى إنّه كان يترك عرقه المتصبب عليها، وكانت الشجيرات والنباتات ينجذب بعضها إلى بعض وراءه. وعندما أصبح آمنًا في وسط هذا المكان فإنّه وجد نفسه في عشة صغيرة محتجبة عن الفضاء المكشوف عن طريق أوراق قليلة.، وهنا قبع «سيمون» جالسًا القرفصاء، وباعد ما بين الأوراق، ونظر للخارج إلى الأرض الفضاء الخالية من الأشجار، ولم يكن هناك أي شيء يتحرك، إلا فراشتين صارختي الألوان، حيث كانتا ترقصان وتدور كل واحدة منهما حول الأخرى في الهواء الساخن. وحبس «سيمون» أنفاسه وراح يصغي في انتباه شديد إلى أصوات الجزيرة. وكان المساء آخذًا في الزحف على الجزيرة، وكانت أصوات الطيور الجميلة المتألقة، وأصوات النحل - بل حتى صياح طيور النورس التي كانت في طريق العودة إلى الأغصان التي تبيت عليها بين الصخور المربعة الشكل - أكثر خفوتًا وضعفًا. وكان هدير البحر على مسافة أميال عند الشعب المرجانية يصدر في شكل صوت منخفض للغاية، حتى إنّه كان أقل من صوت همس الدماء.

وأعاد «سيمون» حاجز الأوراق إلى مكانه، وتناقص انحدار قضبان ضوء الشمس ذات الألوان الشبيهة بعسل النحل، وانزلق على الشجيرات الصغيرة، ومرّ على البراعم الخضراء التي تشبه الشموع، وتحرك لأعلى نحو الأجزاء العلوية من الغابة، فتزايد تكاثف الظلام تحت الأشجار، ومع تضاؤل الضوء تدريجيًا ماتت الألوان الصارخة، وهدأت الحرارة، وفتر الإلحاح، وتحركت البراعم الشبيهة بالشموع، وتراجعت سبلاتها الخضراء قليلًا للوراء، ونهضت الرءوس البيضاء للأزهار في رقة وضعف لملاقاة الهواء الطلق. وكانت أشعة الشمس في تلك الآونة قد تركت الفضاء المكشوف وانسحبت من آفاق السماء.. وبدأت حجب الظلام تتدفق وتغمر الطرق التي

تتخلل الأشجار إلى أن أصبحت قاتمة وغامضة مثل قاع البحر، أمّا البراعم الشبيهة بالشموع فقد فتحت أزهارها البيضاء العريضة اللامعة تحت الضوء الخافت الذي كان يخترق حجب الظلام بصعوبة قادمًا من النجوم الأولى التي ظهرت في السماء.

الفصل الرابع

الوجوه المطلية والشعر الطويل

كان أول إيقاع اعتادوا عليه هو التأرجح البطيء من الفجر إلى الغسق السريع، وكانوا يتقبلون في ارتياح مباهج الصباح، والشمس الساطعة، ومياه البحر الطاغية، والهواء المنعش عندما يكون اللعب ممتعًا، وعندما تكون الحياة حافلة للغاية، بحيث يصبح الأمر غير ضروري، وبالتالي يتوارى إلى ظل النسيان، ومع اقتراب فترة الظهيرة ولدى سقوط فيضانات الضوء بشكل عمودي تقريبًا كانت ألوان الصباح المتخشبة تتحول في نعومة إلى لآلئ وألوان براقة. وكانت الحرارة - كما لو أنّ ارتفاع الشمس الوشيك الحدوث قد أعطاها قوة دافعة - تتحول إلى لطمة قوية.، فكانول يتفادونها باللجوء بسرعة إلى الظلال والاستلقاء تحتها، بل وربما بالاستسلام للنوم.

وكانت هناك أشياء غريبة تحدث في وقت الظهيرة، إذ كان البحر المتلألئ يرتفع ويموج لأعلى، ويتحرك متفككًا إلى مستويات مسطحة صاخبة. أمّا الشعاب المرجانية وأشجار النخيل القليلة المتشبثة بالأجزاء المرتفعة فإنها كانت تطفو لأعلى في السماء، وبالتالي كانت ترتعد وتتجاذب وتتفكك، وتجري مثل قطرات المطر فوق السلك المعدني، أو تتكرر كأنها في تتابع من المرايا الغريبة الشكل، وأحيانًا كانت الأرض تبدو كشيء مرعب أكثر ضخامة في الأماكن التي لا توجد فيها أراض، كما كانت تخفق مثل الفقاعات لدى مراقبة الأولاد لها. وكان «بيجي» يقلل من أهميّة كل هذا من الناحية العلمية، على أساس أنها مجرد «سراب وهمى» ونظرًا لأنّه لم يكن بمقدور أحد من الأولاد مجرد الوصول إلى الشعب المرجانية الموجودة فوق سطح المياه حيث تتواجد أسماك القرش المتوحشة، فإنهم أصبحوا معتادين على هذه الأمور الغامضة وتجاهلوها تمامًا، مثلما تجاهلوا النجوم الرائعة. وفى الظهر كانت الصور الخادعة تندمج في الهواء، وهنالك كانت الشمس تحملق لأسفل بعين غاضبة، وبعدئذ عند نهاية ما بعد الظهر كان السراب يخمد ويصبح الأفق مستويًا وأزرق اللون، ومطوقًا لدى ميل الشمس نحو الغروب. وكان هذا الوقت الذي تميل فيه الشمس نحو الغروب يتميز بالبرودة النسبية، غير أنه كان ينذر بقدوم الظلام، وعندما كانت الشمس تهبط وراء الأفق كان الظلام يجثم فوق الجزيرة، وسرعان ما تمتلئ الأكواخ بالملل والسأم والقلق تحت النجوم النائية.

إن تقاليد أوربا الغربية فيما يتعلق بالعمل والتسلية والطعام خلال اليوم جعلت من المتعذر على هؤلاء الأولاد أن يوافقوا أنفسهم تمامًا مع هذا الإيقاع الجديد، فالولد الصغير الذي يُسمّى «بارسيفال» كان قد زحف إلى كوخ في وقت مبكر، وأقام هنالك لمدّة يومين قضاهما في التكلم والغناء والصياح إلى أن اعتقدوا أنه معتوه، وشعروا بالتسلية بعض الشيء، وهو قد أصبح منذ ذلك الحين هزيلًا محتقن العينين، وبائسًا؛ حيث أصبح يقضى وقتًا طويلًا في البكاء، ووقتًا قليلًا في اللعب.

وأصبح الأطفال الأصغرون سنًا يُعرفون باسم «الصغار» وكان التناقص في الحجم ابتداء من «رالف» يسير في خط تنازلي، وبرغم أنه كانت هناك منطقة ملتبسة يسكنها «سيمون» و«روبرت» و«موريس» فإن أحدًا لم يجد صعوبة في التعرف على الأولاد الكبار عند أحد الأطراف والتعرف على الأولاد الصغار عند الطرف الآخر.. والأولاد الصغار بشكل أكيد، أي أولئك الذين يبلغون سن السادسة تقريبًا، كانت لهم حياتهم الخاصّة بهم، وهي حياة تتسم بالوضوح التام والانفعال العاطفي في نفس الوقت، إذ كانوا يأكلون في معظم أوقات اليوم، حيث كانوا يلتقطون الفواكه من الأماكن التي يمكنهم الوصول إليها، بغض النظر عن النضج والنوعية، وأصبحوا معتادين على آلام المعدة والإسهال الحاد المزمن، وكانوا يعانون من حالات من الرعب لا حصر لها في الظلام؛ لذلك كانوا يحتشدون في تقارب مع بعضهم البعض بهدف تحقيق الشجاعة والراحة النفسية، وبصرف النظر عن الطعام والنوم، فإنهم كانوا يجدون الوقت للعب بدون هدف وبشكل تافه مبتذل على الرمل الأبيض بجوار المياه الصافية الجميلة، وكانوا يبكون في حنين لمشاهدة أمهاتهم إلا أنّ بكاءهم كان أقل بكثير مما كان متوقّعا منهم، وكانت بشرتهم قد اكتسبت اللون البنى الغامق، وأصبحت أجسامهم قذرة للغاية، وكانوا يلبون الاستدعاء عن طريق المحارة؛ لأن «رالف» هو الذي كان ينفخ في المحارة، ولقد كان «رالف» كبيرًا على نحو جعله حلقة الوصل مع سلطة عالم الكبار. وأيضًا لأنّهم كانوا يستمتعون لدى حضور الاجتماعات، وبخلاف ذلك فإنهم نادرًا ما كانوا يهتمون بالأولاد الكبار، حيث كانوا يعتقدون أن حياتهم العاطفيّة والتعاون المشترك بينهم هي أمور خاصة بهم.

وكانوا قد شيدوا قلاعًا في الرمال عند الحاجز الخاص بالنهر الصغير، وكانت القلاع تصل إلى ارتفاع قدم تقريبًا، كما كانت مزدانة بالأصداف والمحارات والأزهار الذابلة، والأحجار الجميلة، وحول القلاع كانت توجد مجموعة متكاملة من العلامات والممرات والمسالك والحوائط وخطوط السكك الحديدية التي لها أهميتها ودلالتها إذا ما تم فحصها بالعين على مستوى «البلاج»، وكان الأولاد الصغار يلهون ويلعبون في استغراق شديد، إن لم يكن في شيء من السعادة، وغالبًا ما كان يشترك في نفس هذه اللعبة ثلاثة من الأولاد.

وكان ثلاثة من الأولاد يلعبون في ذلك المكان في تلك الآونة، وكان «هنري» أكبرهم حجمًا، وكان يمت بصلة القربى من بعيد إلى ذلك الولد الذي يوجد بوجهه علامة تشبه ثمرة التوت، والذي لم يشاهده أحد منذ مساء يوم النيران الهائلة، ولكنّه لم يكن كبيرًا في السن على النحو الذي يجعله يفهم معنى هذا الاختفاء، ولو قيل له إن الولد الآخر قد عاد إلى وطنه في طائرة لكان قد تقبّل هذا الكلام بدون أي ضجة أو تكذيب.

وكان «هنري» يقوم بدور القائد بعض الشيء في هذه الفترة من بعد الظهر، ذلك لأن الشخصين الآخرين كانا «بارسيفال» و«جوني»، وهما أصغر ولدين في الجزيرة. وكان «بارسيفال» له لون الفئران، ولم يكن جميلًا أو جذابًا حتى في عيني والدته. أمّا «جوني» فكان قوى البنيان، وله شعر أشقر، وكان محاربًا وعدوانيًا بطبيعته، إلا أنه في تلك اللحظات كان مطيعًا وسلسًا؛ لأنّه كان يشعر بالمتعة والتسلية.

وكان الأولاد الثلاثة في حالة من الوئام والسلام وهم راكعون على الرمال. وخرج «روجر» و«موريس» من الغابة.، وكانا قد شعرا بالارتياح للانتهاء من ذرات السواد والتراب التي عند النيران، وخرجا من أجل الذهاب للاستحمام، وكان «روجر» هو الذي يسير في المقدمة عبر القلاع، فراح - يركل القلاع بقدميه ويهدمها ويدفن فيها الأزهار، ويبعثر الأحجار الجميلة المختارة، ووراءه كان «موريس» يسير ضاحكًا ومحدثًا المزيد من التدمير، وعندئذٍ توقف الأولاد الصغار الثلاثة عن اللعب ونظروا لأعلى. وبرغم حدوث التدمير فإن العلامات الخاصّة التي كانوا مهتمين بها لم تمس بأية أضرار؛ ولذلك لم يحتجوا على هذا التدمير. ولكن «بارسيفال» هو فقط الذي انخرط في نشيج بعين مملوءة بالرمال. وسارع «موريس» إلى الابتعاد والهرولة بعيدًا، وبرغم أنه لم يكن هناك والد لينزل بيده الثقيلة فإن «موريس» كان لا يزال يشعر بالقلق الناجم عن الإتيان بفعل خاطئ. وفى مؤخرة ذهنه راح يكون الخطوط الرئيسية غير الأكيدة التي تتعلق بتقديم الاعتذار، ثم تمتم ببضع كلمات عن السباحة في الماء، وانطلق مهرولًا.

وبقي «روجر» في مكانه وراح يراقب الأطفال الصغار، ولم تكن بشرته أكثر سوادًا عما كانت عليه وقت إسقاطه على هذه الجزيرة، ولكن شعره الأشعث الأسود أسفل ذقنه وعنقه وفوق مساحة منخفضة من جبهته كان - على ما يبدو - متلائمًا مع وجهه الكئيب، وخلق ما يمكن أن يُسمّى لأول وهلة بالبعد غير الاجتماعي في أعماق شيء منفر. وانتهى «بارسيفال» من نشيجه، واستأنف اللعب؛ لأن الدموع قد غسلت عينيه وأزاحت منها الرمال، وراح «جوني» يرقبه بعينين زرقاوين خزفيتين، ثم بدأ يهيل وابلًا من الرمال، وعندئذٍ انخرط «بارسيفال» في البكاء مرة أخرى.

وعندما سئم «هنري» من لعبه وراح يتجول على البلاج تبعه «روجر» مع الالتزام بالسير تحت أشجار النخيل، والانسياق بدون أن يدري إلى نفس الاتجاه، وكان «هنري» يسير مبتعدًا قليلًا عن أشجار النخيل والظلال؛ لأنّه كان صغيرًا للغاية، بحيث لا يدرك أنه ينبغي له تفادي أشعة الشمس.. ونزل إلى «البلاج» وراح يسلي نفسه عند حافة الماء.. وكان المد والجزر الهائل في الباسفيك قادمًا، فأصبحت مياه «اللاجون» الهادئة نسبيًا تعلو وتتقدم للأمام بوصة واحدة كل بضع ثوان قليلة، وكانت هناك كائنات حية تعيش في هذا الجزء الأخير من البحر، وهي بمثابة كائنات دقيقة شفافة جاءت باحثة عن الرمال الجافة الدافئة، وراحت تتفحص هذا الحقل الجديد بقرون استشعار دقيقة للغاية، فلربما يكون الطعام قد ظهر في الأماكن التي لم يوجد بها طعام خلال الرحلة الأخيرة: روث الطيور، وربما حشرات، وأي قدر منثور من فتات الصخور الأرضية. وجاءت هذه الكائنات الدقيقة الشفافة باحثة عن الطعام فوق «البلاج» وكانت مثل المنشار الذي به عشرات الآلاف من الأسنان الدقيقة.

وكان هذا المنظر جذابًا للغاية في ناظري «هنري» فراح يضرب فيما حوله بقطعة من العصا، وكانت العصا نفسها متآكلة بسبب الأمواج، ومكتسية باللون الأبيض، ومتشردة، وحاول السيطرة على حركات الكائنات الباحثة عن الطعام.

وحفر قنوات صغيرة لكي تمتلئ بمياه المد والجزر، وحاول ملأها عن آخرها بتلك الكائنات الدقيقة.. وأصبح منهمكًا للغاية في هذا العمل وقد اعترته نشوة عظمى، حيث أدرك أنه يقوم بنفسه

بالسيطرة على الكائنات الحية، فراح يتحدث معها ويحثها ويصدر لها الأوامر. وبعد أن دفع للخلف بسبب المد والجزر أصبحت آثار أقدامه بمثابة خلجان وقعت في شراكها تلك الكائنات، مما جعله يشعر بالسيادة عليها. وجلس القرفصاء على فخذيه عند حافة الماء، وانحنى فسقطت كتلة كثيفة من شعر جبهته وتخطت عينيه، وصبت شمس ما بعد الظهر سهامًا غير مرئية.

وانتظر «روجر» أيضًا، وكان في بادئ الأمر قد اختفى وراء شجرة نخيل ضخمة، ولكن انهماك «هنري» مع الكائنات الدقيقة كان أمرًا واضحًا للغاية، حتى إنّه وقف أخيرًا ظاهرًا للعيان تمامًا، ونظر على طول البلاج، لقد غادر «بارسيفال» المكان باكيًا، وترك «جوني» في امتلاك مظفر للقلاع. فجلس هنالك وراح يغني ويدندن لنفسه ويلقي بالرمال على «بارسيفال» وهمي، وإلى ما وراءه. كان بمقدور «روجر» مشاهدة الرصيف وومضات الرذاذ حيث كان «رالف» و«سيمون» و«بيجي» و«موريس» يغطسون في البركة. فراح يصغي بانتباه شديد، ولكنّه لم يسمع سوى أصواتهم.

وهز نسيم فجائي حواف أشجار النخيل، مما جعل سعف النخيل يهتز ويرتعد ويرفرف. وعلى مسافة ستين قدمًا فوق «روجر»، كان العديد من ثمار الجوز، وهي كتل ليفية في نفس ضخامة كرة القدم الركبية تتفكك من فروعها وتتساقط فيما حوله محدثة أصواتًا مكتومة عنيفة بدون أن تمسه إحداها، ولم يفكر «روجر» في الهرب من هذا المكان، ولكنّه رفع عينيه عن الثمار لينظر إلى هنري، ثم عاد بنظره إلى الثمار مرة أخرى.

وكانت التربة التحتية في منطقة أشجار النخيل بمثابة شاطئ ساحلي مرفوع لأعلى، وكانت أجيال متعاقبة من أشجار النخيل قد فككت الحجارة التي ألقيت على رمال شاطئ آخر، وانحنى «روجر» والتقط حجرًا وقذفه نحو «هنري» بحيث لا يصيبه الحجر. والحجر - وهو ذلك الرمز الخاص بالوقت المتنافي مع الطبيعة أو العقل - وثب خمس ياردات على يمين «هنري» وسقط في الماء، فملأ «روجر» يديه بالحجارة وراح يقذف بها الواحد تلو الآخر، ومع ذلك كانت هناك مساحة حول «هنري» يبلغ قطرها ست ياردات. تقريبًا لم يجرؤ على قذف الحجارة فيها، فهنا كان يوجد «التابو» Taboo الخاص بالحياة القديمة، وهو «تابو» غير مرئي، ولكنّه قوي، فحول الولد الجالس القرفصاء على فخذيه كانت توجد حماية الوالدين والمدرسة ورجال الشرطة والقانون، فذراع «روجر» كانت تتحكم فيها حضارة لا تعرف عنه شيئًا، وكانت في حالة من الدمار.

ودهش «هنري» لدى سماعه أصواتًا في الماء تشبه أصوات الأشياء التي تلقى بقوّة في الماء، فترك الكائنات الدقيقة الشفافة العديمة الصوت، وأشار إلى وسط الحلقات المنتشرة في الماء، والتي تشبه كلب الصيد، وكانت الحجارة تسقط على هذا الجانب وذاك الجانب، وكان «هنري» يلتفت في إذعان، ولكنّه كان يتأخر دائمًا في التفاتته، بحيث لا يتمكّن من رؤية الحجارة وهي في الهواء، وأخيرًا تمكّن من مشاهدة أحد الأحجار، وضحك وهو يبحث عن الصديق الذي كان يناوشه ويضايقه، غير أن «روجر» كان قد انعطف بسرعة مختفيًا وراء شجرة النخيل، وراح يلهث ويتنفس بسرعة، في حين كان جفناه يرفان، وبعدئذ تلاشى اهتمام «هنري» بالحجارة وانطلق متجولًا في مكان آخر.

وكان «جاك» واقفًا تحت شجرة على مسافة عشر ياردات، وعندما فتح «روجر» عينيه وشاهده زحف ظل داكن للغاية تحت لون بشرته الداكن، غير أن «جاك» لم يلحظ أي شيء من هذا القبيل، فقد كان متلهفًا وقلقًا وراح يومئ ويشير له لكي يحضر إليه، فذهب «روجر» إليه.

وكانت هناك بركة صغيرة عند نهاية النهر، وكانت مسدودة بالرمال ومملوءة بزنبق الماء الأبيض اللون وبأعشاب تشبه الربرة. وهنا كان «إيريك» و«سام» منتظرين، وكذلك كان «بيل»، وركع «جاك» المتواري عن أشعة الشمس عند البركة، وفتح ورقتين كبيرتين كان يحملهما، وكانت إحدى الورقتين تحتوي على صلصال أبيض، والأخرى تحتوي على صلصال أحمر. وبجوارهما كانت توجد عصا من الفحم النباتي من مكان النيران.

وراح «جاك» يشرح لـ «روجر» أثناء قيامه بالعمل:

- إنهم لا يسمعونني وأعتقد إنهم يرونني. شيء ما وردي اللون تحت الأشجار.

وغطى الصلصال بمادة لزجة.

- لو كان لدي فقط شيء من اللون الأخضر.

واستدار بوجهه قليلًا لأعلى نحو «روجر» وأجاب على حملقته التي تدلّ على عدم الفهم:

- لأن أعمال الصيد تشبه الحرب، وأنه تعرف ما هو الطلاء المبهر الذي يحير البصر من شدّة الضياء.. مثل الأشياء التي تبدو وكأنها شيء آخر مختلف.

وتلوى وهو يستحث نفسه على توضيح الأمور:

- مثل الفراشات الموجودة على جذع شجرة.

ففهم «روجر» وأومأ برأسه في وقار.. وتحرك التوءمان نحو «جاك» وأبديا احتجاجهما في جبن. وخوف على شيء ما. فلوح لهما «جاك» بيده للانصراف بعيدًا وقال:

- اخرسوا.

وحك عصا الفحم النباتي بين المساحات الحمراء والبيضاء على وجهه.

- لا. أنتما الاثنان، تعاليا معي.

وأنعم النظر في تفكيره وشعر أنه غير راض عنه.. فانحنى لأسفل وملأ يده مرّتين بمياه فاترة، وراح يحك ويمسح «اللخبطة» الموجودة على وجهه.. فظهرت البقع والنمش على وجهه، وظهرت الرمال المنتشرة بين حاجبي عينيه.

فابتسم «روجر» على الرغم منه، وبدون أن يهدف إلى ذلك.

- لا يبدو وجهك ملخبطًا تمامًا.

فوضع «جاك» تصميمًا جديدًا لوجهه، إذ جعل خدا واحدًا ومحجر عين واحدة أبيض اللون، وبعدئذ راح يدعك باللون الأحمر الجزء الآخر من وجهه وشقَّ خطًا أسود بقضيب من الفحم النباتي عبر وجهه، ابتداء من الأذن اليمنى حتى الفك الأيسر، ونظر في البركة ليرى صورة وجهه على صفحة الماء.

- سامنيرك samneric. أحضر إليّ ثمرة جوز الهند. ثمرة فارغة.

وانحنى ممسكًا قوقعة الماء، وسقطت على وجهه مساحة مستديرة من ضوء الشمس، فظهر لمعان في أعماق المياه، وعندئذٍ نظر في دهشة ولم تعد نظراته تنصب على نفسه، وإنما على ذلك الشخص الغريب المرعب المنعكس على صفحة الماء، ثم بعثر الماء وقفز واقفًا على قدميه وهو يضحك في إثارة بالغة. وبجوار البركة كان جسده القوي يعلوه قناع جذب عيونهم وأدخل الرعب في قلوبهم. فبدأ يرقص وأصبحت ضحكاته بمثابة زمجرة غاضبة متعطشة للدماء، ووثب مرحًا نحو «بيل» وكان القناع شيئًا له كيانه المستقل الذي يختفي وراءه «جاك» متحررًا من الخجل والوعي بالذات. وتأرجح الوجه الزاخر باللون الأحمر والأبيض والأسود عبر الهواء، وتراقص بسرعة نحو «بيل» فقفز «بيل» فجأة ضاحكًا، ثم التزم بالصمت فجأة، وسار في ارتباك مبتعدًا عبر الشجيرات.

واندفع «جاك» نحو التوءمين..

- الباقون يشكلون صفًّا. هيا.

- ولكن..

- نحن..

هيا! سوف أتسلل وأزحف، ثم أقوم بالاقتحام والطعن، وأخضعهم بالقوة.

وتسلق «رالف» صاعدًا من بركة الاستحمام، وجرى مهرولًا على البلاج، ثم جلس تحت الظلال أسفل أشجار النخيل، وكان شعره الأشقر ملتصقًا على حاجبي عينيه فأزاحه إلى الخلف. وكان «سيمون» طافيًا فوق الماء، وكان يركل ويرفس بقدميه، أمّا «موريس» فكان يمارس هواية الغطس في الماء. وكان «بيجي» يقضي وقته في تكاسل هنا وهناك بدون هدف، حيث كان يلتقط الأشياء ثم يلقي بها ثانية. وكانت البرك الصخرية التي تعجبه كثيرًا مغطاة بالمياه بسبب المد والجزر؛ لذلك ظل بدون أي شيء يجذب انتباهه وشغفه إلى أن انحسر المد والجزر، وفي هذه اللحظات شاهد «رالف» تحت أشجار النخيل فسار نحوه وجلس إلى جواره.

وكان «بيجي» يرتدي بقايا «بنطلون» قصير، وكان جسده السمين الممتلئ مكتسيًا باللون البني الذهبي، وكانت نظارته مازالت تتلألأ عندما ينظر إلى أي شيء، وكان هو الولد الوحيد بالجزيرة الذي لم ينم شعره على ما يبدو، أمّا الباقون فكان شعرهم كثيفًا فوق رءوسهم، ولكن شعر «بيجي» كان لا يزال يرقد على شكل خصلات هزيلة فوق رأسه، كما لو كان الصلع هو حالته الطبيعية،

وكما لو كان هذا الغطاء الخفيف من الشعر سيتلاشى قريبًا، شأنه شأن الشعر الناعم الموجود على قرن غزال ذكر.

- لقد كنت أفكر في عمل ساعة، حيث باستطاعتنا أن نصنع مزولة أو ساعة شمسية، وهذا أمر سهل، إذ يمكننا أن نثبت عصًا في الرمال وبعدئذ...

وبذل مجهودًا كبيرًا للغاية لكي يعبر عن العمليات الرياضية التي ينطوي عليها هذا الموضوع، ثم تخلى عن ذلك، وراح يعبر بحركات من يديه.

فقال «رالف» في مرارة:

- ونصنع طائرة وجهاز تليفزيون وقاطرة بخارية.

فهز «بيجي» رأسه، وقال:

- تلك الأشياء تتطلب وجود قدر من المعادن، ولكننا لا نمتلك أية معادن، ولكن توجد لدينا عصا..

فالتفت «رالف» وابتسم بدون أن يكون راغبًا في الابتسام، فقد كان «بيجي» شخصًا ثقيل الظل، ومثيرًا للضيق والضجر، إذ كانت شحومه وبدانته وآراؤه وأفكاره الواقعية من الأمور السخيفة، ولكن كان هناك دائمًا قدر قليل من المتعة التي يتم الحصول عليها من وراء جذب ساقه، حتى ولو فعل ذلك أحد بطريق المصادفة.

وشاهد «بيجي» الابتسامة، واعتقد بطريق الخطأ أنها ابتسامة تدلّ على روح الصداقة، وكان من المتعارف عليه بين الأولاد الكبار أن «بيجي» دخيل على الجماعة وغير منتم إليهم، ليس فقط بسبب لهجته وطريقة نطقه للكلام، ولكن أيضًا بسبب بدانته وآرائه ونظارته وعدمً ميله إلى العمل اليدوي. وعندما اكتشف «بيجي» في تلك اللحظات أنه قد قال شيئًا دفع «رالف» إلى الابتسام، فإنّه شعر بالبهجة وانتهز الفرصة ليشرح وجهة نظره.

- نحن لدينا كميات من العصي، ويمكننا أن نحول كل عصا إلى مزولة أو ساعة شمسية، وبهذه الطريقة يمكننا أن نعرف الوقت.

- سيعود هذا علينا بالخير الوفير.

- ولقد سبق لك أن قلت إنك تريد إنجاز الأمور، وذلك حتى تتاح الفرصة لإنقاذنا..

- أوه.. اخرس.

وقفز واقفًا على قدميه، وهرول عائدًا إلى البركة في الوقت الذي قام فيه «موريس» بغطسة بسيطة بعض الشيء. وكان «رالف» مسرورًا؛ لأنّه وجد الفرصة لتغيير الموضوع، فصاح مناديًا على «موريس» لدى صعوده إلى سطح الماء.

- بطنك يرتفع وينخفض!

فابتسم «موريس» لـ «رالف» ابتسامة خاطفة وانزلق في سهولة إلى الماء، وكان «موريس» هو أكثر الأولاد شعورًا بالارتياح هناك، وكأنه في بيته الخاص به، ولكنّه في هذا اليوم كان يشعر بالضيق والضجر لدى التطرق إلى موضوع الإنقاذ، وهو موضوع تافه الجدوى، حتى إن الأعماق الخضراء للمياه وأشعة الشمس الذهبية المتكسرة لم تخفف من شعوره بالضيق، وبدلًا من البقاء واللعب في الماء فإنّه أخذ يسبح في حركة منتظمة تحت «سيمون» وزحف خارجًا من الجانب الآخر للبركة، واستلقى هنالك وهو يتفجر بالصحة ويقطر ماء مثل عجل البحر، ووقف «بيجي» الذي يبدو دائمًا كشخص أخرق تنقصه البراعة والرشاقة وذهب ليقف إلى جواره حتى إن «رالف» انقلب على بطنه وتظاهر بأنه لا يرى، وكان السراب قد تلاشى تمامًا، فأخذ يمرّ بعينه في شيء من الاكتئاب على طوال الخط الأزرق المشدود للأفق.

وفى اللحظة التالية نهض على قدميه وأخذ يصيح.

- الدخان! الدخان!

وحاول «سيمون» الجلوس في الماء فامتلأ فمه بكمية ضئيلة من الماء، و«موريس» الذي كان قد وقف مستعدًا للغوص في الماء ترنح للخلف على عقبيه، وجرى عائدًا بسرعة إلى الرصيف، ثم انحرف للخلف نحو العشب الموجود تحت أشجار النخيل، وهنالك بدأ يرتدي بنطلونه القصير الممزق لكي يكون على استعداد لمواجهة أي شيء.

ووقف «رالف» وقد امسك بإحدى يديه شعره ليجذبه إلى الوراء، وأطلق أصابع يده الأخرى في إحكام. وبدأ «سيمون» في الصعود خارجًا من الماء.. وأخذ «بيجي» يمسح نظارته على بنطلونه القصير، وراح ينظر ويحدق النظر في اتجاه البحر، وكان «موريس» قد وضع ساقيه في فردة واحدة من بنطلونه القصير، وكان «رالف» هو الوحيد من بين جميع الأولاد الذي التزم بالهدوء والسكينة.

وقال «بيجي» في شيء من الشك:

- إنني لا أرى دخانًا، إنني لا أشاهد دخانًا، يا «رالف» أين ذلك الدخان؟

ولم يتكلم «رالف»، وكانت كلتا يديه آنئذ مطبقتين بقوّة على جبهته لكي يبعد شعره الأشقر عن عينيه. وكان منحنيًا للأمام، وكان الملح قد بدأ يضفي على جسده اللون الأبيض.

- يا «رالف» أين هي السفينة؟

ووقف «سيمون» بجوار «رالف» وراح ينتقل ببصره ما بين «رالف» والأفق. وتمزق بنطلون «موريس» في تنهد، فخلعه وألقى به حيث لم يعد يصلح لشيء، واندفع مسرعًا نحو الغابة، ثم عاد مرة أخرى.

وكان الدخان على شكل عقدة صغيرة مكثفة للغاية فوق الأفق، ثم أخذت تتفكك في بطء، وتحت الدخان كانت توجد نقطة، وربما كانت هذه النقطة بمثابة مدخنة. وكان وجه «رالف» شاحبًا عندما تحدث موجهًا الكلام لنفسه.

- إنهم سيشاهدون دخاننا.

وكان بيجي ينظر في الاتجاه الصحيح آنئذ.

- إنها لا تبدو واضحة.

واستدار وراح يحملق لأعلى نحو الجبل. واستمر «رالف» في مراقبته للسفينة في عصبية، وبدأت الدماء تعود إلى وجهه.، ووقف «سيمون» إلى جواره صامتًا.

وقال «بيجي»:

- إنني أدرك أن نظري ضعيف.

واستطرد:

- ولكن أما زال أي قدر من الدخان ينبعث من عندنا؟

يتحرك «رالف» في عصبية وهو لا يزال يرقب السفينة.

- الدخان موجود فوق الجبل.

وجاء «موريس» مهرولًا وراح يحملق في اتجاه البحر، وراح كل من «سيمون» و«بيجي» ينظران لأعلى إلى الجبل، وقطب «بيجي» ما بين حاجبيه، ولكن «سيمون» صرخ بأعلى صوته كما لو كان قد أصاب نفسه بجرح عميق.

- «رالف»! «رالف»!

فاستدار «رالف» ملتويًا على الرمال بسبب نوعية الصراخ. وتساءل «بيجي» في قلق:

- أرجوك أن توضح لي الأمور. هل هناك إشارة أطلقت من سفينة؟

فعاد «رالف» ينظر إلى الدخان المتشتت فوق الأفق، ثم نظر لأعلى نحو الجبل.

- أرجوك يا «رالف».. هل هناك إشارة؟

ومد «سيمون» يده في شيء من الخوف ليلمس بها «رالف» إلا أن «رالف» بدأ يجرى ويشق طريقه عبر الطرف الضحل من بركة الاستحمام، فتناثرت المياه في طرطشة، ثم عبر الرمال الساخنة البيضاء إلى أن وصل إلى المكان الواقع تحت أشجار النخيل، وبعد لحظات كان يكافح

النباتات العشبية المتشابكة التي كانت تغمر المنحدر الصخري الشاهق عند الشاطئ فجرى «سيمون» وراءه، وبعدئذ جرى «موريس» وراءهما.. فصاح «بيجي»:

- «رالف»!.. لو سمحت يا «رالف».

ثم بدا هو الآخر يجرى ويهرول ويتعثر في «البنطلون» القديم الذي سبق أن تخلص منه «موريس» وذلك قبل أن يصل إلى الأرض المستوية المحاذية للبحر، وخلف الأولاد الأربعة كان الدخان يتحرك برفق على طول الأفق وعلى «البلاج» كان «هنري» و«جوني» يلقيان بالرمال على «بارسيفال» الذي كان يبكي في هدوء مرة أخرى، وكان هؤلاء الأولاد الثلاثة الصغار يجهلون تمامًا ما يدور حولهم من أحداث مثيرة.

وما إن وصل «رالف» إلى طرف المنحدر الصخري الشاهق المتجه نحو الباب حتى بدأ يسب ويلعن في أنفاس لاهثة.. فقد تسبب في إحداث جروح شديدة في جسده العاري أثناء زحفه بين النباتات المتسلقة الشوكية، حتى إن الدماء كانت تنزلق على جسده. وتوقف عند الجزء الصاعد لأعلى في انحدار شديد من الجبل. وكان «موريس» على مسافة ياردات قليلة خلفه.

وصاح «رالف»:

- نظارة بيجي! إذا كانت النيران قد خمدت فسنحتاج إلى نظارة «بيجي».

وتوقف عن الصياح وأخذ يتمايل ويتأرجح على قدميه.. وكان «بيجي» قد ظهر على مسافة بعيدة قادمًا من ناحية «البلاج» وكان يسير في اضطراب. ونظر «رالف» إلى الأفق، ثم نظر لأعلى نحو الجبل. هل ينبغي له الذهاب لإحضار نظارة «بيجي» أو أن الوقت غير كافي لأن السفينة ستكون قد ابتعدت لمسافة كبيرة؟ وهل إذا واصلوا التسلق لأعلى على أساس أن النيران قد انطفأت كلها فهل ينبغي لهم أن يرقبوا «بيجي» وهو يزحف مقتربًا منهم ويرقبوا السفينة وهي تزداد غوصًا تحت - الأفق؟ واجتاحته موجات عارمة من القلق النفسي.. وشعر بالعذاب الشديد؛ لأنّه لم يستطع اتخاذ أي قرار، فصرخ قائلًا:

- يا إلهي!.. يا إلهي!

وحبس «سيمون» أنفاسه وهو يكافح مع الشجيرات.. وكان وجهه ملتويًا.. وسار «رالف» في تثاقل واضطراب وهو يهاجم نفسه في وحشية لدى تحرك وتباعد كتلة الدخان الصغيرة.

وكانت النيران منطفئة تمامًا، إذ أدركوا ذلك بعد لحظات قليلة.. شاهدوا ما سبق أن أدركوه بالفعل وهم في المناطق السفلية على «البلاج» وعندما دعاهم دخان الوطن ولوح لهم.. كانت النيران منطفئة بدون دخان وميتة؛ لأن الساهرين عليها والمراقبين لها قد انصرفوا. وكانت هناك كومة من الوقود غير المستخدم ملقاة بالفعل بالقرب من النار المنطفئة.

واستدار «رالف» نحو البحر، وامتد الأفق مرة أخرى نحو غياهب المجهول قاحلًا وخاليًا من كل شيء، إلا آثارًا ضعيفة للغاية من الدخان.

فجرى «رالف» متعثرًا بين الصخور، وأنقذ نفسه فوق حافة المنحدر الصخري الشاهق الوردي اللون، وراح يصرخ بأعلى صوته مناديًا السفينة:

- ارجعي! ارجعي! عودي إلينا!

وأخذ يجرى إلى الأمام وإلى الخلف على طوال المنحدر الصخري الشاهق، وقد جعل وجهه في اتجاه البحر باستمرار. وازداد صوته ارتفاعًا في نوع من الجنون:

- ارجعي! ارجعي! عودي إلينا!

ووصل «سيمون» «وموريس» فنظر إليهما «رالف» بعينين ثابتتين لا تطرفان، فاستدار «سيمون» منصرفًا وهو يزيل الماء عن خديه.

وبحث «رالف» في أعماق نفسه عن أسوأ كلمة يعرفها.

- لقد تركوا النيران الوحشية إلى أن خمدت.

ولم يبالِ «رالف» بالجانب المحاذي من الجبل. ووصل «بيجي» متقطع الأنفاس، وكان يئن في نشيج مثل الأولاد الصغار، فأطبق «رالف» جماع يده وتصاعدت الدماء إلى وجهه بقوّة شديدة. وكانت نظراته مركزة كما كان صوته مملوءًا بالمرارة:

- ها هم موجودون هناك.

وكان موكب قد ظهر على مسافة بعيدة بالأماكن السفلية بين الحجارة الوردية اللون التي كانت بالقرب من حافة المياه. وكان بعض الأولاد يرتدون قبعات سوداء، ولكنهم كانوا شبه عرايا. وكانوا يرفعون عصًا في الهواء مع بعضهم البعض كلما وصلوا إلى مساحة سهلة من الأرض، وكانوا ينشدون شيئًا له علاقة بالصرة التي يحملها التوءمان المخطئان في عناية شديدة. وتمكّن «رالف» من مشاهدة «جاك» بسهولة من بين المنضمين للموكب، برغم وجود تلك المسافة الطويلة؛ لأن «جاك» كان طويلًا وأحمر الشعر، ولأنه كان يقود الموكب.

وهنا بدأ «سيمون» ينتقل بنظره من «رالف» إلى «جاك» مثلما كان ينتقل ببصره من «رالف» إلى الأفق، ويبدو أن ما شاهده قد جعله يشعر بالخوف. ولم يقل «رالف» كلامًا آخر، وإنما ظل منتظرًا، في حين كان الموكب يزداد اقترابه، وكانت الأنشودة مسموعة إلا أنّ كلماتها كانت غير واضحة بسبب بعد المسافة، وخلف «جاك» كان التوءمان يسيران وهما يحملان وتدًا هائلًا على كتفيهما. وكان جسد خنزير ذبيح خالٍ من الأمعاء يتدلى في تأرجح من الوتد الكبير ويهتز في ثقل عندما يكافح التوءمان فوق الأرض غير المستوية، وكان رأس الخنزير يتدلى لأسفل برقبة مشقوقة، وبدا وكأنه يبحث عن شيء ما على الأرض.. وأخيرًا بدأت كلمات الأغنية تطفو لأعلى نحوهم عبر تجويف مملوء بالأخشاب المتفتحة بالسواد، وزاخر بالرماد والهباء.

- اقتل الخنزير واقطع حلقه وأرق دماءه.

وما إن أصبحت الكلمات واضحة حتى وصل الموكب إلى أكثر الأجزاء انحدارًا في الجبل، ولكن بعد مرور دقيقة أو دقيقتين تلاشت الأغنية. وسال أنف «بيجي» بالمخاط وتمخط بصوت مرتفع، فأسكته «سيمون» بسرعة كما لو كان قد تحدث بصوت مرتفع للغاية في إحدى الكنائس.

ووصل «جاك» الذي كان وجهه ملطَّخا بالصلصال إلى القمة قبل غيره، وحيا «رالف» في إثارة بالغة بأن رفع الحربة في وجهه.

- انظرا! لقد قتلنا خنزيرًا - فقد تسللنا وأطبقنا على الخنزير في شكل دائرة.

وقاطعته أصوات صادرة عن الصيادين.

- لقد انتظمنا على شكل دائرة..

- ثم زحفنا في تسلسل..

- وأطلق الخنزير صرخة طويلة حادة..

ووقف التوءمان وكان الخنزير يتأرجح بينهما ويقطر دماء سوداء فوق الصخر.. وابتسما ابتسامة واحدة عريضة مملوءة بالنشوة البالغة. وكان لدى «جاك» أشياء كثيرة يريد أن يقولها لـ«رالف» على الفور، ولكنّه بدلًا من ذلك راح يرقص خطوة أو خطوتين، وبعدئذ تذكر وقاره، واتزانه، ووقف ساكنًا ومبتسمًا. ولاحظ وجود دماء على يديه فشعر بالاشمئزاز الشديد، وأخذ يبحث عن شيء يمسح فيه يديه، وأخيرًا مسحهما في «بنطلونه» وضحك.

وتحدث «رالف»:

- لقد تركتم النيران إلى أن خمدت وانطفأت..

فعاين «جاك» النيران المنطفئة، وتوتر بسبب عدم وجود علاقة بين موضوع اصطياد الخنزير وموضوع خمود النيران، ولكنّه كان سعيدًا للغاية بحيث لم يتضايق كثيرًا من انطفاء النيران.

- يمكننا أن نشعل النيران مرة أخرى، لقد كنت أتمنى أن تكون معنا يا «رالف» لتشهد بنفسك ما حدث، لقد قضينا وقتًا مفعمًا بالهجوم الساحق، واصطدم التوءمان ووقع أحدهما على الآخر.

- وضربنا الخنزير..

- وسقط على القمة..

وقال «جاك» في فخر - وإن كان في شيء من الرعشة والانتفاض:

- وقطعت حلق الخنزير.

واستطرد:

- أيمكنني أن أستعير سكينتك يا «رالف» لكي أعمل شقًا في المقبض؟

وتبعثر الأولاد وراحوا يرقصون. واستمر «التوءمان» في الابتسام.

وقال «جاك» وهو يضحك في ارتعاد:

- وكانت هناك تدفقات من الدماء، كان ينبغي لك أن تشاهد كل ذلك!

- ستذهب للصيد في كل يوم.

وتحدث «رالف» مرة أخرى بصوت خشن، وكان قد ظل واقفًا في جمود مكانه..

- لقد تركتم النيران وتسببتم في انطفائها.

وأحس «جاك» بالقلق لدى سماعه هذا الكلام يتكرر مرة أخرى. فنظر إلى التوءمين وانتقل ببصره إلى «رالف» مرة أخرى.

وقال:

- لقد اضطررنا إلى الاستعانة بهما في عملية الصيد؛ لأن عددنا لم يكن كافيًا لتنظيم حلقة دائرية.

وتصاعدت الدماء إلى وجهه بعد أن شعر بغلطته.

- لقد انطفأت النيران منذ ساعة واحدة أو ساعتين، ويمكننا أن نشعلها مرة أخرى.

ولاحظ أن جسد «رالف» العاري مملوء بالجروح والقروح والندبات الغائرة، كما لاحظ أن الصمت المطبق الكئيب خيم على الأشخاص الأربعة جميعًا، فسعى - بدافع من روح الخير عنده - إلى إشراكهم في ذلك الشيء الذي حدث وعاد بالسعادة عليه. وكان ذهنه زاخرًا بالذكريات، ذكريات عن الدراية والمعرفة التي هبطت عليهم عندما أطبقوا على الخنزير الذي أخذ يقاوم في استماتة، ذكريات تتعلق بإدراكهم أنهم تفوقوا على ذلك الشيء الحي في المكر والدهاء، وفرضوا إرادتهم عليه وسلبوا منه حياته مثل جرعة طويلة مشبعة من شراب مسكر، وباعد ما بين يديه تمامًا.

- وكان ينبغي لك أن تشاهد الدماء!

وكان الصيادون أكثر صمتًا في تلك اللحظات. ولكنهم راحوا يتهامسون ويغمغمون مرة أخرى في هذا الأمر، وألقى «رالف» بشعره للخلف، وأشار بيد واحدة نحو الأفق الخالي، وكان صوته مرتفعًا ومتوحشًا مما جعلهم يلوذون بالصمت.

- كانت هناك سفينة.

وما إن واجه «جاك» فجأة تورطات مريعة للغاية حتى لجأ للتخلص منها، فوضع إحدى يديه على الخنزير وسحب سكينته.. وهبط «رالف» بذراعه لأسفل وقد أطبق في إحكام على جماع يده وارتعد صوته وهو يقول:

- كانت هناك سفينة.. هنالك بعيدًا عن الشاطئ. ولقد قلتم لي إنكم ستحرصون على اسمرار اشتعال النيران، ولكنكم تركتم النيران تخمد وتنطفئ.. وسار خطوة في اتجاه «جاك» الذي استدار لمواجهته:

- لو كانت النيران مشتعلة لكان هناك احتمال أن يشاهدونا.. وبالتالي كان هناك احتمال بأن نعود إلى وطننا.

وشعر «بيجي» بالضيق والمرارة الشديدة لدى سماعه هذا القول، فنسي جبنه وخوفه لدى إحساسه بالكرب الشديد والحزن على الخسارة الفادحة التي ألمت به، فراح يصرخ في تذمر بحدة بالغة:

- أنت والدماء التي سفكتها يا «جاك»، وأنت والصيد الخاص بك.. كانت لدينا الفرصة للعودة إلى وطننا.

فقام «رالف» بدفع «بيجي» على جانب..

- لقد اخترتموني رئيسًا، وهذا معناه أنكم تنفذون ما أقوله، وأنت تضيع الوقت في الكلام والثرثرة، ولا تستطيع أن تبنى أكواخًا، وبعدئذ تنطلق في أعمال الصيد وتترك النيران لتخمد.

واستدار مبتعدًا في صمت للحظات، ثم جاء صوت مرة أخرى مشحونًا بذروة المشاعر.

- كانت هناك سفينة.

وبدأ أحد الصيادين الصغار ينخرط في البكاء والنحيب.. وبدأت الحقيقة الموحشة الكئيبة تتغلغل في كيان كل شخص، وتصاعدت الدماء في داخل «جاك»، فاحتقن وجهه الأمر أثناء قيامه بتقطيع الخنزير إربًا إربًا.

- لقد كانت عملية اصطياد الخنزير من المهام الكبيرة الصعبة؛ ولذلك كنت بحاجة إلى الاستعانة بكل شخص.

فاستدار «رالف»:

- كان باستطاعتك الاستعانة بجميع الناس بعد الانتهاء من بناء الأكواخ، ولكن ذهنك كان منصبًا على الصيد.

- لأننا في حاجة إلى اللحوم.

ونهض «جاك» واقفًا وهو يقول هذا الكلام وقد أمسك بيده السكينة الملطخة بالدماء.

وواجه أحد الولدين الآخر وجهًا لوجه. وكان هناك عالم الصيد المثير بما فيه من حيل وابتهاج، وانتعاش وحشي، ومهارات. كما كان هناك عالم الإدراك السليم الجذاب والمثير للحيرة.

ونقل «جاك» السكينة إلى يده اليسرى ولطخ جبهته بالدماء وهو يدفع شعره إلى الوراء.

وبدأ «بيجي» مرة أخرى:

- ما كان ينبغي لك أن تدع النار تخمد.. فقد قلت إنك ستحرص على استمرار تدفق الدخان.

وهذا القول من جانب «بيجي» بالإضافة إلى صيحات الموافقة من جانب بعض الصيادين قد دفع «جاك» إلى أسلوب العنف، فظهرت في عينيه الزرقاوين نظرات نارية، فاتخذ خطوة للأمام، وأصبح على مسافة تسمح له بضرب أي شخص، فضرب بطن «بيجي» بجماع يده. فتهاوى «بيجي» جالسًا على الأرض، وراح ينخر بصوت يشبه صوت الخنزير، فوقف «جاك» فوق جسده، وكان صوته ممتلئًا بالشر والوحشية بسبب الشعور بالخزي.

- كان باستطاعتك أنت يا «فاتي» أن تبقي على النيران مشتعلة. ألم يكن باستطاعتك ذلك؟

فاتخذ «رالف» خطوة للأمام. وضرب «جاك» رأس «بيجي» بصفعة قوية، فطارت نظارة «بيجي» ووقعت في رنين على الصخور.. فصاح «بيجي» في رعب شديد:

- نظارتي؟

وسار منحنيًا وراح يبحث ويتحسس فوق الصخور، ولكن «سيمون» الذي وصل إلى مكان النظارة قبله عثر عليها، وحامت العواصف حول «سيمون» فوق قمة الجبل بأجنحة مروعة:

- لقد انكسرت عين واحدة من النظارة.

وأمسك «بيجي» بالنظارة ووضعها على عينيه.. ونظر في حقد وغل إلى «جاك».

- إنني معتمد تمامًا على هذه النظارة. والآن لا يوجد بها سوى عين واحدة، سوف أنتقم منك.

وقام «جاك» بحركة تجاه «بيجي»، ولكن «بيجي» اندفع بعيدًا في ذعر، ووقف وراء صخرة كبيرة تفصل بينهما، ودفع برأسه فوق قمة الصخرة وحملق في «جاك» من خلال نظارته اللامعة ذات العين الواحدة.

- ليس لدي الآن سوى عين واحدة، سوف أنتقم منك.

وقلد «جاك» بطريقة ساخرة أنين «بيجي» وتدافعه للوراء:

- سأنتقم منك.

وكان «بيجي» وتقليد صوته وحركاته بشكل ساخر مثيرًا للفكاهة تمامًا، كما جعل الصيادين ينفجرون في الضحك.

وشجع ذلك «جاك» فاستمر في تقليد تدافع «بيجي» للوراء، وعندئذٍ وصل الضحك إلى عاصفة شديدة من الضحك الجنوني، وأحس «رالف» بشفتيه تختلجان على الرغم منه؛ إذ كان غاضبًا من نفسه لنزوعه إلى الاستسلام.

فراح يتمتم ويغمغم:

- تلك كانت خدعة قذرة.

فتخلص «جاك» من الحركات الدائرية التي يقوم بها، ووقف مواجهًا «رالف» وجاءت كلماته على شكل صياح:

- وهو كذلك! وهو كذلك!

ونظر إلى «بيجي» ثم إلى «الصيادين» ثم إلى «رالف»:

- آسف، أعنى أنني أبدي أسفي بشأن ما حدث للنيران هنالك، وأنا.

وتمالك نفسه واستجمع قواه:

- وأنا أقدم اعتذاري..

فصدر طنين من جانب الصيادين، حيث أعربوا عن إعجابهم بهذا السلوك الحسن.. وكان من الواضح إنهم يعتقدون أن «جاك» قد سلك السلوك الراقي ووضع نفسه في الاتجاه الصحيح عندما أبدى اعتذاره وحسن نواياه، وكان من الواضح أيضًا أنهم يعتقدون في شيء من الغموض أن «رالف» كان مخطئًا، وانتظروا أن يرد «رالف» بإجابة لائقة مناسبة.

غير أن خُلُق «رالف» رفض السماح بالنطق بإحدى الإجابات اللائقة.. إذ كان يشعر بالاستياء من هذه الخدعة، وبسبب سوء سلوك «جاك».. وكانت النيران ميتة، وكانت السفينة قد ولت واختفت.. أليس بمقدورهم أن يدركوا كل هذا؟ وتصاعد الغضب إلى حلقه بدلًا من كلمات المجاملة الرقيقة:

- تلك كانت خدعة قذرة..

وخيم الصمت عليهم فوق قمة الجبل، في حين ظهرت النظرة غير الشفافة في عيني «جاك» ثم تلاشت.

وكانت كلمات «رالف» الأخيرة بمثابة همهمة غير لطيفة:

- وهو كذلك. أشعلِوا النيران.

ومع ظهور عمل إيجابي أمامهم تلاشى قدر ضئيل من التوتر. ولم يقل «رالف» كلامًا أكثر من ذلك، ولم يقم بأي عمل، واكتفى بالوقوف والنظر إلى أسفل نحو الرماد المحدق بقدميه.

ودب النشاط في «جاك» وأصبح صوته عاليًا، فراح يصدر الأوامر ويغني ويصفر ويبدي الملاحظات بشأن «رالف» الصامت.. وهي ملاحظات وتعليقات لم تكن بحاجة إلى الرد عليها بإجابات معينة، وبالتالي لم تكن تفتح الباب أمام رد جاف، ولذلك ظل «رالف» صامتًا. ولم يجرؤ أحد - ولا «جاك» نفسه - على أن يطلب منه التحرك من مكانه، وفى نهاية الأمر اضطروا لبناء كومة من الأخشاب. الخاصّة بالنيران على بعد ثلاث ياردات، وفى مكان غير ملائم تمامًا مثل المكان الأول، وبهذه الطريقة أصر «رالف» على زعامته، وأكدها تمامًا، وما كان له أن يعثر على طريقة أفضل يؤكد بها زعامته، حتى ولو فكر في ذلك لأيام عديدة، وإزاء هذا السلاح الذي استخدمه «رالف» - وهو سلاح فعال وغامض - أصبح «جاك» عاجزًا، ودب الغضب في أعماقه بدون أن يعرف السبب في ذلك، وما إن تم تكوين كومة الأخشاب العالية حتى أصبحا يقفان عند جانبين مختلفين لحاجز عالٍ.

وما إن انتهى إعداد الكومة العالية حتى ظهرت مشكلة أخرى؛ إذ لم يكن لدى «جاك» وسيلة لإشعال النيران.. ثم دُهش «جاك» عندما شاهد «رالف» يتجه نحو «بيجي» ليأخذ منه نظارته، بل إن «رالف» لم يكن يدرك كيف أن الرابطة بينه وبين «جاك» قد أغفلت، ثم تثبتت في مكان آخر:

- سأعيد النظارة إليك.

- سأجيئ أيضًا.

ووقف «بيجي» وراءه معزولًا في حين ركع «رالف» وأخذ يركز النقطة اللامعة في البؤرة، وما إن اشتعلت النيران حتى مد «بيجي» يديه واختطف نظارته بسرعة.

وأمام هذه الأزهار الرائعة الجذابة التي تضم اللون البنفسجي والأحمر والأصفر تلاشت القسوة والخشونة، أصبحوا بمثابة دائرة من الأولاد الملتفين حول نيران معسكر، بل انجذب قليلًا إلى الدائرة من «رالف» و«بيجي» وسرعان ما اندفع بعض الأولاد مهرولين نحو الأماكن السفلية من المنحدر لإحضار المزيد من الأخشاب، في حين كان «جاك» يقطع لحم الخنزير.. وحاولوا الإمساك بجسد الخنزير بأكمله على خازوق فوق النيران، غير أن الخازوق احترق بسرعة كبيرة قبل أن يتم شواء لحوم الخنزير، وفى النهاية استخدموا بعض الأغصان كأسياخ ووضعوا عليها قطعًا من اللحم، وأمسكوا بالأغصان أمام اللهيب، وعندئذٍ كاد الأولاد يتعرضون للشواء مثل لحم الخنزير.

وسال اللعاب من فم «رالف»، وكان يهدف إلى رفض تناول اللحوم إلا أنّ طعامه في الأيام الماضية المكون من الفاكهة وجوز الهند بالإضافة إلى تفاح بري أو سمك غريب الطعم - قد أعطاه مقاومة ضئيلة للغاية، فقبل قطعة من اللحم غير مشوية تمامًا وراح يقضمها مثل الذئب.

وتكلم «بيجي»، وكان لعابه يسيل هو الآخر:

- ألن أحصل أنا على أية لحوم؟

وكان «جاك» قد تعمد أن يتركه نهبًا للشكوك، كنوع من التأكيد على نفوذه وسلطته، ولكن «بيجي» بإعلانه عن إغفاله جعل المزيد من القسوة أمرًا ضروريًا.

- أنت لم تشترك في أعمال الصيد.

فقال «بيجي» واللعاب يسيل من فمه:

- وكذلك «رالف» لم يشترك في أعمال الصيد، ولا «سيمون».

ثم استطرد في شيء من المبالغة:

- لم يتبق سوى كمية محدودة من اللحوم.

وتحرك «رالف» في شيء من القلق، أمّا «سيمون» الجالس ما بين التوءمين و«بيجي» فإنّه مسح فمه ودفع بقطعة اللحم الخاصّة به عبر الصخور إلى «بيجي» فأمسك بها «بيجي».. وضحك التوءمان في قهقهة عالية، وأخفض «سيمون» وجهه في خجل.

وعندئذ قفز «جاك» ناهضًا على قدميه، وقطع قطعة ضخمة من اللحم وألقى بها عند قدمي «سيمون».

- تناول هذا اللحم.. لعنة الله عليك!

ونظر محملقًا في «سيمون».

- خذ هذا اللحم.

واستدار على عقبيه وسط دائرة من الأولاد المذهولين:

- لقد نجحت في إحضار اللحم لكم.

وكانت الإحباطات العديدة، والتي لا يمكن التعبير عنها، هي التي جعلت غضبه شديدًا ومثيرًا للخوف.

- لقد وضعت الطلاء على وجهي، وتسللت، وهما أنتم الآن جميعًا تأكلون.. أنتم جميعًا مثلي تمامًا. وأنا..

وساد الصمت تدريجيًا فوق قمة الجبل إلى أن أصبح بالإمكان سماع الهمهمة الخفيفة المنبعثة عن شواء اللحوم بكل وضوح. ونظر «جاك» فيما حوله باحثًا عن التعاطف، ولكنّه لم يجد سوى الاحترام. وكان «رالف» يقف صامتًا بين رماد نيران الإشارة وقد امتلأت يداه بشرائح اللحم.

وبعدئذ حطم «موريس» السكون أخيرًا إذ حول دفة الكلام إلى الموضوع الوحيد الذي يمكنه التقريب ما بين الغالبية العظمى من الحاضرين:

- أين وجدتم الخنزير؟

فأشار «روجر» لأسفل نحو الجانب الشديد الانحدار وقال:

- لقد كانوا هنالك - بالقرب من البحر.

وأفاق «جاك» عندئذٍ، ولم يتحمل رؤية أحد وهو يقص على الأولاد قصته هو، فتدخل في الكلام بسرعة قائلًا:

- لقد انتشرنا على شكل دائرة، وأنا زحفت على يدي ورجلي.. وسقطت الرماح؛ لأنها غير مزودة بشوكات، وكان الخنزير يجري دائمًا ويحدث صوتًا مريعًا.

- واستدار عائدًا وجرى إلى داخل الدائرة في حين كانت الدماء تنزف منه، وأصبح الأولاد جميعًا يتكلمون في وقت واحد في شيء من الإثارة والشعور بالارتياح:

- وأطبقنا عليه..

- وكات الضربة الأولى قد أصابت أجزاءه الخلفيّة بالشلل؛ ولذلك فقد تمكنت الدائرة من الإطباق عليه، وانهال الضرب عليه مرات عديدة.

- وأنا قمت بقطع حلق الخنزير.

وكان «التوءمان» ما زالا يبتسمان ابتسامتهما المتماثلة وهما يقفزان لأعلى ويجرى كل منهما وراء الآخر على هيئة دائرية، انضم الباقون إليهما، وأحدثوا جميعًا أصواتًا تشبه أصوات استغاثة الخنزير لدى ذبحها وانخرطوا جميعًا في الصياح.

اضربه.. ضربة على رأسه!

- أعطه ضربة بأربعة بنسات!

وعندئذ مثل «موريس» دور الخنزير وجرى وهو يصرخ صرخات حادة طويلة إلى وسط الدائرة، فتظاهر جميع الصيادين الذين كانوا لا يزالون يدورون بأنهم يضربونه. وكانوا يغنون أثناء الرقص وينشدون.

- اقتل الخنزير. اقطع حلق الخنزير.. اضرب الخنزير واسحقه في عنف.

وراح «رالف» يرقبهم في حقد واستياء، وتكلم قبل أن يهدأ ضجيجهم ورقصهم وغناؤهم:

- إنني أدعو إلى عقد اجتماع.

فتوقفوا الواحد تلو الآخر، ووقفوا يرقبونه:

- سأدعوكم - مستخدمًا المحارة - إلى حضور اجتماع حتى ولو اضطررنا إلى الاستمرار في الاجتماع تحت جنح الظلام.. سيعقد الاجتماع في الأماكن السفلية هنالك على الرصيف عندما أنفخ في المحارة.. الآن.

واستدار مبتعدًا وسار هابطًا من فوق الجبل.

الفصل الخامس

وحش قادم من الماء

كان المد والجزر قادمًا، ولم يكن هناك سوى شريط ضيق من رمال البلاج الثابتة يقع ما بين المياه، والمواد البيضاء التي تتعثر فيها الأقدام، والتي كانت قريبة من الأرض المرتفعة قليلًا المليئة بأشجار النخيل. واختار «رالف» أن يسير على رمال «البلاج» الثابتة؛ لأنّه كان يحتاج إلى التفكير الهادئ بدون إزعاج، وكان هذا الممر من الرمال الثابتة هو المكان الوحيد الذي يسمح لقدميه بالتحرك بدون أن يضطر لمراقبتهما، وفجأة، وبينما كان يمشي الهوينى بجوار الماء إذ تغلبت عليه مشاعر الدهشة، واكتشف في نفسه أنه قد بدأ يفهم متاعب هذه الحياة، حيث كانت كل سبلها مرتجلة، وحيث كان قدر كبير من فترة استيقاظ الإنسان ينقضي في مراقبة الإنسان لقدميه..

وتوقف عن المشي، وواجه شريط الرمال الضيق، وتذكر ذلك الاستكشاف الحماسي الأول كما لو كان جزءًا من حياة الطفولة المشرقة، فابتسم في سخرية، ثم استدار وسار عائدًا تجاه الرصيف، فقط ضوء الشمس على وجهه، لقد حان الوقت لعقد الاجتماع، وبينما كان يسير تحت روعة وبهاء ضوء الشمس الآخذ في التواري والاحتجاب بدأ يستعرض في ذهنه بكل دقة النقاط التي سيتناولها في خطابه؛ إذ ينبغي ألا تكون هناك غلطة تتعلق بهذا الاجتماع، ويجب أن يكون الاجتماع خاليًا من تصيد الأوهام الزائفة.

وفقد ذاته في متاهات الأفكار التي تعرضت للغموض والإبهام بسبب نقص المفردات اللغويّة لديه؛ لأن الكلمات هي التي تعينه على التعبير عن تلك الأفكار. وحاول في تجهم تنظيم أفكاره مرة أخرى.

ينبغي ألا يكون الاجتماع تسلية ولهوًا، ويجب أن يكون عملًا جديًا يتناول المسائل الهامة.. وهنا زاد من سرعته في السير بعد أن أدرك فجأة أن الأمر عاجل، وأن الشمس آخذة في الانحدار نحو المغيب، وبعد أن أحسّ ببعض النسيم الناجم عن سرعته في المشي يداعب وجهه.. ودفعت لفحات النسيم قميصه الرمادي اللون على صدره بشدة، حتى إنّه لاحظ -وهو في هذه الحالة الجديدة من الفهم والإدراك - أن ثنايا قميصه كانت ناشفة مثل الورق المقوى، ولاحظ أيضًا أن حواف «بنطلونه» البالية كانت تخلق مساحة وردية غير مريحة فوق الأجزاء الأماميّة من فخذيه. ومع اختلاج الذهن اكتشف «رالف» وجود القذارة والتعفن، وأدرك أنه كان يكره كثيرًا إزاحة الشعر المتشابك عن عينيه باستمرار، وكان يكره أيضًا منظر الشمس وهي تختفي وتنحدر في صمت لتستريح بين الأوراق الجافة. وهنا بدأ يهرول مسرعًا.

وكان «البلاج» بالأماكن القريبة من بركة السباحة منقطًا بمجموعات من الأولاد الذين ينتظرون بدء عقد الاجتماع، وكانوا يشقون طريقهم نحوه في صمت، حيث كانوا مدركين لحالته

النفسية المتجهمة، وللخطأ الذي ارتكب في موقع لنيران.

وكان مكان الاجتماع الذي وقف عنده «رالف» مثلث الشكل تقريبًا، ولكنّه مثلث غير منتظم وناقص، شأنه في ذلك شأن أي شيء يفعلونه، وكانت هناك أولًا الكتلة الخشبية التي جلس عليها، وهي بمثابة شجرة ناشفة، ومن المؤكد أنها كانت شجرة كبيرة للغاية بالنسبة للرصيف، وربما ألقت بها إلى هذا المكان إحدى العواصف الأسطورية التي يشتهر بها الباسفيك. وكان جذع النخيل هذا ملقى في اتجاه متواز مع «البلاج» حتى إن «رالف» عندما جلس عليه كان وجهه في اتجاه الجزيرة، ولكنّه بالنسبة للأولاد كان بمثابة هيكل أسود في مواجهة وميض «اللاجون» أمّا جانبًا المثلث الذي تعد الكتلة الخشبية هي قاعدته فكانا أقل تحديدًا من حيث التساوي. فعلى اليمين كانت هناك كتلة خشبية بها لمعان على طول قمتها ناجم عن الجلوس عليها في قلق، ولكنّها كتلة ليست كبيرة للغاية مثل تلك التي يجلس عليها الزعيم، وليست مريحة مثلها. وعلى اليسار كان هناك أربع كتل خشبية صغيرة - وكانت إحداها - وهي أكثرها بعدًا - بها مرونة مثل الزنبرك، وفى حالة يرثى لها. وكان كل اجتماع من هده الاجتماعات ينتهي بانفجار شديد في الضحك عندما كان يستند شخص ما للوراء أكثر من اللازم؛ لأن الكتلة الخشبية كانت عندئذٍ «تلب» كالخيزران، وتلقي بنصف دستة من الأولاد إلى الخلف على الأرض العشبية، ومع ذلك فهو لم يشاهد في هذه المرّة أحدًا يتّسم بالفطنة والذكاء - لا هو نفسه ولا «جاك» ولا «بيجي» - بحيث يحضر حجرًا ليثبت به هذه الكتلة، وهذا معناه أنهم سيستمرون في تحمل متاعب هذه الكتلة الخشبية غير المتوازنة؛ لأنهم.. ومرة أخرى فقد نفسه في مياه عميقة.

وكان العشب باليًا أمام كل جذع، ولكنّه كان ينمو طويلًا في وسط المثلث بعيدًا عن وطأة الأقدام، وبعدئذ كان كثيفًا مرة أخرى عند رأس المثلث؛ لأن أحدًا لم يكن يجلس هناك. وحول مكان الاجتماع من جميع الجهات كانت توجد جذوع الأشجار الرمادية منتصبة القامة أو منحنية، وكانت تساند السطح المنخفض للأوراق، وعلى كلا الجانبين كان يوجد «البلاج» وإلى الخلف يوجد «اللاجون» وإلى الأمام كان يوجد ظلام الجزيرة.

واستدار «رالف» نحو مقعد الرئاسة، ولم يسبق لهم من قبل أن حضروا اجتماعًا في مثل هذا الوقت المتأخر، وهذا هو السبب في أن المكان كان يبدو مختلفًا ومغايرًا للغاية. وفى الأوقات العادية كان الجانب السفلى للسقف الأخضر يضاء بواسطة كتلة متشابكة من الانعكاسات الذهبية، وكانت وجوههم تضاء بطريقة معكوسة مثلما - وهو ما اعتقده «رالف» - يمسك الإنسان في يديه بمشعل كهربائي، ولكن في هذه المرّة كانت الشمس آخذة في الانحدار نحو جانب واحد، عما جعل الظلال توجد في المكان الذي ينبغي أن توجد فيه.

ومرة أخرى تعرض «رالف» لحالة التأمل الغريبة التي كانت غير مألوفة له للغاية. إذ كانت الوجوه تختلف في شكلها إذا أضيئت من أعلى أو من أسفل - فما هو الوجه؟ وما هي ماهية أي شيء؟

وتحرك «رالف» في قلق، وكانت المشكلة تتركز في الآتي: إذا قدر لك أن تكون زعيمًا فإنّه ينبغي لك أن تفكر، ويجب عليك أن تكون حكيمًا، ويجب عليك أن تتخذ القرار في الوقت المناسب

قبل ضياع الفرصة، وهذا يجعل المرء يفكر في عمق؛ أن التفكير من الأمور البالغة الأهمية حيث يفضي إلى النتائج الهامة..

وكان على «رالف» أن يعدل من قميصه مرة أخرى في ذلك المساء، لقد كان بمقدور «بيجي» أن يفكر، إذا كان باستطاعته الانتقال خطوة وراء خطوة في داخل رأسه السمين، كل ما هنالك أن «بيجي» لم يكن زعيمًا، ولكنّه - برغم جسده المثير للضحك - كان يتميز بالذكاء والمقدرة العقليّة. وكان «رالف» متخصصًا في الفكر آنئذ، وكان بمقدوره إدراك الفكر الذي يعتمل في شخص آخر.

وذكرته الشمس المنعكسة على عينيه بأن الوقت يمرّ بسرعة؛ لذلك بادر إلى إنزال المحارة من فوق الشجرة وراح يفحصها، لقد أدى تعرضها المستمر للهواء إلى تبييضها فأصبح اللون الأصفر الوردي قريبًا من اللون الأبيض ومن الشفافية. وشعر «رالف» بنوع من الاحترام والتبجيل العاطفي نحو المحارة، برغم أنه هو الذي استخرجها من «اللاجون» بنفسه.. وواجه مكان الاجتماع ووضع المحارة على شفتيه.

وكان الآخرون في انتظار هذا الإجراء فحضروا على الفور. فأولئك الذين كانوا يدركون أن سفينة قد مرّت بالقرب من الجزيرة والنيران منطفئة - كانوا يشعرون بالقهر أو الخوف من غضب «رالف» أمّا أولئك الذين لم يدركوا ذلك الأمر - بما فيهم الأولاد الصغار - فكانوا متأثرين بجو الوقار والهيبة.

وامتلأ مكان الاجتماع على وجه السرعة. وكان «جاك» و«سيمون» و«موريس» ومعظم الصيادين على يمين «رالف» والباقي على يساره تحت الشمس، وجاء «بيجي» ووقف خارج نطاق المثلث، ودل هذا على أنه كان يرغب في الاستماع بدون الاشتراك في الكلام والمناقشة، وقد تعمد «بيجي» تلك الحركة؛ ليعبر عن عدم موافقته على الاجتماع.

- والمسألة هي: أننا في حاجة أي عقد اجتماع.

ولم يعلق أحد بأي كلام، ولكن الوجوه التي التفتت نحو «رالف» كانت تنظر في اهتمام وتركيز شديدين، ولوح «رالف» بالمحارة، وكان قد أدرك من خلال الممارسة العملية أن العبارات الجوهرية التي تشبه تلك العبارة ينبغي أن تقال مرّتين على الأقل لكي يفهمهما تمامًا كل فرد من الحاضرين.

وينبغي للمرء أن يجلس جاذبًا جميع الأنظار إلى المحارة، ويلقي بالكلمات مثل الحجارة المستديرة الثقيلة بين المجموعات الصغيرة التي ربضت أو جلست القرفصاء. وراح يبحث في ذهنه عن الكلمات البسيطة المبسطة لكي يتمكّن الأولاد الصغار من فهم الأفكار التي يتناولها الاجتماع، وقد يستخدم فيما بعد بعض المتمرسين في الجدول والمناقشة من أمثال «جاك» و«موريس» و«بيجي» فنونهم وألاعيبهم لتشويه الاجتماع، ولكن ينبغي من الآن ومن البداية جعل موضوع المناقشة واضحًا كل الوضوح.

- نحن بحاجة إلى عقد اجتماع، ليس من أجل اللّهو والتسلية، وليس من أجل الانفجار في الضحك والسقوط من فوق الكتلة الخشبية.

وعندئذ ضحك الأطفال الصغار الموجودون فوق الكتلة الخشبية التي «تلب» كالخيزران، ونظر بعضهم إلى بعض.

- اجتماع ليس من أجل القاء النكات المثيرة للضحك، وليس من أجل..

ثم رفع المحارة محاولًا العثور على الكلمة المقنعة المعبرة... ليس من أجل استعراض المهارة والذكاء، وليس من أجل كل هذه الأمور، ولكن من أجل أن نضع الأمور في نصابها.

وتوقف للحظات.

- لقد كنت أفكر في بعض الأمور بمفردي، وأنا أعرف الأمور التي نحتاج إليها، فنحن بحاجة إلى اجتماع لكي نضع الأمور في نصابها، وننظر إلى الأمور على حقيقتها تفاديًا لسوء الفهم، وهأنذا أتحدث إليكم أولًا وقبل كل شيء..

وتوقف عن الكلام لحظات قليلة، ثم دفع بشعره للخلف بطريقة آلية وسار «بيجي» على أطراف أصابع قدميه نحو المثلث بعد أن انتهى احتجاجه غير الفعال، وانضم للآخرين.

واستأنف «رالف» كلامه:

- ونحن نعقد اجتماعات كثيرة.. فكل شخص يسعد بالتحدث والوجود مع الآخرين، ونحن نتخذ قرارات بشأن الأمور المختلفة، ولكن القرارات لا تنفذ؛ إذ سبق أن اتخذنا قرارًا بإحضار المياه العذبة من الجدول المائي ووضعها في قرعات جوز الهند المفرغة تحت الأوراق الخضراء، وتم ذلك بالفعل على مدى أيام قليلة، ولكن لا توجد الآن مياه في قرعات جوز الهند، وبدأ الناس يشربون من مياه النهر مباشرة.

فظهرت تمتمة مؤيدة لهذا الكلام.

- ولا أعنى بكلامي هذا أنه من الخطأ شرب الماء من النهر مباشرة، فباستطاعة المرء الحصول بسرعة على الماء من ذلك المكان - كما تعرفون - من البركة التي يوجد عندها المسقط المائي، وهذا أسرع من الحصول على الماء من قرعات جوز الهند القديمة، كل ما هنالك أننا أصدرنا قرارًا بضرورة إحضار الماء من النهر ووضعه في القرعات، ومع ذلك لا يوجد الآن ماء في قرعات جوز الهند؛ حيث لا يوجد هناك سوى قرعتين مملوءتين بالماء بعد ظهر اليوم.

ولعق شفتيه واستطرد قائلًا:

- ثم توجد هنالك الأكواخ، وهي الاماكن التي تأوينا ونلوذ بها.

فظهرت التمتمة مرة أخرى ثم تلاشت.

- ومعظم الأولاد ينامون في أكواخ، وأنتم جميعًا سوف تنامون في الأكواخ في هذه الليلة إلا التوءمين: «سام» أو «إريك» الموجودين هنالك عند النيران. فمن الذي شيد الأكواخ؟

فتصاعد الصخب والضجيج على الفور، فقد سبق أن شارك كل شخص في بناء الاكواخ، واضطر «رالف» إلى التلويح بسرعة بالمحارة.

- انتظروا قليلًا.. أنا أقصد: من الذي قام ببناء الأكواخ الثلاثة؟ لقد اشتركنا جميعًا في بناء الكوخ الأول، واشترك أربعة منا في بناء الكوخ الثاني، وأنا و«سيمون» فقط قمنا ببناء الكوخ الثالث والأخير الموجود هنالك. وهذا هو السبب في أنّ هذا الكوخ الثالث مترنح وآيل للسقوط للغاية. لا.. لا تنخرطوا في الضحك، فذاك الكوخ قد ينهدم إذا انهمرت الأمطار مرة أخرى، ونحن سنكون في أشد الحاجة الى هذه الأكواخ في حالة الأمطار مرة أخرى.

وتوقف عن الكلام وسلك صوته:

- وهنالك شيء آخر: لقد اخترنا تلك الصخور الواقعة هناك وراء بركة الاستحمام كمرحاض، وكان هذا الاختيار سليمًا؛ لأن المد والجزز يقوم بمهمة تنظيف هذا المكان، وأنتم أيها الأطفال الصغار تعرفون ذلك جيدًا.

فظهرت ضحكات مكتومة هنا وهناك كما ظهرت النظرات السريعة:

وأقول لكم إنني لاحظت أن الناس -على ما يبدو - يتبولون ويتبرزون في أي مكان، بل وبالقرب من الأكواخ والرصيف، فأنتم أيها الأطفال الصغار تقضون حاجتكم على الفور إذا شعرتم بالرغبة الفجائية في ذلك، ويكون هذا أثناء حصولكم على الفواكه.

فانفجر الحاضرون في ضحك كالزئير:

- وأنا أقول لكم إذا شعرتم فجأة بالرغبة في التبول أو التبرز فعليكم بالابتعاد من مكان أشجار الفواكه؛ لأن هذا الذي تفعلونه ينشر القاذورات.

فضج الحاضرون بالضحك مرة أخرى.

فأمسك بقميصه المتيبس الرمادي اللون وقال:

- فذلك حقًّا من الأمور القذرة، إذا شعرتم بالرغبة في قضاء الحاجة فسيروا على طول «البلاج» إلى ن تصلوا إلى الصخور. أتفهمون؟

ورفع «بيجي» يديه للحصول على المحارة لكي يتكلم.. ولكن «رالف» هزّ رأسه رافضًا، فهذه الخطبة كانت تسير وفق خطة، وتتناول نقطة وراء نقطة.

- وينبغي لنا استخدام الصخور في هذا الغرض مرة أخرى؛ لأن المكان الذي نعيش فيه بدأت تظهر فيه القاذورات.

وتوقف عن الكلام، وأحس الحاضرون بقرب ظهور الأزمة، فراح الجميع يرقبون الموقف في توتر شديد:

- وبعد هذا نصل إلى موضوع النيران.

وترك «رالف» أنفاسه تخرج لاهثة، فقلده المستمعون وصدرت عنهم أنفاس لاهثة، وبدأ «جاك» يقطع ويكسر قطعة صغيرة من الخشب بسكينته، ثم همس ببعض الكلام في أذن «روبيرت» الذي أشاح بوجهه بعيدًا:

- النيران هي أهم شيء بالجزيرة على الإطلاق.. فكيف يمكننا أن ننقذ حياتنا إذا لم نحرص على استمرار النيران في الاشتعال؟ بالطبع هناك احتمال في أن يتم إنقاذنا بدون أن نشعل النيران، وذلك عن طريق المصادفة البحتة أو الحظ، ولكن لا ينبغي أن نعتمد على المصادفات، فهل النيران عبء ثقيل علينا للغاية بحيث لا نشعلها؟

ونشر ذراعيه قائلًا:

- انظروا إلى عددنا الكبير! كم عددنا! ومع ذلك فنحن لا نحرص على دوام اشتعال النيران من أجل الحصول على الدخان، ألا تفهمون؟ ألا تدركون أننا كنا في عداد الأموات قبل أن نشعل النيران؟

وتعالت قهقهة عالية خجولة بين الصيادين، فهاجمهم «رالف» في غضب وانفعال.

- أنتم أيها الصيادون يمكنكم أن تضحكوا! ولكنى أقول لكم إن الدخان أكثر أهميّة من الخنزير مهما قمتم بقتل خنزير من وقت لآخر، هل تفهمون جميعًا؟

ونشر يديه في اتساع كبير والتفت نحو المثلث بأكمله:

- إما أن نحرص على إطلاق الدخان هنالك فوق الجبل، وإما أن نموت.

وتوقف عن الكلام باحثًا في ذهنه عن النقطة التالية:

- وهناك شيء آخر.

فصاح شخص ما:

- هناك أشياء كثيرة للغاية.

وظهرت تمتمات من الحاضرين بالموافقة، فتجاهل «رالف» هذه التمتمات:

- وهنا شيء آخر.. نحن نكاد نشعل الجزيرة كلها بالنيران.. فنحن نضيع الوقت وندحرج الصخور، ونصنع مواقد صغيرة للطهي.. والآن أقول لكم بصفتي زعيما ورئيسًا: لن نشعل النيران في أي مكان، وإنما فوق الجبل فقط، ونشعلها فوق الجبل باستمرار.

فظهر على الفور التوبيخ والشجار، ونهض بعض الأولاد واقفين وصاحوا، وصاح «رالف» ردًا عليهم.

- لأنكم إذا كنتم تريدون إشعال نيران لكي تطهوا عليها أسماكًا أو سراطين يمكنكم الصعود في ابتهاج إلى الجبل. ومن المؤكد أننا سنتفق على هذا الأسلوب.

وكانت الأيدي تمتد للحصول على المحارة تحت ضوء الشهب الهابطة وراء الأفق، ولكنّه استمر ممسكًا، بالمحارة، وقفز فوق جذع الشجرة.

- كل هذه النقاط أردت تناولها، ولقد قبلتها الآن، وأنتم قد انتخبتموني ربما، وعليكم الالتزام الآن بتنفيذ ما أقوله لكم.

فسرى الهدوء بينهم تدريجيًا، وجلسوا أخيرًا مرة أخرى. وهدأ «رالف» وتحدث بصوته العادي:

- لذلك تذكروا دائمًا استخدام منطقة الصخور كمرحاض، وإشعال النيران باستمرار حتى ينطلق الدخان كإشارة تدلّ على وجودنا هنا، ولا تأخذوا النيران من الجبل، وخذوا طعامكم إلى هناك فوق الجبل.

ووقف «جاك» مغطيًا وجهه في هذا المكان المعتم ورفع يديه قائلًا.

- أنا لم أنته من كلامي.

- ولكنك قد تحدّثت وتحدّثت طويلًا!

- أنا مازلت ممسكًا بالمحارة.

فاضطر «جاك» إلى الجلوس مزمجرًا.

- وآخر موضوع أتطرق إليه هو الموضوع الذي يمكن ان يتناوله الناس.

وانتظر إلى أن أصبح الرصيف صامتًا تمامًا.

- إن الأمور آخذة في التدهور، ولست أدرى السبب في ذلك، فلقد بدأنا بداية طيبة، وكنا سعداء، ولكن بعدئذ..

وحرك المحارة في رفق وهو ينظر إلى الظلام الممتد وراءهم متذكرًا الوحش والثعبان والنيران والحديث عن الخوف.

- وبعدئذ بدأ الأولاد يشعرون بالخوف.

فتصاعدت موجات من التمتمة التي تصل إلى حد الأنين والنواح ثم تلاشت. وكان «جاك» قد توقف عن الانضواء بالهم والقلق. واستطرد «رالف» فجأة:

- ولكن ذلك الكلام الذي يردده الأولاد الصغار.. سوف ندخل في هذا الموضوع بصراحة وبدون مواربة؛ ولذلك فإن النقطة الأخيرة - وهي الموضوع الذي يشغل بالنا جميعًا - تتعلق بالقضاء على الخوف.

وكان الشعر آخذًا في الزحف على عينيه مرة أخرى.

- لذلك ينبغي لنا أن نتناول موضوع الخوف، وأقول لكم إن هذا الخوف يرتكز على أسس واهية، أنا شخصيًا أشعر بالخوف أحيانًا، ولكن هذا كله هراء وحماقة تافهة! مثل الغول والبعبع، وإذا كان الخوف من الخيالات الكاذبة فإنّه ينبغي أن نبدأ صفحة جديدة ونركز على الأمور الهامة، مثل إشعال النيران.

ورفرفت في داخل ذهنه صورة لثلاثة أولاد كانوا يسيرون على «البلاج» المشرق. فأضاف:

- ونشعر بالسعادة..

وبطريقة رسمية وشعارية وضع «رالف» المحارة على جذع الشجرة بجواره - كدليل على أن كلامه قد انتهى. وكان أي ضوء للشمس يصل إليهم في تلك الآونة يتخذ شكلًا مستويًا مسطحًا.

ووقف «جاك» وأمسك بالمحارة:

- إذا كان هذا الاجتماع من أجل الكشف عن بواطن الأمور فأنا سأتحدث إليكم بكل صراحة: أنتم أيها الأطفال الصغار الذين بدأتم في التحدّث عن كل هذا وقلتم كلامًا يتعلق بالخوف، والوحش! من أين تجيء الوحوش؟ بالطبع نحن نشعر بالخوف في بعض الأحيان، ولكننا نتحمل هذه المخاوف ونصبر عليها، ولكن «رالف» يقول: إنكم تصرخون في الليل، وهذا معناه أنكم تتعرضون للكابوس لا أكثر ولا أقل، وعلى كل حال فأنتم لا تقومون بالصيد أو البناء أو المساعدة في أي شيء، فأنتم بمثابة مجموعة من الأطفال الرضع المنخرطين في البكاء دائمًا، أمّا بالنسبة للخوف الذي يجتاحكم فإنّه ينبغي أن تتحملوه وتصبروا عليه مثل باقي الأولاد الآخرين.

ونظر «رالف» إلى «جاك» فاغرًا فاه، ولكن «جاك» لم يلحظ ذلك.

- والمسألة هي أن الخوف لن يؤذيكم على نحو يفوق الأذى الناجم عن الأحلام، إذ لا توجد وحوش مخيفة على هذه الجزيرة.

ونظر إلى صف الأطفال المتهامسين:

- وأنتم أيها الأطفال الصغار إذا وقعتم فريسة لأي وحش فأنتم تستحقون ذلك؛ لأنكم أطفال عديمو الفائدة، ودائمو البكاء، ولكن لا يوجد في هذه الجزيرة أية حيوانات..

فقاطعه «رالف» في مشاكسة:

- ما هذا كله؟ ومن الذي قال أي كلام عن وجود حيوان؟

- أنت قلت هذا الكلام منذ أيام قليلة، وقلت إنهم يحلمون ويبكون بصوت مرتفع، والآن فهم يتحدثون عن هذا الموضوع، بل ويتحدث الكبار أيضًا عن ذلك، ولكن الصيادين التابعين لي يتحدثون أحيانًا عن شيء ما.. شيء أسود قاتم.. عن وحش.. عن نوع ما من الحيوان، ولقد سمعت ذلك القول، وأنت تعتقد أنك لم تسمع عن ذلك، ألم تسمع عن ذلك؟ والآن استمعوا إليّ: لا توجد حيوانات كبيرة تعيش في الجزر الصغيرة.. لا يوجد سوى الخنازير، أمّا الأسود والنمور فتوجد في البلاد الكبيرة الشاسعة مثل إفريقيا والهند، وفى حديقة الحيوان.

- إنني ممسك بالمحارة.. وأنا لا أتحدث عن الخوف، وإنما أتحدث عن الوحش. يمكنكم أن تشعروا بالخوف كما يحلو لكم.. أمّا بالنسبة للوحش..

وتوقف «جاك» عن الكلام محتضنًا المحارة، والتفت إلى الصيادين التابعين له، المرتدين الطاقيات القذرة السوداء اللون.

- أأنا صياد أم لا؟

فأومئوا برء وسهم بكل بساطة، فقد كان صيادًا حقًّا.. ولم يشك أحد في ذلك.

- -حسنًا لقد تجولت في جميع أرجاء هذه الجزيرة، وبمفردي، فلو كان هناك وحش لكنت قد شاهدته، إنكم تشعرون بالخوف لأنكم تحبون ذلك.. ولكن الغابة لا توجد بها أية وحوش.

ثم أعاد «جاك» المحارة إلى «رالف» وجلس، وصفق له جميع الحاضرين في ارتياح.. ثم رفع «بيجي» يده.

- لا أوافق على كل ما قاله «جاك» وإنما أوافق على بعض النقاط فقط، بالطبع لا يوجد وحش في الغابة.. فكيف يمكن أن يكون هناك وحش بالغابة؟ وما هي الأشياء الموجودة في الغابة، والتي يمكن أن يأكلها الوحش؟

- يمكنه أن يأكل الخنازير.

- نحن الذين نأكل الخنازير.

- يا بيجي!

فقال «بيجي» في استياء:

- إنني ممسك بالمحارة.

واستطرد:

- يا «رالف».. ينبغي أن يكفوا عن الكلام ويخرسوا. أليس كذلك؟ اخرسوا أيها الأطفال الصغار! إن ما أقصد إليه هو أنني لا أوافق على هذا الخوف الموجود هنا. بالطبع لا يوجد شيء في الغابة مخيف، فأنا بنفسي قد ذهبت إلى الغابة ولم أشاهد شيئًا، وأنتم بعد ذلك قد تتحدثون عن

الأشباح وأشياء من هذا القبيل، ونحن نعرف ما يحدث في هذه الجزيرة، وإذا ظهر هناك خطأ فإنّه يتصدى شخص ما ويصحح الأمور.

وخلع نظارته وبدأ يرمش وهو ينظر إليهم، وكانت الشمس قد ولت، وكأنما قام شخص ما بإطفاء الأنوار.

واستطرد شارحًا وجهة نظره:

- إذا حدثت لكم آلام في البطن - سواء أكان البطن صغيرًا أم كبيرًا..

- إن بطنك كبير.

- من المؤكد أن اللجوء للضحك يعطل الاجتماع ويعرقله، وإذا صعد الأطفال الصغار مرة أخرى كتلة الخشب اللولبية فإنهم سيقعون على الأرض مرة ثانية؛ لذلك ينبغي لهم الجلوس على الأرض والإصغاء.. لا، وأنتم لديكم العلاج لكل شيء، بل العلاج لما يدور في داخل عقولكم. وأنتم لا تهدفون حقًا إلى أن نشعر بالخوف طوال الوقت من شيء لا وجود له؛ فالحياة. واستطرد «بيجي» يقول في شيء من التوسع:

- فالحياة لها الطابع العلمي الآن، وهذه حقيقة واقعة، ففي خلال عام أو عامين عندما تنتهي الحرب سيسافر الناس إلى كوكب المريخ ويعودون منه في رحلات مستمرة، وأنا أدرك جيدًا أنه لا توجد أية وحوش.. لا توجد وحوش لها مخالب وأشياء من هذا القبيل.. كما أدرك أيضًا أنه لا توجد أية مخاوف.

وتوقف «بيجي» عن الكلام.

- إلا إذا.

فتحرك» رالف في قلق:

- باستثناء ماذا؟

- إلا إذا كنا نخاف من الناس.

فتصاعدت أصوات تجمع ما بين الضحك والسخرية بين الأولاد، فأحنى «بيجي» رأسه، واستطرد على وجه السرعة:

- لذلك هيا بنا نستمع إلى ذلك الطفل الصغير الذي سبق أن تحدث عن وجود وحش، وربما يكون بمقدورنا أن نوضح له كيف أنه ساذج وأبله..

وهنا بدأ الأطفال الصغار يثرثرون بكلام غير واضح فيما بينهم.. وبعدئذ تقدم أحدهم للأمام..

- ما اسمك؟

- فيل.

وبرغم أنه كان طفلًا صغيرًا فإنّه كان يتميز بالثقة في نفسه وهو يمد يديه ويحتضن المحارة مثلما يفعل «رالف»، وينظر فيما حوله وإليهم ليجذب انتباههم قبل التحدّث إليهم..

- في الليلة الماضية رأيت حلمًا.. حلمًا مخيفًا، حيث كنت أقاتل وأتصارع مع بعض الأشياء، وكنت موجودًا خارج الكوخ بمفردي وأتصارع مع الأشياء.. مع تلك الأشياء الملتوية التي توجد على الأشجار..

وتوقف عن الكلام وضحك الأطفال الصغار الآخرون في تعاطف مملوء بالخوف.

- وبعدئذ تملكني الرعب ثم استيقظت، وبعدئذ خرجت من الكوخ بمفردي إلى لظلام، واكتشفت أن الأشياء الملتوية قد انصرفت.

وهبط الصمت المطبق عليهم جميعًا بسبب الرعب الشديد الذي يكتنف هذا المشهد؛ لأنّه مشهد محتمل الحدوث للغاية ومثير للخوف العميق، واستمر صوت الطفل الصغير في نغمة حادة رفيعة منطلقة خلف المحارة البيضاء:

- وتملكني الرعب، وبدأت أنادي «رالف»، وبعدئذ شاهدت شيئًا ما يتحرك بين الأشجار، وكان شيئًا ضخمًا ومريعًا.

وتوقف عن الكلام بعد أن تملكه شيء من الرعب وهو يستعيد ما حدث، إلا أنه كان فخورًا بالأحاسيس التي كان يخلقها.

فقال «رالف»:

- لقد كان ذلك كابوسًا، فقد كان يسير أثناء نومه.

وتمتم الحاضرون موافقين في نوع من القهر، وهز الطفل الصغير رأسه في عناد.

- لقد كنت نائمًا عندما كانت الأشياء الملتوية تقاتل، وعندما ذهبت واختفت كنت مستيقظًا.. وأثناء يقظتي شاهدت شيئًا ضخمًا ومريعًا يتحرك بين الأشجار..

ورفع «رالف» يديه طلبًا للمحارة، فجلس الطفل الصغير:

- لقد كنت أنت نائمًا ولم يكن يوجد هنالك أي شخص، فكيف يستطيع أي شخص أن يتجول في الغابة ليلًا؟ أكان هناك أحد يتجول ليلًا؟ هل خرج أي شخص أثناء الليل؟

وكانت هناك فترة صمت طويلة، في حين ابتسم الحاضرون عندما تخيلوا خروج شخص ما في الظلام.. وبعدئذ وقف «سيمون» فنظر إليه «رالف» في دهشة.

- أنت؟! ولأي شيء كنت تتجول في الظلام؟

فأمسك «سيمون» بالمحارة بشيء من التشنج.

- لقد كنت أريد الذهاب إلى مكان ما.. مكان أعرفه.

- وما هو ذلك المكان؟

- مجرد مكان أعرفه.. وهو مكان موجود في الغابة.

وأصابه التردد.

وحسم «جاك» المسألة بالنسبة لذلك الازدراء الذي ظهر في صوته متخذًا طابع الفكاهة الشديدة والحسم القاطع.

- لقد كان يرغب في التبرز.

وشعر «رالف» بالخزي نيابة عن «سيمون» وأخذ من «سيمون» المحارة وهو ينظر إليه في قسوة صارمة.

- حسنًا لا تعد إلى هذا الفعل مرة أخرى.. أتفهمني؟ ليس بالليل، فهناك قدر كبير من الكلام السخيف عن الوحوش بدون أن يراك الأطفال الصغار وأنت تتسل مثل..

وتصاعد ضحك ساخر مزوج بالخوف والإدانة.. وفتح «سيمون» فمه لكي يتكلم، ولكن «رالف» كان ممسكًا بالمحارة؛ ولذلك رجع عائدًا إلى مقعده. وعندما خيم الصمت مرة أخرى على الاجتماع التفت «رالف» نحو «بيجي».

- حسنًا.. «بيجي»؟

- كان هناك شخص آخر.

ودفع الأطفال الصغار «بارسيفال» للأمام ثم تركوه بمفرده، فوقف غاطسًا في العشب الموجود في الوسط إلى ركبتيه، وراح ينظر إلى قدميه المختفيتين تحت العشب، محاولًا التظاهر بأنه موجود في خيمة. وتذكر «رالف» ولدًا صغيرًا آخر كان قد وقف بنفس هذه الطريقة، وجفل هاربًا من الذكرى، وكان قد دفع بالفكرة بحيث تكون بمنأى عنه، وبحيث لا يخرجها إلى السطح سوى مذكر إيجابي مثلًا هذا. ولم تتم إحصاءات أخرى للأطفال الصغار؛ لأنّه لم تكن هناك وسيلة تضمن الاهتمام بهم جميعًا، ولأن «رالف» كان يعرف الإجابة عن سؤال واحد على الأقل كان قد وجهه «بيجي» فوق الجبل. لقد كان هناك أطفال صغار شقر ووجوههم مكفهرة ومملوءة بالنمش، وكلهم أقذار، إلا أنّ وجوههم جميعًا كانت خالية من التشوهات الكبيرة، ولم يكن أحد قد شاهد الولد الصغير الذي توجد في بشرته علامة في لون ثمرة التوت، وأومًا «رالف» لـ «بيجي» وهو يعترف في صمت أنه يتذكر ما لا يصح ذكره:

- تقدم، واسأله.

وركع «بيجي» ممسكًا بالمحارة.

- والآن، قل لنا، ما اسمك؟

وتلوى الولد الصغير في داخل خيمته.. فاستدار «بيجي» في يأس نحو «رالف».. فتساءل «رالف» في حدة:

- ما اسمك؟

وتضايق المجتمعون من الصمت والرفض فانفجروا ينشدون أغنية:

ما اسمك؟ ما اسمك؟ ما اسمك؟

- الزموا الهدوء.!

وحملق «رالف» في الطفل تحت ضوء الشفق الأحمر:

- والآن، قل لنا ما اسمك؟

- اسمي بارسيفال ويمز ماديسون. الفيكارج، شارع هاركوت، أنتوني، هانتي، تليفون.

وبكى الطفل الصغير كما لو أنّ هذه المعلومات كانت ممتدة الجذور لمسافات بعيدة كما لو أنّ هذه المعلومات كانت ممتدة الجذور لمسافات بعيدة في ينابيع الحزن والأسى. وتغضن وجهه وقفزت الدموع من عينيه، وانفتح فمه تدريجيًا إلى أن أصبح بمقدورهم مشاهدة فتحة سوداء مربعة الشكل تقريبًا.

وكان في بادئ الأمر بمثابة تمثال صامت من الأسى والحزن، ولكن بعدئذ تصاعد العويل والبكاء من جوفه عاليًا ومتواصلًا مثل المحارة.

- اخرس أيها الولد! اخرس!

ولم يتوقف بارسيفال ويمز ماديسون عن البكاء، فقد تفجر ينبوع بعيد تمامًا عن متناول السلطات، بل وبعيد عن التخويف المادي الجسماني، وتواصل الصراخ نفسًا وراء نفس وبدا الأمر وكأن البكاء يسانده ويثبت أقدامه، وكأنما هو قد أصبح مستمرًا في البكاء

- اخرس! اخرس!

ولم يعد الأولاد الصغار ملتزمين بالصمت بعد أن تذكروا آلامهم وأحزانهم الشخصية، وربما وجدوا أنفسهم يشاركون في حزن له طابع العموميّة والشمول، فبدءوا يبكون في تعاطف، وكان اثنان منهما يبكيان بنفس الحدة التي يبكي بها «بارسيفال».

وأنقذهم «موريس» ما هم فيه، إذ صاح في وجوههم:

- انظروا إلى...؟

وتظاهر بأنه يتعرض للسقوط والوقع على الأرض. ودعك ردفه وجلس على القرمة اللبلابة، بحيث وقع على العشب، ومثل دور المهرج بشكل غير متقن، ولكن «بارسيفال» والآخرين أخذوا يرقبونه، وبدءوا يشنون ويضحكون، وسرعان ما انخرط جميع الأطفال الصغار في ضحك هستيري، مما جعل الأولاد الكبار يشتركون معهم في الضحك.

وكان «جاك» هو أول من تمكّن من توصيل صوته للآخرين، ولم يكن قد حصل على المحارة، وبذلك فقد تكلّم بدون مراعاة للقواعد والقوانين، ولكن أحدًا لم يهتم بخروجه على القانون.

- ما هي حكاية ذلك الوحش؟

وكان هناك شيء غريب يعتمل في أعماق «بارسيفال» فتثاءب وترنح، مما جعل «جاك» يمسك به ويهزه:

- أين يعيش الوحش؟

وارتخى «بارسيفال» متدليًا من قبضة «جاك».

وقال «بيجي» ساخرًا:

- من الموكد كان ذلك الوحش ماهرًا وذكيًا؛ لأنّه قد تمكّن من التخفي في الجزيرة.

- لقد تجول «جاك» في كل مكان بالجزيرة.

- أين يمكن أن يعيش الوحش؟،

وتمتم «بارسيفال» ببضع كلمات، فضج الإجتماع بالضحك مرة أخرى. وانحنى «رالف» للأمام.

- ماذا يقول؟

وأنصت «جاك» لإجابة «بارسيفال» اثم أطلق سراحه وتحرر «بارسيفال» من قبضة «جاك» وأحاط به الآدميون، فشعر بوجودهم المريح حوله. ثم سقط فوق العشب الطويل وذهب للنوم.

وسلك «جاك» صوته، ثم قال بطريقة عرضية وفى غير اكتراث:

- إنّه يقول إن الوحش يخرج من البحر.

وتلاشت الضحكة الأخيرة والتفت «رالف» لا إراديًا. شبح أسود له سنام في مواجهة «اللاجون». ونظر الأولاد بدورهم وأمعنوا النظر في الامتداد الشاسع للمياه، ونحو البحر العالي وراءها، سمعوا في صمتٍ الحفيف والهمس المترامي من الشعاب المرجانية.

وتكلم «موريس» بصوت مرتفع للغاية، حتى إنهم جفلوا جميعًا وقفزوا في أماكنهم:

- لقد قال والدي: إنّه لم يتم بعد اكتشاف ومعرفة جميع الحيوانات الموجودة في البحر.

وبدأت المناقشات مرة أخرى. وقدم «رالف» المحارة اللامعة، فأمسك بها «موريس» في طاعة وامتثال، وهدأ الاجتماع وساده الصمت:

- أقصد أنه عندما يقول «جاك»: إنّه يمكنكم أن تخافوا لأن الناس يشعرون بالخوف على أية حال، وبأي شكل من الأشكال، فإن كلامه هذا سليم ولا غبار عليه، ولكنّه عندما يقول إنّه لا يوجد بالجزيرة سوى الخنازير فقط، فإنني أعتقد أنه من المحتمل أن يكون كلامه صحيحًا، وهو قد يكون غير متأكد تمامًا عما يقول..

وأخذ «موريس» نفسًا عميقًا واستطرد:

- فوالدي يقول إن هناك أشياء مثل تلك التي تفرز الحبر، وهي التي يسموها، وتسمونها الصبار أو «السبيدج» وهي حيوانات بحرية يبلغ طولها مئات الياردات، وتأكل الحيتان.

وتوقف عن الكلام مرة أخرى، وضحك في ابتهاج واستطرد:

- وأنا بالطبع لا أومن بوجود وحش.. وكما يقول «بيجي» فإن الحياة أصبح لها الطابع العلمي، ولكننا لا ندرك ذلك، أليس كذلك؟ ليس بالتأكيد، أقصد..

وصاح شخص ما:

- ولكن حيوان «السبيدج» لا يستطيع الخروج من الماء،

- يستطيع!

- لا يستطيع!

وفى لحظات أصبح الرصيف يموج بالجدل والمناقشات وبالظلال الناجمة عن التلويح بالأيدي، وكان «رالف» جالسًا، فبدا له هذا المنظر كأنه بداية لتصدع الاتزان وتدهور العقل السليم، إذ ساد الخوف والكلام عن الوحوش، بالإضافة إلى عدم وجود اتفاق عام على أن اشتعال النيران هو أهم الأمور على الإطلاق، فعندما حاول أحدهم النظر في هذا الأمر على حقيقته تفاديًا لسوء الفهم انحرفت المناقشة، ونجمت عنها مسألة أخرى جديدة غير سارة.

واستطلع «رالف» مشاهدة لون أبيض في العتمة القريبة منه، فانتزعها في عنف من يد «موريس» وراح ينفخ فيها بكل قوته. فخيم الصمت المطبق على الاجتماع، وكان «سيمون» قريبًا من «رالف» وكان يضع يده على المحارة وأحس «سيمون» برغبة ملحة محفوفة بالمخاطر في التكلم، غير أن التحدّث في أي اتجاه اجتماعي كان أمرًا مخيفًا بالنسبة له.

فقال في تردد:

- ربما.. ربما يكون هناك وحش.

فصاح المجتمعون في همجية وفوضى، فوقف «رالف» وقد اعترته الدهشة:

- أنت يا «سيمون»؟ أتعتقد في هذا؟

فقال «سيمون»:

- لا أدري..

وكانت ضربات قلبه تدق بعنف.. واستطرد:

- ولكن..

هبت العاصفة:

- اجلس!

- اخرس!

- خذ المحارة!

- أنت منحرف.

- اخرس!

فصاح «رالف»:

- استمعوا له، فالمحارة معه!

- إنني أعنى بكلامي أن الوحش قد يكون مجرد فرد منا.

- إنسان مخبول!

وكان ذلك من «بيجي» الذي صدم بسبب اللباقة والذوق.. واستمر «سيمون» قائلًا:

- فنحن يمكن أن نكون نوعًا من..

وأصبحت مخارج الألفاظ لدى «سيمون» غير واضحة أثناء بذل الجهد للتعبير عن المرض الرئيسي للجنس البشري.

وجاءه الإلهام:

- ما هو أقذر شئ موجود؟

وكإجابة ألقى «جاك» في السكون غير الشامل الذي أعقب التساؤل الجاف المعبر، وكان عدم الالتزام هائلًا، فأولئك الأطفال الصغار الذين كانوا قد صعدوا إلى القرمة الخشبية اللبلابة سقطوا عنها مرة أخرى دون أي اكتراث، وكان الصيادون يصرخون في ابتهاج.

وسقطت جهود «سيمون» حوله في إحكام، وطعنته الضحكات في قسوة، فارتد إلى مقعده بدون حماية.

وأخيرًا ساد الصمت الاجتماع مرة أخرى، وتكلم شخص ما بدون الالتزام بالترتيب الصحيح:

- ربما هو يقصد أن الشيء الذي شاهده هو نوع من الأشباح.

فرفع «رالف» المحارة وحملق في الظلام.. وكان «البلاج» الشاحب هو أقل الأماكن ظلمة، ومن المؤكد أن الأطفال الصغار كانوا أكثر قربًا. نعم.. لم يكن هناك شك في ذلك، إذ كانوا محتشدين في عقدة ضيقة من الأجسام موجودة في وسط العشب، وهبت ريح خفيفة، مما جعل أشجار النخيل بدت وكأنها تتكلم، وبدت الضجة عالية للغاية؛ لأن الظلام والصمت جعلاها واضحة للغاية.

وكان جذعان رماديان يحتك أحدهما بالآخر ويحدثان صريرًا حادًا، وهو صوت لم يسبق لهم أن لاحظوه من قبل بالنهار.

وأخذ «بيجي» المحارة من يدي «رالف»، وكان صوته مملوءًا بالسخط:

- وأنا لا أومن بوجود الأشباح على الإطلاق.

ووقف «جاك» على قدميه هو الآخر، وكان غاضبًا غضبًا لا يمكن تفسيره أو تعليله.

- ومن الذي يهتم بما تعتقده يا «فاتي»؟!

- المحارة معي.

وكان هناك صوت تصارع ومشادة خفيفة، حيث كانت المحارة تتحرك جيئة وذهابًا.

- أعد إليّ المحارة!

فاندفع «رالف» بينهما وحصل على ضربة مكتومة فوق صدره، وتصارع إلى أن انتزع المحارة من شخص ما، ثم جلس لاهثًا.

- هناك كلام كثير للغاية عن الأشباح، وينبغي أن نؤجل الكلام عن الأشباح لحين ظهور ضوء النهار.

فقال شخص ما بصوت هادن:

- ربما كان هذا الوحش مجرد شبح؟

واهتز الاجتماع كما لو كان قد هزته رياح.

وقال «رالف»:

- هناك أشخاص كثيرون يتكلمون بدون الالتزام بالترتيب الصحيح، حيث لا يلتزمون بالدور في التحدّث.. ولا يمكننا أن نعتقد اجتماعات سليمة إذا لم يلتزم كل شخص بالقواعد والقوانين.

ثم توقف عن الكلام مرة أخرى، لقد انهارت الخُطة الدقيقة التي وضعها لهذا الاجتماع.

ماذا تريدون منى أن أقول لكم؟ لقد وقعت في الخطأ بالدعوة لهذا الاجتماع في وقت متأخر للغاية، ولسوف ندلى بأصواتنا بشأن الأشباح ثم نذهب بعدئذ إلى الأكواخ؛ لأننا جميعًا نشعر بالتعب والإرهاق. لا يا «جاك» انتظر قليلًا، إنني سأقول هنا، والآن إنني لا أؤمن بوجود الأشباح، أو لا أعتقد أنني أومن بالأشباح، ولكني لا أحب التفكير في الأشباح أو الاهتمام بها، وخاصّة في هذا الظلام، لقد كنا بصدد الإدلاء بأصواتنا بشأن الأشباح.

ورفع المحارة للحظات.

- حسنًا إذن، أعتقد الآن أن التساؤل سيدور عما إذا كانت هناك أشباح أم لا.

وفكر للحظات في وضع صيغة السؤال:

- من منكم يعتقد بأنه قد توجد هناك أشباح؟

فساد الصمت لفترة طويلة، ولم تظهر أية حركات واضحة، وبعدئذ حدق «رالف» في الظلمة، وتبين الأيدي، ثم تكلّم في صراحة:

- أنا أدرك جوانب الموقف.

فالعالم، ذلك العالم المطيع للقوانين الواضح الذي يمكن المرء أن يفهمه كان ينزلق بعيدًا، في يوم ما كان هناك هذا وذاك، والآن والسفينة قد ذهبت..

وانُتُزِعَت المحارة من يديه ودوى صوت «بيجي» حادًا وثابتًا.

- ولا تنسوا أنتم جميعًا ذلك..

وسمعوه وهو يدق بقدميه بقوّة على الأرض:

- ما نحن؟ آدميون؟ أو حيوانات؟ أو همجيون؟ ما هي أفكار الأولاد الكبار بيننا؟ أهي مجرد الانطلاق، وصيد الخنازير، وترك النيران حتى تخمد، والآن!

- اخرس أيها الولد الكسلان السمين!

وكانت هناك لحظات من المقاومة وتراقصت المحارة اللامعة لأعلى ولأسفل.. فقفز «رالف» واقفًا على قدميه:

- يا «جاك»! جاك! أنت لم تحصل على المحارة.. دعه يتكلم!

وسمع «جاك» بالقرب منه:

- واخرس أنت أيضًا.. فمن تكون أنت؟ مجرد إنسان جالس هناك يخبر الناس بما ينبغي أن يفعلوه، بل إنك لا تستطيع القيام بأعمال الصيد ولا الغناء.

- أنا الرئيس. لقد تم اختياري رئيسًا.

- لا ينبغي أن يترتب على هذا الاختيار أية خوارق أو تمييزات؟ فأنت لا تفعل سوى إعطاء الأوامر التي ليس لها أي معنى..

وحصل «بيجي» على المحارة:

- وهو كذلك.. أنت تجامل «بيجي» كما تفعل دائمًا.

- وجاك!

فقال «جاك» في مُحاكاة ساخرة مرة:

- «جاك»! «جاك»!

فصرخ «رالف» الزم القواعد! أنت تكسر القواعد والقوانين.

- ومن يهتم بذلك؟

واستخدم «رالف» ذكاءه:

- لأن القوانين والقواعد هي الشيء الوحيد الذي نملكه!

غير أن «جاك» استمر في الصياح والانفجار ضده:

- فلتسقط القوانين! نحن أقوياء! نحن نقوم بأعمال الصيد! فإذا كان هناك وحش فسنقوم باصطياده على الفور! سنطبق عليه ونشبعه ضربًا وضربًا وضربًا.

وهتف في وحشية وقفز هابطًا فوق الرمل الشاحب.

وعلى الفور ضج الرصيف بالضوضاء والإثارة والتدافع في ذعر وعلت الصرخات والضحكات، وتمزق الاجتماع وأصبح الكلام ينتقل من موضوع لآخر، وتبعثر الناس عشوائيًا ما بين أشجار النخيل والمياه، بل على طول الساحل بعيدًا عن مقدرة الإبصار ليلًا، وأدرك «رالف» أن خده يلامس المحارة، فأخذها من «بيجي».

وصاح «بيجي» مرة أخرى:

- ماذا سيقوم الأولاد الكبار؟ انظر ليهم!

وكان صوت محاكاة الصيد والضحك الهستيري والرعب الحقيقي يجئ من ناحية «البلاج».

- انفخ في المحارة يا «رالف».

وكان «بيجي» قريبًا للغاية، حتى إن «رالف» استطاع مشاهدة وميض عدسة نظارته.

- هنالك توجد النيران.. ألا يبصرون؟

- ينبغي أن تكون قاسيًا وعنيفًا الآن. أرغمهم على تنفيذ ما تريد. فقال «رالف» بصوت يشبه صوت رجل حذر يكرر نظرية:

- إذا قمت بالنفخ في المحارة ولم يعودوا فلن نتمكن من الإبقاء عل النيران مشتعلة، ونصبح مثل الحيوانات، ولن تنقذ حياتنا على الإطلاق.

- ولكنك إذا لم تنفخ في المحارة فإننا سرعان ما سنصبح حيوانات على كل حال، إنني لا أشاهد ما يفعلونه، ولكني أستطيع سماعهم.

وكانت المجموعات المتفرقة قد تقاربت مع بعضهما البعض فوق الرمال، وأصبحت كتلة سوداء كثيفة تدور حول محور، وكانوا ينشدون أغنية ما، وكان الأولاد الصغار قد تشبعوا فراحوا يترنحون بعيدًا ويعوون.. ورفع «رالف» المحارة إلى شفتيه ثم أنزلها:

- المشكلة يا «بيجي» هي: هل توجد أشباح أو وحوش؟

- بالطبع لا توجد أشباح ولا وحوش.

- ولم لا؟

- لأن الأشياء لن يكون لها معنى، فالمنازل والشوارع والتليفزيون كل هذه الأشياء سيتعذر استخدامها.

وكان الأولاد المنخرطون في الرقص والغناء قد أرهقوا أنفسهم للغاية إلى أن أصبحت الأصوات الناجمة عنهم مجرد إيقاع خالٍ من الكلمات.

- ولكن لنفترض أن الأشياء لن يكون لها معنى، أليس هنا على هذه الجزيرة؟ ونفترض أنّ هناك كائنات تنظر إلينا وهي في حال من الترقب والانتظار..

وارتعد «رالف» في عنف وتحرك مقتربًا من «بيجي» إلى أن ارتطما معًا في رعب..

- لا تتكلم هذا الكلام! فنحن لدينا من المتاعب ما فيه الكفاية يا «رالف»، وأنا لدي من المتاعب ما ينوء به كاهلي.. فإذا كانت هناك أشباح..

- كان ينبغي عليّ التخلي عن منصب الرئاسة..

- يا إلهي! أوه! لا.

وتشبث «بيجي» بذراع «رالف»:

- لو أصبح «جاك» رئيسًا فإنّه سيركز اهتمامه على الصيد ويهمل النيران تمامًا، مما سيؤدى إلى بقائنا هنا إلى أن نموت.

وارتفع صوته إلى أن أصبح حادًا ورفيعًا كالصرير:

- من ذا الذي يجلس هنالك؟

- إنّه أنا.. «سيمون».

فقال «رالف»:

- نحن مجموعة من الأولاد الطيبين، نحن بمثابة ثلاثة فئران مصابة بالعمى. سأتخلى عن الرئاسة.

فقال «بيجي» في همس مملوء بالرعب:

- ماذا سيحدث لي لو أنك تخيلت عن الزعامة؟

- لا شيء.

- إنّه يكرهني، ولست أدرى السبب في ذلك.. إذا كان باستطاعته أن يفعل ما يريد ستكون أنت على ما يرام، فهو يحترمك، وبالإضافة إلى ذلك يُمكنك أن تضربه.

- لقد دخلت أنت معه في شجار منذ لحظات.

فقال «بيجي» في بساطة:

- لقد كانت المحارة معي، وكان لي الحق في التكلم.

وتحرك «سيمون» في الظلام:

- استمر يا «رالف» في تولى مهمّة الرئاسة.

- اخرس أنت يا «سيمون» يا صغير! لماذا لم تقل إنّه لم يكن هناك أي وحش؟

وقال «بيجي» أنا خائف منه، وهذا هو السبب في أنني أعرفه جيدًا. فأنت إذا كنت خائفًا من شخص ما فأنت تكرهه، ولكنك لا يُمكنك أن تتوقف عن التفكير فيه، فأنت تخدع نفسك وتقول لنفسك إنّه إنسان على ما يرام، وبعدئذ عندما تشاهده مرة أخرى تشعر كأنك مصاب بالربو وغير قادر على التنفس، وأنا أقول لك يا «رالف» إن هذا الشخص يكرهك أيضًا.

- يكرهني أنا؟ ولماذا يكرهني أنا؟

- لست أدرى السبب.. وربما لأنك أظهرت تقصيرًا في موضوع النيران، وقد يكون السبب هو أنك أصبحت رئيسًا وهو ليس برئيس.

- ولكنّه، ولكنّه «جاك» مريديو!

- لقد أمضيت وقتًا طويلًا في الفراش مما أتاح لي فرصة للتفكير، وأنا أعرف الكثير عن طبيعة الناس والكثير عن نفسي وعنه، وهو لا يستطيع الإساءة إليك أو إلحاق الضرر بك، ولكنك إذا أفسحت له الطريق فإنّه سيؤذى أي شخص آخر، بمعنى أنه سيؤذيني أنا.

«بيجي» على حق فيما يقول يا «رالف» فهناك أنت «وجاك» وعليك بالتشبث بالزعامة والاستمرار في لرئاسة.

- نحن جميعًا نسير على غير هدى وننجرف، والفساد آخذ في التفشي في جميع الأمور، ففي الوطن كان هناك دائمًا الشخص الراشد الناضج.. من فضلك يا سيدي.. من فضلك يا آنسة وبعدئذ تحصل على إجابة. كم أتمنى!

- أتمنى لو كانت عمتي هنا.

- أتمنى لو كان والدي.. أوه، وما الفائدة؟

- الإبقاء على النيران مشتعلة..

وانتهى الرقص، وكان الراقصون عائدين إلى الأكواخ. وقال «بيجي»:

- اليافعون الراشدون يعرفون الأمور جيدًا؛ ولذلك فهم لا يخافون من الظلام. فهم قد يتقابلون ويتناولون الشاي ويتناقشون، وبعدئذ تسير الأمور معهم على خير ما يرام.

- ولن يشعلوا الجزيرة بالنيران أو يفقدوا.

- ويعملون على بناء سفينة.

ووقف الأولاد الثلاثة في الظلام يحاولون عبثًا نقل فخامة وعظمة الأشخاص الراشدين إليهم.

- فهم لا يدخلون في مشاجرات ومشاحنات.

- أو لا يكسرون نظارتي.

الفصل السادس

وحش قادم من الهواء

ولم تكن هناك أية أضواء بخلاف أضواء النجوم، وبعد أن عرفوا السبب في صدور هذا الصوت الشبحي وأصبح «بارسيفال» هادئًا مرة أخرى، قام «رالف» و«سيمون» برفعه من على الأرض بطريقة غير سليمة وحملاه إلى كوخ. وتسكع «بيجي» على مقربة منه تأييدًا لكل كلماته الشجاعة، ثم انسحب الأولاد الثلاثة الكبار مع بعضهم البعض إلى الكوخ التالي، واستلقوا في قلق وصخب بين الأوراق الجافة، وراحوا يرقبون رقعة النجوم التي كانت بمثابة فتحة مؤدية إلى «اللاجون». وفى بعض الأحيان كان يصيح طفل صغير من الكوخين الآخرين، وتحدث ولد كبير مرة واحدة في الظلام، وبعدئذ استغرقوا هم أيضًا في النوم.

وارتفع جزء من القمر فوق الأفق ولم يكن كبيرًا على نحو يسمح بإيجاد طريق للضوء، ولكن كانت هناك أضواء أخرى في السماء، وكانت تلك الأضواء تتحرك بسرعة أو تتغامز في وميض أو تنطفئ وتتلاشى، وبرغم أنه لم تترام أية أصوات حتى ولو أصوات خافتة من المعركة التي يخاض غمارها على ارتفاع عشرة أميال، فإن إشارة هبطت من عالم الكبار، برغم أنه في وقت هبوطها لم يكن هناك طفل واحد مستيقظ ليقرأها، إذ كان هناك انفجار ناصع فجائي وذيل لولبي عبر السماء، وبعدئذ ساد الظلام مرة أخرى، وبدت النجوم ثانية، وكانت هناك بقعة ضئيلة للغاية فوق الجزيرة على شكل هيكل بشرى يهبط بسرعة أسفل مظلة «باراشوت». وكان هذا الهيكل متشبثًا بأطراف متدلية. وأخذت الرياح المتغيرة للارتفاعات المختلفة الهيكل إلى حيث تريد، وبعدئذ هدأت الرياح عند ارتفاعات تصل إلى ثلاثة أميال، وحملت الهيكل في منحنى هابط حول السماء، ثم دفعته بقوّة في ميل شديد عبر سلسلة الصخور القريبة من سطح الماء وعبر «اللاجون» نحو الجبل، ثم سقط الهيكل متجعدًا بين الأزهار الزرقاء التي تكسو جانب الجبل، ولكن في تلك اللحظة كان هناك أيضًا نسيم خفيف عند هذا الارتفاع وسقطت المظلة «الباراشوت» في تثاقل، وأحدثت صوتًا عاليًا وجذابًا؛ ولذلك انزلق الهيكل لأعلى نحو ارتفاعات الجبل مجرجرًا وساحبًا قدميه خلفه. وسحب النسيم الهيكل ياردة وراء ياردة عبر الأزهار الزرقاء وفوق الصخور المستديرة والحجارة الحمراء اللون إلى أن استلقى رابضًا بين الصخور المتحطمة المبعثرة عند قمة الجبل، وهنا كان النسيم متقطعًا، وسمح لخيوط المظلة بالتشابك والتزين مثل حبل من الزهور، وجلس الهيكل ووضع رأسه الموضوع عليها خوذة بين ركبتيه، وكانت رأسه ممسوكة بواسطة خيوط معقدة ومتشابكة، وعندما هبت النسائم كانت الخيوط تشد في إحكام، ورفعت إحدى هذه الشدات الفجائية الرأس والصدر في اعتدال، حتى إن الهيكل بدا وكأنه يحدّق النظر عبر حافة الجبل، وبعدئذ كانت الخيوط - في كل مرة تتلاشى فيها الرياح - ترتخي وينحني الهيكل للأمام مرة أخرى وقد غاص برأسه بين ركبتيه، ومثلما كانت النجوم تتحرك عبر السماء كان الهيكل يجلس فوق قمة الجبل وينحني ويغوص وينحني مرة أخرى.

وتحت ظلام الصباح المبكر كانت هناك أصوات عند صخرة تقع على مسافة قصيرة على جانب الجبل، إذ تدحرج ولدان وخرجا من كومة من الأغصان والأوراق الجافة: ظلان قاتمان يتحدث أحدهما مع الآخر بصوت ملئ بالنعاس. لقد كانا الولدين التوءمين، وكانا يؤديان عملهما عند النيران، ومن الناحية النظرية كان ينبغي لأحدهما أن ينام، ويقوم الآخر بالمراقبة والحراسة، غير أنه لم يكن باستطاعتهما مطلقًا تأدية الأمور على الوجه الأكمل، إذ انفصل أحدهما عن الآخر، ونظرًا لأن الاستيقاظ طوال الليل كان أمرًا مستحيلًا فإنهما اضطرا للذهاب للنوم، واقتربا في تلك الآونة من النيران المدخنة المظلمة التي كانت بمثابة نيران الإشارة، وكانا يتثاءبان ويدعكان عينيهما. ويمشيان على الأرض بأقدام مدربة، وعندما وصلا إلى موقع النيران توقفا عن التثاؤب، وجرى أحدهما بسرعة عائدًا لإحضار أخشاب وأوراق شجر.. وانحنى الآخر لأسفل، اعتقد أنها انطفأت تمامًا، فراح يبعث بالأغصان التي دفعت إلى يديه:

- لا.

واستلقى على الأرض ووضع شفتيه بالقرب من النار الدافئة وراح ينفخ في رفق. وظهر وجهه مضاء بالاحمرار، فتوقف عن النفخ للحظات.

- «سام» أعطنا..

- خشبًا سريع الاشعال.

وانحنى «إريك» لأسفل، وراح ينفخ في رفق مرة أخرى إلى أن أصبحت الرقعة وضاءة. ودفع «سام» بقطعة الخشب سريعة الاشتعال في المكان الساخن، ثم وضع غصنًا، فتزايد التوهج، وأمسكت النيران في الغصن، فبدأ «سام» يدفع بالمزيد من الأغصان.

فقال «إريك»:

- لا تحرق كمية كبيرة، فأنت تدفع بكمية كبيرة أكثر من اللازم إلى النيران.

- لكي نشعر بالدفء.

- ولكننا سنضطر للذهاب لإحضار المزيد من الأخشاب.

- أنا أشعر بالبرد.

- وأنا كذلك أشعر بالبرد مثلك.

- وإلى جانب ذلك. فالجو..

- الجو مظلم، حسنًا. إذن.

وجلس «إريك» القرفصاء وراح يرقب «سام» وهو يزيد النيران اشتعالًا، وكوم خيمة صغيرة من الأخشاب الناشفة، وكانت النيران مشتعلة في أمان.

- لقد حدث الانطفاء منذ فترة قصيرة.

- لو شاهد هو ذلك لأصبح غاضبًا.

- اسكت.

وظل التوءمان يرقبان النيران في صمت للحظات قليلة، ثم ضحك «إريك» ضحكات مكبوتة.

- ألم يكن هو غاضبًا؟

- غاضبًا بسبب..

- بسبب النيران والخنزير.

- نحن سعداء الحظ؛ لأنّه انفجر في «جاك» بدلًا منا.

- اسكت. أتذكر «واكي الغاضب» العجوز في المدرسة؟

- أيها الولد.. أنت تدفعني ببطء نحو الجنون!

واستغرق التوءمان في الضحك، وبعدئذ تذكرا الظلام وأشياء أخرى، وحملقا فيما حولهما في قلق، وجذبت ألسنة اللهيب النشطة بالقرب من خيمة الأخشاب أنظارهما مرة أخرى. وأخذ «إريك» يرقب قمل الأخشاب الذي كان ينطلق مسرعًا في هياج شديد بسبب عدم تمكّنه من تفادى ألسنة اللهيب، وراح يفكر في النيران الأولى التي أشعلت في مكان قريب على الجانب المنحدر من الجبل، وهو المكان الذي يسوده آنئذ ظلام دامس، ولم يرغب في تذكرها، ثم نظر بعيدًا نحو قمة الجبل.

وبدأ الدفء يشع ويتسلل إليهما في إمتاع، وبدأ «سام» يسلي نفسه، فراح يقرب الأغصان من النيران بقدر المستطاع، ومد «إريك» ذراعيه بغية معرفة المسافة التي تكون عندها النيران محتملة وغير شديدة، في حين راح ينظر في كسل إلى ما وراء النيران، وبدأ يتبين الصخور المبعثرة من خلال الظلال المسطحة الناجمة عن ظهور خطوط تنير كضوء النهار.. فظهرت هنالك الصخرة الضخمة والأحجار الثلاثة التي شقت الصخر، ووراء ذلك كانت توجد الفجوة.. كل شيء في مكانه هنالك.

- سام.

- اسكت

- لا شيء.

وكانت ألسنة اللهب تقهر الأغصان وتتغلب عليها، وكان لحاء الشجر يتجمد ويتهاوى، وكانت الأخشاب تتفجر وتتطاير شظاياها.. وتهاوت خيمة الأغصان. من الداخل، وقذفت بدائرة هائلة

متسعة من الضوء فوق قمة الجبل.

- سام.

- اسكت؟

- سام! سام!

ونظر «سام» إلى «إريك» في شيء من الغضب والسخط والتوتر فحدة نظرات «إريك» جعلت الاتجاه الذي كان ينظر إليه مريعًا ومخيفًا؛ لأن «سام» كان معطيًا ظهره لذلك الاتجاه، فتدافع مذعورًا حول النيران، وجلس القرفصاء بجوار «إريك» ونظر ليشهد ما يدور هناك، وأصبحا بدون حركة تمامًا.. وأمسك كل منهما بذراعي الآخر: أربع عيون مسددة لا تتغامز، وفمان مفتوحان.

وتحتهما على مسافة بعيدة تنهدت أشجار الغابة، وبعدئذ زأرت، ورفرف الشعر على جبهتيهما، وهبت ألسنة اللهيب في اتجاهات جانبية منبعثة من النيران، وعلى مسافة خمسين ياردة منهما ترامى إليهما الصوت الذي يشبه صوت الغطس في الماء، وهو صوت الأقمشة التي تتفتح مع الامتلاء بالهواء.

ولم يصرخ الولدان، إلا أنّ قبضة أيديهما ازدادت شدّة، ووصل فم كل منهما إلى ذروة الاتساع.. وجثما مدة وهما على هذا الحال، على حين كانت النيران الطاحنة ترسل دخانًا وشررًا وموجات من الضوء المتقلب عبر قمة الجبل.

وبعدئذ تدافعا بالمناكب وهما يهرولان عبر الصخور، وهربا كما لو كان لهما عقل واحد فقط مذعور.

وكان «رالف» يحلم، وكان قد استغرق في النوم عقب التقلب والتمرغ في ضوضاء بين الأوراق الجافة لفترة بدت له كأنها ساعات، ولم تعد أصوات الكابوس المترامية من الكوخين الآخرين تصل إليه؛ لأنّه عاد إلى المكان الذي جاء منه، وراح يطعم الجياد بقطع من السكر يضعها فوق سور الحديقة، وبعدئذ كان هناك شخص ما يهز ذراعه ويخبره بأن الوقت حان لتناول الشاي.

- يا «رالف»..! استيقظ يا «رالف».

وكانت الأوراق تزأر مثل البحر:

- يا «رالف» استيقظ.

- ماذا في الأمر؟ ماذا حدث؟

- لقد شاهدنا.

- الوحش..

- بوضوح!

- من أنتما؟ التوءمان.

- شاهدنا الوحش.

- الهدوء يا «بيجي»!

ومع ذلك الأوراق تزأر. وارتطم «بيجي» به وأمسك به التوءمان عندما اندفع خارجًا..

- لا يمكن أن تذهب، فهو مخيف للغاية!

- يا بيجي.. أين الرماح؟

- يمكنني سماع الـ..

- إذن فلنلتزم بالهدوء.. ونستلق في صمت.

واستلقيا هنالك منصتين في نوع من الشك في بادئ الأمر، وبعدئذ في رعب للوصف الذي يهمس به التوءمان لهما بين فترات الصمت المطبق، وسرعان ما امتلأ الظلام بالمخالب وبالمجهول المخيف والخطر المرعب. وأخيرًا ظهرت تباشير الفجر في الأفق اللا نهائي، مما أدى إلى تلاشى النجوم، وبعدئذ تسلل ضوء حزين رمادي بعد التصفية والترشيح إلى الكوخ، فبدءوا يتحركون برغم أن العالم خارج الكوخ كان لا يزال خطيرًا على نحو لا يطاق، وكانت متاهات الظلام مقسمة إلى ظلام قريب وظلام بعيد، وعند النقطة العليا للسماء كانت قطع السحب الصغيرة المتناثرة مفعمة بدفء اللون، ورفرف طائر يجري وحيدًا بجناحيه متجهًا لأعلى في صرخة خشنة ظهر لها صدى للصوت على الفور، وأطلق شيء ما صوتًا عاليًا حادًا في الغابة، ثم بدأت سلاسل متتابعة من السحب القريبة من الأفق في التوهج بلون وردي، وأصبحت قمم أشجار النخيل المكسوة بالريش خضراء اللون.

وركع «رالف» في مدخل الكوخ وحملق في حذر فيما حوله ونادى:

- يا «سام» يا «سام» اذهبا ووجها الدعوة لهم لحضور اجتماع. اذهبا في هدوء.

فأمسك «سام» و«إريك» أحدهما بالآخر في ارتعاد، وتحديا في شجاعة وجرأة اليارادات القليلة إلى أن وصلا إلى الكوخ التالي، ونشرا الأخبار المخيفة. ووقف «رالف» وسار إلى الرصيف من أجل الوقار وهيبة المنصب، برغم أن ظهره كان مليئًا بالوخز والآلام الشديدة.. وتبعه «بيجي» و«سيمون» وبعدهما جاء باقي الأولاد متسللين في جبن وخوف.

وأخذ «رالف» المحارة من المكان الذي توجد به فوق المقعد اللامع، ورفعها إلى شفتيه، غير أنه تردد ولم يقم بالنفخ، ورفع المحارة لأعلى لكي يروها، ففهموا الموقف.

وبعد أن كانت أشعة الشمس تنبعث من تحت الأفق متجهة لأعلى أصبحت تتجه لأسفل إلى مستوى العين، ونظر «رالف» للحظات إلى شريحة الذهب التي تطل على الوجود والتي ألقت الضوء عليهم من جهة اليمين، والتي بدت وكأنها ستجعل الخطبة أمرًا ممكنًا، وكانت دائرة الأولاد أمامه مزودة برماح الصيد.

وناول المحارة لإريك الذي كان على مقربة منه:

- لقد شاهدنا الوحش شخصيًا بعيوننا.. لا، لم نكن مستغرقين في النوم..

وتولى «سام» مهمّة سرد القصة، وبحكم العادة كانت محارة واحدة تكفي بالنسبة لكل من التوءمين؛ لأن وحدتهما الجوهرية كانت أمرًا يعرفه الجميع.

- كان مكسوًا بالفراء، وكان هناك شيء ما يتحرك خلف رأسه.. وخلف أجنحته، وكان الوحش يتحرك هو الآخر..

- وكان ذلك مرعبًا..

- جلس منتصب القامة على نحو ما..

- وكانت النيران متألقة..

- وكنا قد زودنا النيران بالوقود..

- ووضعنا المزيد من الأغصان عليها..

- وكانت هناك عينان.

- وأسنان..

- ومخالب..

- فانطلقنا نجري بأقصى سرعة..

- وارتطمنا بعنف في الأشياء..

- وسار الوحش وراءنا..

- وشاهدته أنا وهو يتسلل مختفيًا وراء الأشجار..

- وكاد يلحق بي.

وأشار «رالف» في خوف إلى وجه «إريك» الذي كان به كثير من الخدوش والجروح والندبات الناجمة عن تمزيق الشجيرات له.

- كيف تعرضت لكل هذه الجروح؟

وتحسس «إريك» وجهه:

- لقد تعرضت لمتاعب شديدة.. هل الدماء تنزف مني؟

وانكمشت دائرة الأولاد في رعب.. وانفجر «جوني» الذي كان لا يزال يتثاءب باكيًا بصوت مرتفع بدموع غزيرة، فأخذ «بيل» يصفعه إلى أن كبت دموعه. وكان الصباح المشرق مملوءًا بالتهديدات، وبدأت حلقة الأولاد في التغير..

وبدأت الوجوه تتجه إلى خارج الحلقة وليس إلى داخلها..

وأصبحت الحراب المصنوعة من الخشب المشذب المدبب شبيهة بالسور، وناداهم «جاك» للرجوع إلى وسط الحلقة:

- سيكون هذا صيدًا عظيمًا! من الذي سيجيئ؟

وتحرك «رالف» في قلب الحلقة:

- هذه الحراب مصنوعة من الخشب.. لا تكن غبيًا.

فشخر ونخر «جاك» في وجهه:

- بالطبع أشعر بالخوف ومن ذا الذي لا يشعر بالخوف؟

والتفت نحو التوءمين في اهتمام، وإن كان في يأس:

- إنني أفترض أنكم لا تخدعوننا؟

وكانت هذه الإجابة قاطعة بحيث لا يشك فيها أي شخص. وأمسك «بيجي» بالمحارة.

- ألا يمكننا أن نبقى هنا؟ فلربما لا يأتي الوحش ولا يقترب من مكاننا هنا؟

ولم يصرخ «رالف» في وجه «بيجي» كالمعتاد، وذلك بسبب إحساسه بأن هناك شيئًا ما يراقبهم.

- هل نمكث هنا ونتوقع في هذه المساحة الصغيرة من الجزيرة ونبقى مستيقظين وحذرين باستمرار؟ وكيف لنا أن نحصل على طعامنا؟ وماذا سنفعل بالنسبة للنيران؟

فقال «جاك» في قلق:

- هيا بنا نتحرك وننطلق الآن، فنحن نضيع الوقت بالبقاء هنا.

- نحن لا نضيع الوقت.. وماذا سنفعل بالنسبة للأطفال الصغار؟

- دعك من الأولاد الصغار..

- لابد من تخصيص واحد من الأولاد الكبار لرعايتهم والاهتمام بشئونهم.

- لم يسبق أن خصصنا أحدًا لرعاية الأطفال الصغار.

- لأنّه لم تكن هناك حاجة لذلك، والموقف الآن تغير، وسوف يقوم «بيجي» برعايتهم.

- وهو كذلك. نبعد «بيجي» عن المخاطر.

- يجب أن يكون عندكم بعض الإدراك السليم. فماذا سيفعله «بيجي» وهو ليس عنده سوى عين واحدة؟

وكان باقي الأولاد ينتقلون ببصرهم من «جاك» إلى «رالف» في شيء من حب الاستطلاع.

- وهناك شيء آخر.. لن تتمكنوا من القيام بأعمال الصيد المعتاد؛ لأن الوحش لم يترك المسالك والممرات؛ لأنّه لو كان قد ترك الممرات لكنتم قد شاهدتموه، ونحن نعرف جميعًا أن الوحش يتأرجح بين الأشجار، واسمه يدل على ذلك.

فأومئوا برؤوسهم.

- لذلك ينبغي أن نفكر في الأمر.

وخلع «بيجي» نظارته المحطمة، وراح ينظف العدسة الوحيدة المتبقية.

- وما هو الموقف بالنسبة لنا يا «رالف»؟

- أنت لم تحصل بعد على المحارة لكي تتكلم. ها هي ذي المحارة، خذها.

- أقصد ما هو الموقف بالنسبة لنا. لنفرض أن الوحش جاء إلى هنا أثناء وجودكم أنتم بعيدًا لإنجاز أعمال الصيد، وأنا شخصيًا نظري ضعيف، وإذا سيطر الخوف عليّ..

فقاطعه «جاك» في احتقار:

- الخوف مسيطر عليك دائمًا.

- أنا معي المحارة.

فصاح «جاك»:

- المحارة! المحارة! نحن لم نعد بحاجة إلى المحارة، فنحن نعرف من الذين ينبغي أن يتكلموا ويصدروا الأوامر، فما هو الخير الذي عاد علينا من وراء تحدث «سيمون» أو «بيل» أو «وولتر»؟ لقد حان الوقت لأن يعرف البعض أن عليهم الالتزام بالصمت والهدوء وترك مسألة اتخاذ القرارات للآخرين من أمثالنا.

ولم يستطع «رالف» السكوت على ذلك الكلام، فبدأت الدماء تتصاعد ساخنة في وجنتيه.

فقال «رالف»:

- أنت لم تحصل على المحارة، اجلس.

فظهر شحوب شديد على وجه «جاك» حتى إن النمش في وجهه ظهر مثل بقع واضحة بنية اللون، ولعق شفتيه وظل واقفًا.

- هذه هي مهمّة الصياد.

وراح باقي الأولاد يرقبون الموقف في تركيز واهتمام، ووجد «بيجي» نفسه وقد زج به في هذا النزاع، فشعر بعدم الارتياح، ودفع بالمحارة إلى ركبتي «رالف» ثم جلس.

وتزايد الصمت، وأصبح الموقف مقبضًا للصدر وخانقًا، وحبس «بيجي» أنفاسه، وقال «رالف» أخيرًا:

- هذا يتجاوز مهمّة الصيادين؛ لأنك لا يُمكنك أن تقتفى أثر الوحش. وإلى جانب ذلك ألا تريد أن تنقذ حياتك؟

ثم التفت موجهًا كلامه لجميع الحاضرين:

- ألا تريدون جميعًا أن تنقذوا حياتكم؟

ثم عاد ونظر إلى «جاك»:

- لقد سبق أن قلت إن النيران هي أهم شيء بالنسبة لنا على الإطلاق، ولابد أن النيران قد انطفأت الآن.

وأنقذه السخط القديم وأعطاه القوة لتشديد الهجوم:

- ألا يوجد بينكم أحد رشيد عاقل؟ إنّه ينبغي أن نعيد إشعال تلك النيران. وأنت يا «جاك» لم تفكر في ذلك الأمر. أليس كذلك؟ ألا يريد أحد بينكم لحياته الإنقاذ؟

نعم، لقد كانوا جميعًا يريدون إنقاذ أنفسهم، ما في ذلك شك. ومرت الأزمة بسلام بعد وقوف الجميع في حزم إلى جانب «رالف»، وتنفس «بيجي» الصعداء شاهقًا، وعندما أراد أن يستنشق الهواء مرة أخرى لم يفلح في ذلك، فرقد كتلة فاغرًا فاه، في حين كانت ظلال زرقاء اللون تزحف حول شفتيه، ولم يكترث أحد به.

- والآن يا «جاك» حاول أن تتذكر.. هل هناك أي مكان بالجزيرة لم تذهب إليه؟

فأجاب «جاك» على الرغم منه:

- لا يوجد سوى.. ولكن بالطبع أتذكر الجزء عند نهاية الذيل حيث تكون الصخور مكومة كلها فوق بعضها فوق بعض.. لقد سبق لي الاقتراب من هذا المكان، والصخور هناك تشبه الكوبري، ولا يوجد سوى طريق واحد صاعد لأعلى.

- وذلك الشيء قد يكون مقيمًا هناك.

وتكلم جميع الحاضرين على الفور:

- تمام. هذا حسن. ذلك هو المكان الذي سنبحث فبه، وإذا لم يكن الوحش موجودًا هناك فسنصعد إلى الجبل ونبحث، ونوقد النيران.

- هيا بنا.

وتردد «رالف»:

- سنتناول الطعام أولًا وبعدئذ نذهب. ويستحسن أن نأخذ معنا الرماح.

وبعد تناول الطعام انطلق «رالف» وباقي الأولاد الكبار على طول «البلاج» وتركوا «بيجي» مستندًا فوق الرصيف. وكان هذا اليوم - شأنه شأن الأيام الأخرى - يوحى بأنه سيكون بمثابة حمام تحت قبة زرقاء وكان «البلاج» ممتدًا لمسافة بعيدة أمامهم في انحناء خفيف إلى أن يلتقي المنظر مع الغابة؛ لأن النهار لم يكن متوغلًا بالقدر الكافي الذي يسمح بظهور حجب السراب المضللة، وبتوجيهات من «رالف» شقوا طريقهم في حذر على طول أراضي النخيل، حيث لم يجرؤوا على تعريض أنفسهم للرمال الساخنة القريبة من حافة الماء، وترك «جاك» ليقود الطريق ويسير أمامهم، وكان «جاك» يخطو في حذر مسرحي، كما لو كانوا يشاهدون عدوًا على مسافة عشرين ياردة. وسار «رالف» في المؤخرة، وشكر الله على هروبه من المسئولية لبعض الوقت، وشعر «سيمون» الذي كان يسير أمام «رالف» برفرفة من الشكوك - وحش له مخالب يخدش بها ويجلس على قمة الجبل ولا يترك وراءه أية آثار أقدام، ولكنّه لم يكن سريعًا بالقدر الذي يعينه على الإمساك بالتوءمين «سام» و«إريك» صورة إنسان على الفور يتّسم بطابع البطولة والمرض.

وتنهد، فالناس الآخرون كان باستطاعتهم الوقوف والتحدّث إلى المجتمعين بدون أن يبدو عليهم ذلك الإحساس المخيف بضغوط التمركز على الذات، وكان باستطاعتهم أن يقولوا ما يريدون، كما لو كانوا يتحدثون إلى شخص واحد فقط، وأخذ خطوة على جانب ونظر وراءه. وكان «رالف» قادمًا وراءه وقد وضع رمحه على كتفه. وفى شيء من الخجل وعدم الثقة بالنفس بدأ «سيمون» يسمح لخطواته بالتباطؤ إلى أن أصبح يسير جنبًا إلى جنب مع «رالف»، وراح ينظر لأعلى نحوه من خلال الشعر الأسود الخشن الذي كان يسقط آنئذ على عينيه، فنظر إليه «رالف» شزرًا وابتسم في تكلف كما لو كان قد نسى أن «سيمون» قد خدع نفسه. ثم بدأ ينظر إلى الفراغ أمامه. وأحس «سيمون» للحظات بالسعادة، وبعدئذ توقف عن التفكير في نفسه، وعندما اصطدم في شجرة نظر «رالف» شزرًا في ضيق، وضحك روبرت ضحكات، مكتومة، وترنح «سيمون»، وتحولت بقعة

بيضاء في جبهته إلى اللون الأحمر، وسالت دماؤه، وطرد «رالف» «سيمون» وعاد إلى جحيمه الشخصي، فهم سيصلون إلى القلعة في وقت ما، وعندئذٍ سيكون على الرئيس أن يسير في المقدمة.

ورجع «جاك» مهرولًا إلى الوراء.

- نحن الآن ظاهرون للعيان.

- وهو كذلك، سنقترب إلى أقصى حد ممكن.

وتبع «جاك» نحو القلعة حيث ترتفع الأرض ارتفاعًا خفيفًا، وعلى يسارهم كانت توجد كتل متشابكة من النباتات المتسلقة والأشجار لا يمكن اختراقها على الإطلاق.

- ولماذا لا يمكن أن يكون هناك شيء ما مختبئ في تلك الأشجار؟

- لأن الوضع كما ترى، لا شيء يدخل إلى هذه الكتل المتشابكة أو يخرج منها.

وباعد «رالف» ما بين العشب الأخضر، وأطل في حذر، لم يكن هناك سوى يارادات أخرى قليلة من الأرض المتحجرة، وبعدئذ كان جانبا الجزيرة يكادان يلتقيان، حتى إن المرء كان يتوقع وجود قمة لسان من الأرض داخل في البحر، ولكن بدلًا من هذا يوجد نتوء صخري ضيق يبلغ عرضه يارادات قليلة، ويصل طوله إلى حوالي خمس عشرة يارادة، وهذا النتوء يجعل الجزيرة ممتدة في داخل البحر. وهنالك كانت توجد كميات أخرى من تلك القطع التي لها شكل مربع وردي اللون، والتي تبطن بنية الجزيرة. وهذا الجانب من القلعة - والذي يبلغ ارتفاعه حوالي مائة قدم - كان هو الجزء المحض الوردي الناتئ، الذي سبق أن شاهدوه من فوق قمة الجبل. وكانت صخرة الانحدار الجبلي الشاهق مشقوقة، وكانت القمة مكسوة بكتل هائلة مبعثرة تبدو كأنها تترنح وتتداعى.

وخلف «رالف» كان العشب الطويل زاخرًا الصيادين الصامتين. ونظر «رالف» إلى «جاك»:

- أنت صياد.

فارتفعت الدماء في وجه «جاك»:

- أعرف ذلك، وهو كذلك.

وتحدث شيء ما في أعماق «رالف» نيابة عنه:

- أنا الزعيم.. سأذهب أنا، ولا تجادلني.

والتفت نحو الآخرين:

- وأنتم عليكم بالاختفاء هنا وانتظاري.

ووجد صوته يميل إما إلى الاحتباس، وإما إلى الخروج عاليًا أكثر من اللازم، ونظر إلى «جاك»:

- هل تعتقد..

فتمتم «رالف» قائلًا:

- لقد سن لي التجول في جميع أرجاء الجزيرة، ولابد أن يكون موجودًا هنا.

- لقد فهمت.

وغمغم «سيمون» في ارتباك:

- إنني لا أعتقد أن الوحش موجود.

فرد عليه «رالف» في أدب كما لو كان يوافق على رأى يتعلق بالأحوال الجوية.

- لا يوجد وحش. أعتقد أنه لا يوجد وحش.

وكان فمه مزمومًا وشاحبًا، وأزاح شعره للخلف ببطء شديد.

- حسنًا.. إلى اللقاء.

وأرغم قدميه على التحرك إلى أن نقلته إلى عنق الأراضي.

وكان محاطًا من جميع الجوانب، بشقوق وفجوات خالية من الهواء، لم يكن هناك مكان يمكن الاختباء فيه، حتى ولو لم يكن على المرء أن يواصل سيره. وتوقف عند العنق الضيق ونظر لأسفل، وأدرك أن البحر بعد عدة قرون سيحول القلعة إلى جزيرة صغيرة، وعلى يمينه كان يوجد «اللاجون» المضطرب بفعل البحر العالي المكشوف، وعلى يساره.

وارتجف «رالف» في رعب، لقد كان «اللاجون» يحميهم من الباسفيك، ولسبب ما كان «جاك» فقط هو الذي سبق له أن نزل إلى المياه الموجودة على الجانب الآخر. وشاهد «رالف» منظر الأمواج الطويلة وبدت كأنها تشبه تنفس مخلوق ضخم هائل. وغاصت المياه في بطء بين الصخور كاشفة عن أسطح الجرانيت الوردية اللون وشعب مرجانية غريبة الشكل، بالإضافة إلى حيوانات «البولب» المائية، والأعشاب المائية. وكانت المياه تتجه لأسفل ولأسفل محدثة صفيرًا كالرياح بين منابع الغابة، وكانت توجد هنالك صخرة واحدة منبسطة ومنتشرة مثل المنضدة.. وكانت المياه المنسابة لأسفل على الجوانب العشبية الأربعة تجعلها تبدو وكأنها منحدر صخري شاهق. وبعدئذ تنفس «اللوثيان» النائم، فارتفعت المياه وتدفقت الأعشاب المائية واهتاجت المياه فوق الصخرة المنبسطة بصوت كالزئير، ولم يكن هناك معنى لمرور الأمواج. لا شيء سوى الهبوط والارتفاع والهبوط لحظات.

واستدار «رالف» متجهًا نحو المنحدر الصخري الشاهق.. لقد كانوا منتظرين وراءه فوق العشب الطويل، منتظرين ليروا ماذا سيفعل.. ولاحظ أن العرق الموجود في راحة يديه أصبح باردًا، وأدرك في دهشة كبيرة أنه لم يكن يتوقع بالفعل مواجهة أي وحش.. وأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل إذا تقابل فجأة مع الوحش.

وأدرك أنه باستطاعته أن يتسلق المنحدر الصخري الشاهق، ولكن لم يكن من الضروري أن يفعل ذلك، فالشكل المربع للصخر كان يسمح بوجود نوع من المساحة المربعة حوله، بحيث يستطيع المرء أن يسير ببطء نحو اليمين على «اللاجون» على طول إفريز ناتئ، ويدور حول منعطف مختفيًا عن الأنظار، وكان هذا أمرًا يسيرًا، وسرعان ما راح يحملق حول الصخر.

لا شيء سوى ما يمكن أن يتوقعه المرء: صخور وردية مبعثرة أكسبتها المياه والأحوال الجوية شكلًا مدورًا، تعلوها طبقة من سماد طبيعي ناجم عن ذرق الطيور البحرية تشبه الغطاء الجليدي، بالإضافة إلى وجود منحدر شديد يصل إلى الصخور المبعثرة المحطمة التي تتوّج المنطقة المحصنة.

وسمع صوتًا خلفه فالتفت.. لقد كان «جاك» يتقدم شيئًا فشيئًا على طول الإفريز الناتئ:

- لم أستطع أن أتركك وحدك في هذه المهمة الصعبة.

ولم يعلق «رالف» بأي رد.

وسار في المقدمة - ووراءه «جاك» - فوق الصخور، وقام بفحص مكان يشبه الكهف، فلم يجد به أي شيء، إلا مجموعة من البيض الفاسد، وأخيرًا جلس وراح ينظر فيما حوله ويطرق على الصخر بالطرف الغليظ من رمحه. وشعر «جاك» بالنشاط والإثارة:

- يا له من مكان يصلح ليكون حصنًا!

وبللهما عمود من الرذاذ.

- لا توجد مياه عذبة هنا.

- ماذا تقول؟

إذ كان يوجد بالفعل مساحة ضبابية طويلة خضراء في منتصف المسافة فوق الصخور، فتسلقا إليها، وتذوقا الماء الذي يسيل على شكل قطرات هزيلة:

باستطاعتك الاحتفاظ بقرعة جوز هند مملوءة بالماء طوال الوقت هنا.

- لا. فهذا المكان بغيض للغاية.

وتسلقا جنبًا إلى جنب الارتفاعات الأخيرة إلى حيث كانت الكومة المتنافسة متوجة بالصخرة الأخيرة المحطمة، وقام «جاك» بضرب الصخرة القريبة منه بجماع يده فتفتتت منها قشور قليلة:

- هل تذكر..

تذكر كل منهما الأوقات الحرجة التي مرت بينهما. وقال «جاك» انظر!

وعلى مسافة مائة قدم تحتهما كان يوجد الممر المرتفع الضيق، وبعده الأرض الحجرية، وبعدها العشب المنقط برؤوس الأولاد، ووراء ذلك كانت توجد الغابة.

وصاح «جاك» مبتهجًا:

- رفعة واحدة و- يا للسعادة!

وقام بحركة كاسحة بيده، ونظر «رالف» نحو الجبل:

- ماذا في الأمر؟

والتفت «رالف»:

- لماذا؟

- لقد كنت تنظر، ولا أعرف لماذا..

- لا توجد إشارة لآن. لا تظهر أي إشارة.

- أنت مجنون بهذه الإشارة.

وكان الأفق الأزرق المشدود يحيط من جميع الجهات، ولا يكسره سوى قمة الجبل.

- الإشارة هي الوسيلة الوحيدة التي نملكها.

ووضع حربته على الحجر المهتز وأزاح بيديه شعره للوراء.

- ينبغي أن نرجع ونتسلق الجبل، فذلك هو المكان الذي شاهدا فيه الوحش.

- لن يكون الوحش موجودًا هنالك.

- وهل هناك إجراء آخر نقوم به؟

وأدرك الأولاد الآخرون المنتظرون فوق العشب أن «جاك» و«رالف» لم يمسهما أي ضرر، وخرجا من مكمنهما إلى ضوء الشمس، فتملكتهم مشاعر الإثارة والاستكشاف ونسوا وجود الوحش، فاندفعوا بأعداد كبيرة عبر الكوبري، وسرعان ما بدءوا يتسلقون ويصيحون.. وكان «رالف» يقف آنئذ وقد وضع إحدى يديه على كتلة حمراء هائلة كانت في نفس ضخامة عجلة الطاحونة، كانت قد انغلقت وتعلقت في تداعٍ وتمايل.. وكان يرقب الجبل في اكتئاب وحزن، وأطبق على جماع يده بقوّة، وضرب الكتلة الحمراء على يمينه كأنه يضرب بمطرقة، وكانت شفتاه مزمومتين بشدة، وكان الحنين والشوق يطل من عينيه تحت أهداب الشعر.

- الدخان.

ومص جماع يده المجروحة.

- «جاك»! هيا بنا.

ولكن «جاك» لم يكن هناك، وكانت مجموعة من الأولاد تحدث ضجة هائلة، بدون أن يلحظ هو تلك الضجة، وتبذل جهدًا كبيرًا وهي تدفع صخرة، وبينما كان يستدير ملتفتًا إذ تحطمت قاعدة الصخرة وانقلبت الكتلة كلها نحو البحر، ما أدى إلى تطاير لسان كثيف رعدي من الرذاذ لأعلى حتى منتصف ارتفاع المنحدر الصخري الشاهق.

- لا تفعلوا ذلك! كفوا عن ذلك!

وما إن سمعوا صوته حتى هبط الصمت عليهم.

- الدخان.

وحدث شيء عجيب في رأسه، إذ كان هناك شيء ما يرفرف أمام ذهنه مثل جناح الخفاش تشويشًا على أفكاره.

- الدخان.

وسرعان ما تراجعت إلى الخلف الأفكار والغضب.

- نحن نريد دخانًا. وأنتم تضيعون وقتكم.. لأنكم تدحرجون الصخور.

فصاح «روجر»:

- لدينا وقت كثير للغاية!

فهز «رالف» رأسه:

- سنذهب إلى الجبل..

وظهر التذمر الغاضب والصخب والضوضاء، إذ كان يريد بعض الأولاد العودة إلى «البلاج».. والبعض كان يريد دحرجة المزيد من الصخور، فالشمس كانت ساطعة والخطر كان قد تلاشى مع تلاشى الظلام:

- يا «جاك»! قد يكون الوحش موجودًا على الجانب الآخر. يُمكنك أن تتولى القيادة مرة أخرى. وأنت سبق أن جبت هذه الأماكن.

- يمكننا الذهاب عن طريق الشاطئ، فهنالك توجد الفواكه..

وتقدم «بيل» نحو «رالف»:

- ولماذا لا نبقى هنا لبعض الوقت؟

- هذا الرأي سليم.

- ويمكن أن نشيد قلعة هنا.

فقال «رالف»:

- لا يوجد طعام هنا، ولا مأوى، ولا قدر وافر من مياه الشرب.

- هذا المكان يصلح ليكون قلعة ممتازة.

يمكننا أن ندحرج الصخور فوق «الكوبري» مباشرة.

فصاح «رالف» غاضبًا:

- وأنا أقول لكم إننا سوف نستأنف عملنا في البحث عن الوحش، إذ يجب أن نتأكد تمامًا من أنه غير موجود.. وسوف نبدأ لآن.

فلنبقَ هنا.

فَلنَعُد إلى المأوى.

أنني أشعر بالتعب والإرهاق.

- لا!

وأزاح «رالف» الجلد عن مفاصل جماع يده، ولم يشعر بألم على ما يبدو.

- أنا الرئيس وينبغي أن نستوقف تمامًا، ألا تشاهدون الجبل؟ لا توجد هناك أية إشارة.. وقد تظهر سفينة في عرض البحر.. هل أنتم جميعًا متخاذلون؟

الفصل السابع

الظلال والاشجار الطويلة

ظل طريق الخنازير قريبًا من كتل الصخور المختلطة في غير انتظام، والملقاة بجوار المياه على الجانب الآخر، وكان «رالف» مسرورًا من السير وراء «جاك» على طول هذا الطريق. وإذا أمكنك أن تحجب عن أذنك صوت هدير الموج البطيء وهو يبتعد عن شاطئ البحر وصوت الفوران الغاضب لدى عودة الأمواج إلى الشاطئ، وإذا أمكنك أن تنسى كيف أن المخابئ والأجمات الغنية بنبات السرخس مظلمة وغير مطروقة - فإنّه عندئذٍ تكون هناك فرصة لأن تطرد فكرة الوحش من ذهنك.. وتغرق في الأحلام لبعض الوقت.. وكانت الشمس قد أصبحت عمودية، مما جعل حرارة ما بعد الظهر تطبق على الجزيرة، ومرر «رالف» رسالة للإمام إلى «جاك» وعندما وصلوا بعد ذلك مباشرة إلى مكان الفاكهة الناضجة.. توقفت المجموعة كلها وتناولوا الطعام.

وأدرك «رالف» أثناء جلوسه مدى وطأة الحرارة الشديدة لأول مرة في ذلك اليوم. وجذب في اشمئزاز قميصه الرمادي اللون، وسأل نفسه في تعجب عما إذا كان سيجازف ويقدم على غسل هذا القميص، وأثناء جلوس «رالف» تحت وطأة الحرارة التي كانت غير اعتيادية حتى بالنسبة لهذه الجزيرة راح يضع الخطط لنفسه لكي يتزين ويهندم نفسه. فأحس بالرغبة في أن يكون لديه مقص ليقص به شعره، وألقى بكتل شعره المتشابكة للخلف، فليقص هذا الشعر القذر بحيث لا يزيد طوله على نصف بوصة. وكان يود أن يأخذ حمامًا مع تنظيف شديد بالصابون.. ومرّ بلسانه على أسنانه على سبيل التجربة، وقرر أنه ينبغي وجود فرشاة للأسنان أيضًا، وبعدئذ كانت هناك أظافره.

وقلب «رالف» يده، وفحص أظافره، ووجد أنها قد قضمت تمامًا، برغم أنه لم يستطع تذكر متى بدأ هذه العادة السخيفة، ولا متى اندمج فيها.

- وبعد ذلك سأرضع في أصبعي.

ونظر فيما حوله وراح يسترق السمع، وكان من الواضح أن أحدًا لم يسمع شيئًا، إذ كان الصيادون جالسين، وكانوا يأكلون في نهم هذه الوجبة غير الكافية، ويحاولون إقناع أنفسهم بأنهم قد تناولوا كميات كافية من الموز، ومن تلك الفاكهة الأخرى التي لها لون رمادي زيتوني، ولها شكل هلامي.

ومع تذكره بأنه سيكون يومًا ما مهندمًا ونظيفًا ومعيارًا للنظافة فإنّه راح يتفحّص الآخرين، وكانوا قذرين، ولم تكن قذارتهم مثل القذارة المثيرة التي تصاحب الأولاد الذين سقطوا في الطين أو تعرضوا للبهدلة الشديدة في يوم مطير، وبرغم أن أحدًا منهم لم يتعرض لوابل من المطر فإن شعرهم الطويل للغاية كان على شكل كتل متشابكة هنا وهناك، ومعقودًا حول ورقة شجر ناشفة أو

غصن، كما كانت وجوههم نظيفة نسبيًا بفعل عملية تناول الطعام، وخروج العرق، وبها نوع من الظلال في الزوايا التي يصعب تجمع الوصول إليها نسبيًا، أمّا ثيابهم فكانت ممزقة وناشفة من العرق مثل ثيابه تمامًا، وكانوا يرتدونها لا من أجل الزينة أو الزخرفة أو الراحة، ولكن بسبب التعود على ارتداء الثياب، وكانت بشرة أجسادهم مكسوة بالقشور بسبب ملوحة مياه البحر.

وأدرك في شيء من الكآبة أنه بدأ ينظر إلى هذه الأحوال على أساس أنها طبيعية تمامًا بحيث لم تعد تثير قلقه، فتنهد وأبعد عنه الغصن الذي قطف منه ثمار الفاكهة. وبدأ الصيادون يتسللون بعيدًا لقضاء الحاجة في الغابة أو في الأماكن السفلية عند الصخور، فالتفت ونظر في انتباه إلى البحر.

وهنا على الجانب الآخر من الجزيرة كان المنظر مختلفًا تمامًا، فصحائف السراب الساحرة الرقيقة لم تستطع الصمود أمام مياه المحيط الباردة؛ ولذلك كان الأفق ثابتًا وصارمًا ومطوقًا في زرقة شديدة. وتجول «رالف» هابطًا نحو الصخور.. وهنا بالأماكن السفلية التي تكاد تكون في نفس مستوى مياه البحر كان باستطاعتك أن تتبع بعينيك المرور المنتظم المتواصل للأمواج في عرض البحر العميق. وكانت هذه الأمواج عريضة لمسافة أميال، ولم تكن عارمة كالجبال، كما أنها لم تكن بمثابة الحواف المرتفعة للمياه الضحلة، وكانت تتحرك على طول الجزيرة بدون أي اكتراث بالجزيرة، وكأنما قد بعثت لإنجاز مهمّة أخرى، كانت جانبًا من حركة الارتفاع والانخفاض الخطيرة للمحيط بأكمله، فالبحر كان يتراجع لأسفل محدثًا شلالات صغيرة ومساقط من المياه المتراجعة، ويغوص متخطيًا الصخور، ويلصق الأعشاب البحرية. مثل الشعر اللامع بالأماكن السفلية، ثم يتوقف للحظات ويستجمع قواه ويرتفع في زئير، ويزداد ارتفاعه في فوران متسلقًا المنحدرات الصخرية الشاطئية، وأخيرًا يرسل ذراعًا من الأمواج المتكسرة فوق أخدود، تنتهي على شكل أصابع من الرذاذ، وتتساقط على مسافة ياردة أو نحو ذلك منه. وأخذ «رالف» يتابع الموجات موجة وراء موجة، ويتابع الارتفاع والانخفاض إلى أن تخدَّر ذهنه وفقد الإحساس بسبب وجود تلك المسافات اللانهائية الممتدة عبر البحر.

وبعدئذ فرضت هذه المياه التي تكاد تكون لا نهائية نفسها على انتباهه تدريجيًا، وكان هذا الحجم الهائل من المياه هو المفرق وهو الحاجز بينهم وبين وطنهم. وعلى الجانب الآخر من الجزيرة المحاط بالسراب في وقت الظهيرة، والمحمي بدرع «اللاجون» الهادئ قد يحلم المرء باحتمال إنقاذ حياته، ولكن هنا عندما يواجه المرء الزاوية المنفرجة المتوحشة للمحيط وأميال الفرقة فإنّه يشعر أنه مشدود ومربوط في الجزيرة، وأنه لا حول له ولا قوة. وأنه مدان ومحكوم عليه، وأنه..

وكان «سيمون» يتحدث ويكاد يلقي بالكلمات في داخل أذنه، ووجد «رالف» نفسه ممسكًا بالصخر بكلتا يديه في شدّة، مما جعله يشعر بالألم، ووجد ظهره مقوسًا، وعضلات رقبته متصلبة، وفمه مفتوحًا في توتر:

- ستعود إلى المكان الذي جئت منه.

وكان «سيمون» يومئ برأسه أثناء تكلمه، وكان راكعًا على ركبة واحدة، وكاد يطل لأسفل من فوق صخرة عالية، حيث كان ممسكًا بتلك الصخرة بكلتا يديه، أمّا ساقه الأخرى فكانت متدلية

لأسفل حتى مستوى «رالف».

وشعر «رالف» بالحيرة والارتباك، وراح يبحث في وجه «سيمون» عن مفتاح هذا اللغز.

- ولكن المسافة هائلة للغاية، أعني..

فأومأ «سيمون» برأسه:

- ومع ذلك سوف تعود وتصبح على ما يرام، وهذا هو اعتقادي على كل حال.

وكان بعض التوتر قد زال عن جسد «رالف»، فألقى نظرة سريعة على البحر، ثم ابتسم في مرارة في وجه «سيمون»:

- هل لديك سفينة في جيبك؟

فابتسم «سيمون» وهز رأسه:

- إذن فكيف عرفت ذلك؟

وعندما التزم «سيمون» بالصمت قال «رالف» في اقتضاب وجفاء:

- أنت إنسان معتوه.

فراح «سيمون» يهز رأسه في عنف إلى أن تطاير شعره الأسود للأمام وللخلف عبر وجهه.

- لا، أنا لست معتوهًا، كل ما هنالك أنني أعتقد بأنك سوف تعود وتكون على ما يرام.

ومرت لحظات لم يتم فيها أي حوار بينهما، وبعدئذ ابتسم كل منهما للآخر فجأة.

ونادى روجر من المخابئ:

- تعالوا وشاهدوا!

وكانت الأرض مقلوبة ومتناثرة بالقرب من جدول الخنازير..

وكان هناك روث يتصاعد البخار منه.. وانحنى «جاك» لأسفل متفحصًا الروث كما لو كان معجبًا به.

- يا «رالف» - نحن بحاجة إلى اللحوم حتى ولو اضطررنا لصيد الشيء الآخر.

- إذا كنت تقصد أننا سنسلك في الاتجاه الصحيح فإننا سنصطاد.

وانطلقوا مرة أخرى. وتقوس ظهر الصيادين بعض الشيء بسبب الخوف من الوحش الذي أشير إليه بطريقة عابرة، في حين انطلق «جاك» في المقدمة باحثًا عن فريسة.. وكانوا يسيرون ببطء

أكثر مما كان يتوقع «رالف»، ومع ذلك فقد كان مسرورًا على نحو ما وهو يتسكع محتضنًا رمحه، وواجه «جاك» بعض الطوارئ التي تتعلق بحرفته البارعة، فتوقف الموكب وراءه، فاستند «رالف» على شجرة، وعندئذٍ تدفقت على ذهنه أحلام اليقظة على الفور، وقال لنفسه إن «جاك» هو المسئول عن أعمال الصيد، وبذلك سيكون هناك بعض الوقت للوصول إلى الجبل.

لقد كان ذات يوم يسير وراء والده من «تشاتهام» إلى «دفونبورت» حيث كانوا يعيشون في كوخ يقع على حافة المستنقعات. ومن بين المساكن المتتابعة التي عرفها «رالف» كان هذا المسكن يقف ظاهرًا في وضوح متميز؛ لأنّه بعد ذلك المسكن كان يُرسل للذهاب بعيدًا إلى المدرسة.. وكانت أمّه لا تزال تعيش معهم، وكان والده يعود إلى المنزل في كل يوم. وجاءت جياد برية متوحشة إلى السور الحجري عند الجزء السفلى من الحديقة، وكان الثلج قد تساقط من السماء. وخلف الكوخ مباشرة كانت هناك سكينة من نوع ما، بحيث يستطيع المرء أن يستلقي هنالك، ويرقب الرقائق وهي تمر على شكل دوامة، ويمكنه مشاهدة البقعة المبللة التي ذابت فيها كل واحدة

من تلك الرقائق، وبعدئذ يمكنه أن يميز أولى الرقائق التي سقطت بدون أن تذوب، وأن يرقب الأرض كلها وقد تحولت إلى اللون الأبيض. وكان باستطاعة المرء أن يحتمى بالدخول إلى المنزل إذا شعر بالبرد، وعندئذٍ يمكنه أن ينظر من خلال النافذة خلف ذلك المقبض النحاسي البراق، وخلف اللوح المعدني الذي يوجد به إلى الرجال الضئيلي الحجم ذوي اللون الأزرق.

وعندما كنت تذهب للنوم في السرير كانت توجد هناك «سلطانية» مملوءة برقائق صغيرة من الذرة، مدهونة بالسكر والكريمة، أمّا الكتب فكانت توجد على الرف بجوار السرير مستندة بعضها إلى البعض مع وجود كتابين أو ثلاثة كتب في وضع منبسط فوق القمة دائمًا؛ لأنّه لم يكن يهتم بإعادة الكتب إلى مكانها الصحيح عقب الانتهاء من قراءتها. وكانت الكتب بها صفحات مطوية الزوايا وبها خدوش، ومن بين هذه الكتب كان يوجد كتاب له غلاف لامع عن «توبي» و«موبي» وهو كتاب لم يقرأه على الإطلاق؛ لأنّه يدور حول فتاتين، وكان هناك كتاب عن الساحر مثير للرعب، بحيث يضطر المرء أن يتخطى صفحة ٢٧ التي توجد بها صورة مخيفة عن العنكبوت. كما كان هناك كتاب عن أناس قاموا بالحفر والتنقيب عن أشياء: أشياء مصرية. وأيضًا كتاب «قطارات الأطفال» وكتاب «سفن الأطفال» وتمثلت أمامه تلك الكتب بوضوح، حيث كان بمقدوره الوثوب لأعلى ولمسها بيديه، كما كان بمقدوره الإحساس بالثقل والانزلاق الذي يصاحب كتاب «الفيلة البائدة» للأطفال لدى إنزاله من مكانه.. لقد كان كل شيء على ما يرام. فكل شيء كان يتّسم بروح الفكاهة والصداقة.

وتحطمت الشجيرات أمامه، إذ ألقى الأولاد بأنفسهم في وحشية بعيدًا عن ممر الخنازير، وتدافعوا بالمناكب بين النباتات المتسلقة صارخين في عنف. ولاحظ «رالف» أن «جاك» قد وُكِزَ بالمرافق ودُفِع على جانب وسقط على الأرض، وبعدئذ ظهر هناك مخلوق يقفز على طول ممر الخنازير في اتجاهه وكانت أنيابه لامعة، وكان شخيره ونخيره مثيرين للرعب، واكتشف «رالف» أنه قادر على قياس المسافة في شيء من الجرأة، وصوب رمحه، وبعد أن أصبح الخنزير على مسافة خمس ياردات فقط قذف الرمح الخشبي، وشاهد الرمح وهو يضرب فنطيسة الخنزير المائلة

ويتعلق بها للحظات، فتغير صوت الخنزير وأصبح على هيئة صراخ حاد رفيع، وانحرف على جانب نحو المخبأ، وبعد أن امتلأ جدول الخنازير بصيحات الأولاد مرة أخرى رجع «جاك» مهرولًا، وراح يبحث في فضول بين الشجيرات:

- في أرجاء هذا المكان.

- ولكنّه قد يخدعنا!

- في أرجاء هذا المكان كما قلت لك.

وكان الخنزير البري يتخبط ويتعثر مبتعدًا عنهم، وعثروا على جدول آخر للخنازير موازٍ للجدول الأول، فانطلق «جاك» بأقصى سرعة. وكان «رالف» مملوءًا بالرعب والخوف من الشرور المرتقبة، كما كان يشعر بالفخر والغرور:

- لقد أصبته.. لقد طعنه الرمح.

وبعدئذ وصلوا - بدون أن يتوقعوا ذلك - إلى مكان مكشوف بالقرب من البحر، وراح «جاك» يبحث عنه فوق الصخور العارية، وبدا عليه القلق.

- لقد أفلت من أيدينا، فقال «رالف» مرة أخرى:

- لقد ضربته وأصابه الرمح في جسده..

وأحس أنه بحاجة إلى أشخاص يشهدون على صدق قوله:

- هل شاهدتني وأنا أصيب الخنزير برمحي؟

فأومأ «موريس» موافقًا:

- نعم. لقد شاهدتك. فقد ضربته بعنف على خرطومه! فاستطرد «رالف» في إثارة:

- لقد ضربته ضربة رائعة وطعنته بالحربة. لقد أصبته بجراح! وانتعشت نفسه نتيجة احترامهم الجديد له، وأحس أن الصيد عمل رائع برغم كل شيء.

- لقد ضربته ضربة سديدة صحيحة، وفى اعتقادي أن ذلك الخنزير هو الوحش!

فرجع «جاك»:

- لم يكن ذلك هو الوحش.. فهو خنزير بري.

- لقد ضربته.

- ولماذا لم تمسك به؟

- لقد حاولت.

فارتفع صوت «رالف»:

- ولكنّه خنزير بري ذكر!

فارتفعت الدماء في وجه «جاك» فجأة:

- لقد قلت إنِّه قد يخدعنا، فماذا كنت تهدف من وراء قولك هذا؟ ولماذا لم تنتظر؟

ومد ذراعه.

- انظروا.

وأدار ساعده الأيسر نحوهم جميعًا لكي يشاهدوا.

وكان هناك تمزق على الجانب الخارجي من ساعده، ولم تكن مساحة التمزق كبيرة، ولكنّها كانت ملطخة بالدماء.

- لقد فعل هذا بأنيابه، إذ لم أتمكن من انتزاع الرمح في الوقت المناسب، فتركز الانتباه على «جاك».

وقال «سيمون»:

- ذلك جرح عميق، وينبغي أن تمتصه بفمك.

فقام «جاك» بامتصاص الجرح.

فقال «رالف» في استياء:

- لقد ضربته. ضربته برمحي. وأصبته بجروح..

وحاول جذب انتباههم.

- لقد شاهدته وهو يتقدم على الممر، فسددت رمحي على هذا النحو.

فزمجر «روبرت» في وجهه. ودخل «رالف» في هذه اللعبة، فانفجر الجميع ضاحكين، وسرعان ما راحوا جميعًا يطعنون ويلكمون «روبرت» الذي كان يقلد حركات القرد واندفاعاته.

وصاح «جاك»:

- اعملوا حلقة!

وتحركت الحلقة مشددة الخناق. وصرخ «روبرت» صراخًا حادًا رفيعًا مقلدًا الرعب الذي ينتاب الخنزير، وبعدئذ صرخ في آلام حقيقيّة.

- أوه! توقفوا عن هذا، فأنتم تسببون لي آلامًا شديدة.

وسقط الجزء الغليظ من الحربة على ظهره، في حين كان يتعثر ويتخبط بينهم.

- أمسكوا به!

وأمسكوا بذراعيه ورجليه، وانساق «رالف» وراء إثارة فجائية شديدة، فنزع رمح «إريك» ووخز «روبرت» به.

- اقتلوه! اقتلوه!

وعلى الفور تحول «روبرت» إلى الصراخ الجنوني والمقاومة بكل ما أوتي من قوة جنونية، فأمسكه «جاك» من شعره وراح يلوح مهددًا بسكينته ووراءه كان «روجر» يكافح، لكي يتمكّن من الاقتراب قليلًا ليشهد المنظر، وتصاعدت الأنشودة متخذة طابع الطقوس الشعائرية، مثلما يحدث في اللحظات الأخيرة من الرقص أو الصيد:

- اقتل الخنزير.. واقطع رقبته! اقتل الخنزير. وجه له الضربات الساحقة!

وكان «رالف» يكافح؛ لكي يتمكّن من الاقتراب ومشاهدة ما يحدث، ولكي يملأ يديه بذلك اللحم البنى الحساس قبل أن يتعرض للعطب، وكانت الرغبة في اعتصاره وطعنه عارمة للغاية.

وهبط ذراع «جاك» وماجت الحلقة اللاهثة بالهتاف والبهجة، وقلدت أصوات الخنازير عند ما تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبعدئذ استلقوا في هدوء لاهثين، وراحوا يصغون إلى بكاء «روبرت» المليء بالرعب، ومسح وجهه بذراعه القذرة، وبذل جهدًا لكي يستعيد وضعه ويصلح من شأنه.

- أوه، ردفى!

وراح يحك ردفه في اكتئاب وحزن. وتمايل «جاك»:

- تلك كانت لعبة حسنة.

فقال «رالف» في قلق:

- مجرد لعبة. لقد تعرضت ذات مرة لجروح بالغة أثناء مزاح شبيه بهذا.

وقال «موريس»:

- ينبغي أن تكون لدينا طبلة حتى نتمكن من الأداء بطريقة سليمة.

فنظر إليه «رالف»:

- وعلى أي نحو تكون الطريقة السليمة؟

- لا أدرى، فأنا أعتقد أنك تريد نيرانًا وطبلة، والربط ما بين الطبلة والوقت.

وقال «روجر»:

- أنت تريد خنزيرًا، مثلما يحدث في الصيد الحقيقي.

فقال «جاك»:

- أو يتظاهر شخص ما بأنه خنزير، يُمكنك أن تجعل أي شخص يبدو وكأنه خنزير، وبعدئذ يُمكنك أن تقوم بتمثيل الدور - تتظاهر بأنك تطرحني أرضًا، وتقلد كل هذه الحركات.

وقال «روبرت»:

- أنت تريد خنزيرًا حقيقيًا؛ لأنك كنت على وشك أن تقتلني.

فقال «جاك»:

- نجعل ولدًا صغيرًا يقوم بدور الخنزير، فانفجر الجميع في الضحك.

وجلس «رالف»:

- حسنًا، لن نجد ما نبحث عنه في هذه الحال.

فوقفوا الواحد تلو الآخر وهم يشدون على أجسامهم ثيابهم البالية.

ونظر «رالف» إلى «جاك»:

- فلنذهب الآن إلى الجبل.

فقال «موريس»:

- ألا ينبغي لنا أن نعود إلى «بيجي» قبل حلول الظلام؟

وأومأ «التوءمان» برأسيهما كأنهما ولد واحد:

- نعم. ينبغي العودة إلى «بيجي» ونؤجل الصعود إلى الجبل إلى صباح الغد..

وأطل «رالف» وشاهد البحر:

- ينبغي لنا إشعال النيران مرة أخرى.

فقال «جاك»:

- لا توجد نظارة «بيجي» معك، وبذلك لن تتمكّن من إشعال النيران.

- وعندئذٍ سنتبين ما إذا كان الجبل خاليًا من الوحوش.

وتحدث «موريس» في شيء من التردد، حيث كان لا يريد أن يبدو جبانًا رعديدًا:

- ولنفرض أن الوحش موجود هنالك بالفعل؟

فلوح «جاك» برمحه مهددًا:

- سنقوم بقتله.

وبدت الشمس باردة بعض الشيء، وضرب برمحه:

- لأي شيء ننتظر لآن؟

فقال «رالف»:

- أعتقد أننا إذا سرنا بجوار البحر في هذا الاتجاه فسنصبح أسفل الجزء المحترق، وعندئذٍ يمكننا أن نتسلق الجبل..

ومرة أخرى قادهم «جاك» بجوار أصوات الامتصاص والجيشان والتنهدات الصادرة عن البحر المبهر للأبصار.

وبدأ «رالف» يستسلم لأحلام اليقظة مرة أخرى، وترك أقدامه الماهرة تتعامل مع الصعاب الموجودة على الممر، ولكن هنا كانت أقدامه يبدو عليها أنها أقل مهارة من ذي قبل؛ لإنهم في معظم الطريق اضطروا للنزول لأسفل الصخور العارية بجوار الماء، واضطروا للتقدم تدريجيًا بين ذلك وبين الزخارف الوفيرة الخصيبة المظلمة للغاية. وكانت هناك منحدرات صخرية صغيرة يمكن تسلقها، وبعضها يصلح للاستخدام كممرات؛ لأنها بمثابة طرق ملتوية طويلة للغاية يستخدم فيها الإنسان يديه بالإضافة إلى رجليه. وكان باستطاعتهم التسلق بصعوبة هنا وهناك فوق الصخور المبللة بمياه الموج، والقفز عبر البرك الصافية التي تخلفت عن حركة المد والجزر. ووصلوا إلى أخدود يشق صدر الشاطئ الضيق كأنه نوع من أنواع الدفاع. وبدا هذا وكأنه لا قاع له فراحوا يحملقون في رعب ورهبة في الفتحة الضيقة، حيث كانت المياه تقرقر وتتدفق في تيار متقطع، وبعدئذ عادت الأمواج، ففار الأخدود في هياج، وتناثر الرذاذ لأعلى نحو النباتات المتسلقة، مما أدى إلى ابتلال الأولاد بالماء، فأخذوا يتصارحون في صراخ. وحاولوا السير في الغابة، غير أنها كانت كثيفة ومتشابكة مثل عش الطيور، ولجئوا في نهاية الأمر إلى القفز الواحد تلو الآخر، مع الانتظار لحين هبوط المياه، وبرغم هذا الحرص فقد تعرض بعضهم للبلل مرة أخرى. وبعد ذلك بدأ تعذر المرور فوق الصخور، وأصبح الأمر مستحيلًا، مما جعلهم يجلسون لبعض الوقت ويتركون ثيابهم البالية المبللة لكي تجف تحت أشعة الشمس، وراحوا يرقبون الخطوط الخارجية للموجات التي كانت تتحرك في بطء شديد إلى ما وراء الجزيرة. وعثروا على فاكهة في مكان

تتردد عليه الطيور صغيرة مشرقة ولامعة، وكانت تلك الطيور تحوم وتتسكع مثل الحشرات. بعدئذ قال «رالف»: إنهم يتقدمون في بطء شديد، ثم قام بتسلق شجرة، وباعد ما بين تعريشة الأوراق وأدرك أن الرأس المربع للجبل ما زال بعيدًا للغاية على ما يبدو، وبعد ذلك أسرعوا الخطأ عبر الصخور، وجُرحت ركبة «روبرت» جرحًا بالغًا، فاضطروا للاعتراف بأنه ينبغي لهم السير في بطء شديد فوق هذا الممر إذا أرادوا لأنفسهم السلامة. ولذلك بدءوا يشقون طريقهم بعد ذلك في حرص شديد، كما لو كانوا يتسلقون جبلًا خطيرًا، إلى أن أصبحت الصخور بمثابة منحدر صخري شاهق شديد الوعورة، حيث كانت تطل على البحر، مع وجود أدغال لا تطاق وتنحدر عمودية إلى البحر.

ونظر «رالف» إلى الشمس نظرة فاحصة انتقادية:

- في وقت مبكر من فترة المساء، عقب وقت تناول الشاي على أية حال..

وقال «جاك» وهو مطأطئ الرأس:

- إنني لا أذكر هذا المنحدر الصخري الخطير، ولإبد أنني نسيت أن أتفقد هذا الجزء من الساحل.

فأومأ «رالف» برأسه:

- دعني أفكر.

وفى تلك الآونة لم يكن لدى «رالف» خجل فيما يتعلق بالتفكير العام، حيث كان يتعامل مع القرارات في ذلك اليوم، كما لو كان يلعب «الشطرنج» ولكن المشكلة الوحيدة هي أنه لم يكن في يوم ما لاعب «شطرنج» ممتاز، لقد كان يفكر في الأطفال الصغار وفى «بيجي»، وتخيل «بيجي» موجودًا إلى جواره في وضوح شديد وقد تكوم في كوخ خالٍ من الأصوات تمامًا، فيما عدا صوت الكابوس:

- لا يمكننا أن نترك الأطفال الصغار وحدهم مع «بيجي». لا يمكن تركهم هكذا طوال الليل.

ولم يتكلم الأولاد، ولكنهم وقفوا حوله يرقبونه:

- إذا عدنا الآن فسيستغرق ذلك بضع ساعات.

وسلك «جاك» صوته وتحدث إليهم بصوت غريب:

- يجب ألا ندع أي شيء يحدث لـ «بيجي». أليس كذلك؟

وراح «رالف» يطرق على أسنانه بالجزء المدبب القذر من رمح «إيريك»، وحملق فيما حوله:

- ينبغي أن يذهب شخص ما عبر الجزيرة ويقول لـ «بيجي» إننا سنعود إليه عقب حلول الظلام.

وتحدث «بيل» في غير تصديق:

- يذهب شخص ما مخترقًا الغابة وحده.. والآن؟

- لا يمكننا الاستغناء عن أكثر من شخص واحد.

فشق «سيمون» طريقه نحو مرفق «رالف»:

- سأذهب أنا إذا أردتم، فأنا لا يهمني الذهاب بمفردي. وهذا الكلام أقوله بكل صدق وأمانة.

وقبل أن يجد «رالف» الوقت لكي يرد ابتسم «سيمون» على وجه السرعة، ثم استدار وشق طريقه إلى داخل الغابة.

ونظر «رالف» وراءه نحو «جاك» وراح يسدّد له النظرات الحانقة لأول مرة.

- يا «جاك» - لقد قطعت المسافة كلها حتى صخرة القلعة في تلك المرّة.

فحملق «جاك» مشدوهًا:

- نعم.

- ووصلت إلى جزء من هذا الشاطئ - أسفل الجبل - إلى ما وراء هذا المكان.

- نعم.

- وبعدئذ؟

- وجدت جدولًا للخنازير، وكان هذا الجدول يمتد لمسافة أميال.

- ومعنى هذا أن جدول الخنازير لابد أن يكون موجودًا هنالك في مكان ما؟!

وأومأ «رالف» برأسه، وأشار إلى الغابة.

ووافق كل شخص في وقار:

- حسنًا إذن، سنشق لنا طريقًا إلى أن نعثر على جدول الخنازير، وتقدم خطوة ثم توقف:

- انتظروا قليلًا، إلى أين يصل جدول الخنازير.

فقال «جاك»: لقد سبق أن قلت لك إنّه يصل إلى الجبل.

وكان صوته مملوءًا بالازدراء وهو يستطرد قائلًا:

- ألا تريد الذهاب إلى الجبل؟

فتنهد «رالف» وهو يحسّ بتصاعد المشاعر العدائية، وكان يدرك أن «جاك» يشعر نحوه بالخصومة والعداء منذ انتهاء وضعه كرئيس وقائد.

- لقد كنت أفكر في مسألة الضوء؛ لأننا سنتعثر في الظلام.

- لقد كنا بصدد البحث عن الوحش..

- لن يكون هناك ضوء كافٍ.

فقال «جاك» في حدة:

- لا يهمني الذهاب، سأذهب عندما نصل إلى هناك، أتفضل العودة إلى الأكواخ وإخبار «بيجي»؟

وجاء الدور على «رالف» لأن يحمّر وجهه غضبًا، ولكنّه تكلّم في يأس وقنوط انطلاقًا من الفهم الجديد الذي كان «بيجي» قد زوده به.

- لماذا تكرهني؟

وتحرك الأولاد في قلق كما لو كان شيء ما غير لطيف قد قيل. وطال الصمت، وكان «رالف» هو أول من انصرف مبتعدًا، وكان لا يزال يشعر بالغضب - والإساءة إلى مشاعره:

- هيا بنا.

وقاد الأولاد إلى الطريق، وانطلق خُطًا عادية بين الكتل المتشابكة، واهتم «جاك» برعاية مؤخرة «الطابور»، وكان يشعر بأنه معزول من منصبه، كما كان يفكر طويلًا في اكتئاب.

وكان طريق الخنازير بمثابة نفق مظلم؛ لأن الشمس كانت تنزلق بسرعة نحو حافة العالم، وما أكثر الظلال في الغابة، وكان الطريق عريضًا ومطروقًا، فراحوا يجرون عليه في هرولة سريعة، وبعدئذ انتهى سقف الأوراق؛ فتوقفوا عن الجري وأخذوا يلهثون وينظرون إلى النجوم القليلة التي تتغامز حول قمة الجبل.

- هأنتم أولاء قد وصلتم.

وحملق الأولاد بعضهم إلى البعض في نوع من الشك.. واتخذ «رالف» القرار:

- سنذهب مباشرة عبر الرصيف ونتسلق غدًا.

فوافقوا في تمتمة، ولكن «جاك» كان واقفًا عند كتفه:

- إذا كنت خائفًا بالطبع..

فانقلب عليه «رالف» مهتاجًا..

- ومن الذي ذهب أولًا إلى صخرة القلعة؟

- وأنا ذهبت أيضًا. وكان ذلك تحت ضوء النهار.

- حسنًا. من الذي يرغب في تسلق الجبل الآن؟

وكان الصمت هو الإجابة الوحيدة.

- «سام» و«إيرك»؟ ما رأيكما؟

- ينبغي لنا الذهاب وإخبار «بيجي».

- نعم. قولا لبيجي إن.

- ولكن «سيمون» ذهب!

- ينبغي لنا أن نقول لـ «بيجي».. في حالة..

- «روبرت»؟ «بيل»؟

وكانوا آنئذ يشقون طريقهم عائدين إلى الرصيف.

ولم يكن بالطبع السبب في ذلك هو شعورهم بالخوف، وإنما السبب هو شعورهم بالإرهاق الشديد.

والتفت لـ «رالف» وراءه نحو «جاك» قائلًا:

- أترى؟

- سأصعد الجبل.

وخرجت الكلمات من «جاك» في وحشية وقسوة كما لو كانت سبابًا ولعنات، ونظر إلى «رالف» وقد توتر جسده النحيل، وأمسك برمحه كما لو كان يهدده.

- سأصعد إلى الجبل للبحث عن الوحش الآن.

وبعدئذ جاءت اللدغة الخطيرة والكلمة المرّة الطارئة:

- هل ستأتي معي؟

وما إن صدرت تلك الكلمة حتى نسى الأولاد الآخرون حثهم على الذهاب، واهتموا بهذا الصدام الجديد بين الشبحين في الظلام. وكانت تلك الكلمة رائعة للغاية، ومرة للغاية، ومروعة للغاية، بحيث لا يمكن تكرارها.. ونقلت هذه الكلمة «رالف» إلى حالة من التوتر والضيق بعد أن كانت أعصابه تلتمس الراحة والاستجمام والعودة إلى الكوخ ومياه «اللاجون» الهادئة الحبيبة.

- ليس لدي مانع من الذهاب معك.

وسمع في دهشة صوته يخرج باردًا ومتقطعًا، حتى إن المرارة التي اكتنفت سخرية «جاك» أصبحت واهنة وضعيفة..

- هذا إذا كنت توافق على مجيئي معك بالطبع.

- أوه! أنا أوافق تمامًا.

واتخذ «جاك» خطوة.

- حسنًا إذن.

وبدأ الاثنان يصعدان الجبل جنبًا إلى جنب، وراح الأولاد الصامتون يرقبونهما.

وتوقف «رالف»:

- إننا غبيان.. ولماذا يذهب اثنان فقط؟ إذا وجدنا أي شيء فلن يكفي وجود اثنين منا فقط.

وترامى إلى سمعهما صوت أطفال يهرولون بعيدًا، ولكنهما دُهشا عندما شاهدًا شبحًا معتادًا أمام مياه المحيط.

- روجر؟!

- نعم.

- إذن لقد أصبحنا ثلاثة أشخاص.

وانطلقوا مرة أخرى لتسلق المنحدر الجبلي، وبدا الظلام وكأنه يتدفق حولهم مثل الفيضان، وبدأ «جاك» الذي كان ملتزمًا بالصمت يشرق ويختنق ويكح، وهبت ريح عاصفة جعلهم - الثلاثة - يغمغمون ويدمدمون، وامتلأت عينا «رالف» بالدموع الكثيرة مما حجب عنه الرؤية:

- الرماد.. نحن الآن على حافة الرقعة المحترقة.

وكانت خطواتهم والنسيم الذي يهب من وقت لآخر تثير ذرات التراب المؤلمة، وما إن توقفوا عن المشي مرة أخرى حتى وجد «رالف» الوقت الكافي لأن يتذكر - وهو غارق في نوبات من الكحة - كيف أنهم اتسموا بالغباء، فإذا لم يكن هناك وحش - ومن المؤكد أنه لا يوجد وحش - فسيكون الموقف على ما يرام، ولكن إذا كان هناك شيء ما منتظرًا فوق قمة الجبل فما الفائدة التي ترجى من ورائهم هم الثلاثة؟ خاصة أنهم لا يحملون معهم سوى العصي، بالإضافة إلى أن الظلام سيعوقهم.

- لقد كنا أغبياء.

ومن الظلام انبثقت الإجابة.

- ليل عاصف بالرياح!

وهز «رالف» رأسه في سخط وغضب، كل هذا كان بسبب الغلطة التي وقع فيها «جاك».

وبالطبع أنا مسؤول عن هذا الوقت.. ولكننا مازلنا غارقين في الغباء. وقال الصوت في تهكم وسخرية:

- إذا كنتما لا تريدان الاستمرار في الصعود.. فسأصعد أنا بمفردي..

وسمع «رالف» الأسلوب الساخر وشعر بالكراهية نحو «جاك»، كما شعر بالضيق والسخط بسبب لسع الرماد في عينيه والإرهاق والخوف.

- اذهب بمفردك، سوف ننتظر هنا.

وسادت لحظات من الصمت.

- لماذا لا تريد الذهاب؟ أتشعر بالخوف؟

وفصلت بقعة في الظلام نفسها - وكانت تلك البقعة هي «جاك»، وبدأت في الابتعاد في غياهب الظلام.

- وهو كذلك. إلى اللقاء.

واختفت البقعة، وحلت بقعة أ خرى مكانها.

وأدرك «رالف» أن ركبته تلمس شيئًا صلبًا، فهز جذعًا متفحمًا به حواف حادة، وأحس بالجمرات المطفأة التي كانت من قبل لحاء تضغط على ظهر ركبته، فأدرك أن «روجر» قد جلس، فتحسس بيديه وهبط بنفسه إلى جوار «روجر» في حين اهتزّ الجذع بين الرماد غير المرئي، ولم يتكلم «روجر» حيث كان يميل بطبيعته إلى التحفظ والصمت، ولم يعبر عن رأيه فيما يتعلق بالوحش، ولم يخبر «رالف» عن السبب الذي جعله يختار المجيء والاشتراك في هذه المهام الجنونية؛ إذ اكتفى بالجلوس بكل بساطة، وراح يهز الجذع في رفق، ولاحظ «رالف» وجود أصوات طرق سريعة مثيرة للضيق. ثم أدرك أن «روجر» كان يطرق بعصاه الخشبية على شيء ما.

وهكذا جلسا بين الاهتزاز والطرق، وكان «روجر» منغلقًا وصامتًا، وكان «رالف» يتفجر غيظًا، وحولهم كانت السماء المطبقة عليهما مثقلة بالنجوم، باستثناء الساحة التي يشغلها الجبل، حيث ثقبت حفرة من السواد.

وكان هناك صوت يسعى كالحيّة فوقها.. صوت شخص ما يسير بخطوات عملاقة وخطيرة فوق الصخر أو الرماد، ثم عثر «جاك» عليهما، وكان يرتعد، ويتكلم بصوت أجش يشبه صوت

الضفدعة، فعرفاه من صوته.

- لقد شاهدت شيئًا فوق قمة الجبل. وسمعاه وهو يتخبط في ارتباك فوق الجذع، ما جعل الجذع يهتز في عنف، واستلقى صامتًا للحظات ثم غمغم قائلًا:

- راقبا الموقف تمامًا؛ إذ يحتمل أن يكون قادمًا ورائي.

ودمدم قدر من الرمال حولهما، فجلس «جاك» معتدلًا:

- لقد شاهدت شيئًا منتفخًا فوق الجبل.

فقال «رالف» بصوت مرتعش:

- ربما تخيلت ذلك فقط.. لأنّه لا يوجد شيء ما ينتفخ.. ولا أي نوع من أنواع المخلوقات ينتفخ.

وتحدث «روجر» فقفزا في ذعر؛ لأنهما كانا قد نسيا أنه موجود معهما.

- الضفدعة.

وضحك «جاك» مقهقهًا، وسرت رجفة في كيانه:

- ضفدعة ما؟ لقد كان هناك صوت أيضًا.. صوت يشبه صوت الغطس في الماء، وبعدئذ انتفخ ذلك الشيء.

وأصيب «رالف» نفسه بالدهشة، ولم يكن السبب في دهشته هو نوعية صوته الذي كان هادئًا، وإنما كان السبب هو التظاهر بالشجاعة.

- سنذهب ونلقي نظرة.

ولأول مرة منذ أن تعرف «رالف» على «جاك» يشعر «رالف» أن «جاك» بدأ يميل إلى التأني والتردد..

- الآن؟

فتحدث صوته نيابة عنه:

- بالطبع.

ونزل عن جذع الشجرة، وسار في الطريق عبر الجمرات المنطفئة تحت جنح الظلام، وتبعه الآخران.

ونظرًا لأن صوته الفيزيقي كان صامتًا، فإن الصوت الداخلي للعقل والأصوات الأخرى أيضًا بدأت تطفو على السطح وتفرض نفسها.. كان «بيجي» يسخر منه ويقول له: أنت طفل.. وقال له

صوت آخر إنِّه ينبغي له ألا يكون غبيًا وسخيفًا. وأعطى الظلام والمغامرة المتهورة في الليل نوعًا من الوهم الكاذب الذين يتميز به كرسي طبيب الأسنان.

وعندما وصلوا إلى المنحدر الأخير اقترب «جاك» و«روجر»، وتحولا من البقع الحالكة السواد إلى هيكلين يمكن التمييز بينهما، وعن طريق الموافقة الجماعية الضمنية توقفوا جميعًا وربضوا معًا. وخلفهم فوق الأفق كانت توجد مساحة من السماء، فاتحة اللون نسبيًا، حيث كان القمر على وشك البزوغ بعد لحظات قليلة. وزأرت الرياح مرة واحدة في الغابة، فدفعت أسمالهم البالية وجعلتها تلتصق بأجسادهم.

وتحرك «رالف»:

- هيا بنا؟

وراحوا يزحفون للأمام. وكان «روجر» متأخرًا للوراء قليلًا، وشعروا بالكراهية نحو الجبل، وكانت الأطوال المتلألئة للاجون ترقد أسفلهم، ووراءها كانت توجد الشعب المرجانية الملطخة باللون الأبيض، ولحق و«روجر» بهما.

وهمس «جاك»:

- هيا بنا نزحف للأمام على أيدينا وأرجلنا.. فلربما يكون الوحش نائمًا.

وتقدم «روجر» و«رالف» للأمام تاركين «جاك» في هذه المرّة في المؤخرة، برغم كل كلماته الشجاعة، ووصلوا إلى القمة المستوية التي يكون فيها الصخر صلبًا بالنسبة للأيدي والركب.

- مخلوق انتفخت أوداجه.

ووضع «رالف» يده في الرماد الناعم البارد المتخلف عن النيران وكتم صرخة كادت تفلت من فمه، حيث ظهر ألم حاد فجأة في يده وكتفه بسبب الاحتكاك غير المتوقع، وظهرت كالوميض الأضواء الخضراء وتغلغلت متلاشية في الظلام، واستلقى «روجر» خلفه، وكان فم «جاك» قريبًا من أذنه.

- هنالك - حيث توجد عادة الفجوة في الصخر - نوع من السنام المحدب.. أترى؟

وهب الرماد في وجه «رالف» متصاعدًا من النيران الميتة، فلم يستطع مشاهدة الفجوة أو أي شيء آخر؛ لأن الأضواء الخضراء بدأت تهجم عليه مرة أخرى، وتتصاعد في تزايد، وبدأت قمة الجبل تنزلق على جانب.

ومرة أخرى همس «جاك» متراميًا إليه من مسافة بعيدة:

- أأنت خائف؟

ولم يكن خائفًا بقدر ما كان مشدوهًا ومشلولًا. كان معلقًا هنا، غير قادر على الحركة فوق قمة جبل آخر في التناقص، وانزلق «جاك» بعيدًا عنه، وارتطم «روجر» وتحسس مرتبكًا ومتنفسًا في صوت كالهسهسة، ومرّ مندفعًا للأمام وسمعهما يتهامسان.

- هل ترى أي شيء؟

- هنالك..

وكان يوجد أمامهم - وعلى مسافة ثلاث أو أربع ياردات فقط - سنام محدب يشبه الصخرة في مكان خالٍ من الصخور. وتمكّن «رالف» من ساع صوت اصطكاك ضئيل للغاية يأتي من مكان ما. ربما من فمه هو وربط نفسه مع إرادته برباط وثيق، وأذاب خوفه ونفوره وحولهما إلى طاقة من الكراهية، ثم وقف على قدميه. واتخذ خطوتين ثقيلتين مرهقتين نحو الأمام.

وأضاءت خلفهم شظية من القمر متحررة من قيود الأفق. وكان أمامهم شيء ما مثل قرد كبير قد جلس مستغرقًا في النوم، وقد وضع رأسه بين ركبتيه، وبعدئذ زأرت الرياح في الغابة، وحدث هنالك اضطراب في الظلام، ورفع المخلوق رأسه وهو يحمل نحوهم بقايا وجهه المحطم.

ووجد «رالف» نفسه يتخذ خطوات عملاقة بين الرماد، وسمع مخلوقات أخرى تصرخ وتقفز، وفعلوا المستحيل فوق المنحدر المظلم، وسرعان ما أصبح الجبل مهجورًا، حيث لم يتبق فوقه أي شيء. باستثناء العصي الثلاثة التي تركوها، بالإضافة إلى ذلك الشيء الذي كان يحني رأسه.

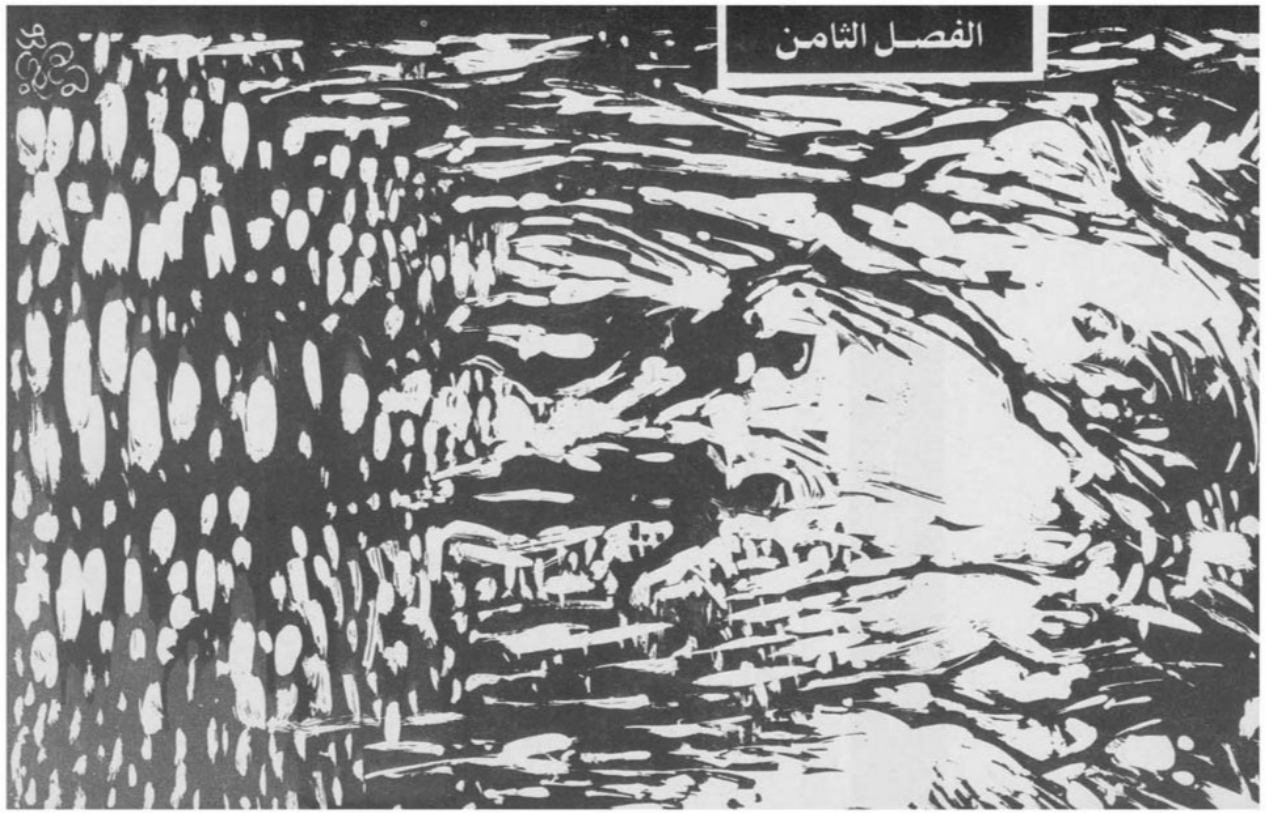
الفصل الثامن

هدية من أجل الظلام

رفع «بيجي» بصره في بؤس وتعاسة عن «البلاج» الشاحب بسبب قرب حلول الفجر، ونظر إلى الجبل المظلم.

- أأنت متأكد، أقصد هل أنت متأكد تمامًا؟

فقال «رالف»:

- لقد قلت لك عشرات المرّات إننا شاهدناه!

- هل تعتقد أننا في أمن وأمان بالأماكن السفلية هنا؟

- كيف يمكنني أن أعرف ذلك؟

واهتز «رالف» مبتعدًا عنه، وسار خطوات قليلة على طول «البلاج» وكان «جاك» راكعًا وهو يرسم نموذجًا دائريًا على الرمال بأصبع السبابة. وترامى صوت «بيجي» إليهما. وكان صوته مكتومًا.

- هل أنتم متأكدون؟ حقًا؟

فقال «جاك» في ازدراء:

- اصعد إلى الجبل وشاهد بنفسك، وتخلص منه.

- لا داعي للخوف.

- الوحش له أسنان، وعيناه سوداوان كبيرتان.

وارتعد في عنف، وخلع «بيجي» نظارته ذات العدسة الواحدة وراح ينظفها.

- وماذا سنفعل؟

فالتفت «رالف» نحو الرصيف.. وكانت المحارة تلمع بين الأشجار، وكات هناك نقطة بيضاء على المكان الذي ستشرق منه الشمس، ورفع كتلة شعره الكثيفة إلى الوراء:

- لست أدري.

وتذكر الهروب الجنوني وهم يهبطون على سفح الجبل:

- لا أعتقد أننا سنتمكن في يوم ما من محاربة شيء له نفس هذا الحجم، وهذا الكلام أقوله لكم بكل صدق وأمانة، فنحن نتناقش، ولكننا لا نستطيع أن نقاتل نمرًا، حيث سنلجأ للتخفي والاختباء، وحتّى «جاك» نفسه سيختبئ.

وكان «جاك» لا يزال ينظر إلى الرمال.

- وماذا عن الصيادين التابعين لي؟

وجاء «سيمون» متسللًا من بين الظلال القريبة من الأكواخ..

وتجاهل «رالف» تساؤل «جاك». وأشار إلى مسحة اللون الأصفر الموجودة فوق البحر.

- طالما يوجد هناك ضوء ونور فنحن نشعر بالشجاعة الكافية. ولكن ما العمل إزاء ذلك الشيء الذي يقبع بجوار مكان النيران كما لو كان لا يريد لنا أن ننقذ حياتنا؟

وبدأ يلوي ويفرك يديه بدون وعي، وارتفع صوته:

- وبذلك لن نتمكن من إشعال نيران الإشارة.. لقد هزمنا.

وظهرت نقطة من الأشعة الذهبية فوق البحر، وسرعان ما أشرقت السماء كلها بالضوء.

- وما رأيكم في الصيادين التابعين لي؟

- أولاد مسلحون بالعصي.

ونهض «جاك» واقفًا على قدميه، وكان وجهه محتقنًا بالدماء وهو يسير مبتعدًا. ووضع «بيجي» نظارته ذات العدسة الواحدة على وجهه ونظر إلى «رالف»:

- لقد أخطأت الآن فقد كنت وقحًا فيما يتعلق بالصيادين التابعين له.

- أوه! اخرس!

وقطع عليهما حديثهما صوت المحارة التي نفخ فيها شخص ما بطريقة غير سليمة تدلّ على عدم الخبرة في النفخ. واستمر «جاك» في النفخ.. كما لو كان يعزف «سيرينادًا» للشمس البازغة إلى أن دبت الحركة في الأكواخ، وزحف الصيادون نحو الرصيف، وتذمر الأطفال الصغار كعادتهم، ونهض «رالف» ملبيًا النداء في طاعة وامتثال، وكذلك نهض «بيجي» وذهبا إلى الرصيف..

- كلام في كلام في كلام لا ينتهي..

وأخذ المحارة من «جاك»:

- إن هذا الاجتماع.

فقاطعه «جاك»:

- أنا الذي دعوت إلى عقد هذا الاجتماع.

- لو لم تدع إلى عقد الاجتماع لكنت قد دعوت إليه. كل ما فعلته أنت هو أنك نفخت في المحارة.

- حسنًا. أليس النفخ في المحارة هو الدعوة إلى عقد اجتماع؟

- أوه! خذ المحارة. استمر في كلامك.. تحدث!

ودفع «رالف» المحارة بين ذراعي «جاك» وجلس على جذع الشجرة.

فقال «جاك»:

- لقد دعوت إلى عقد اجتماع لمناقشة عدة موضوعات. أول شيء هو أنكم تعرفون الآن أننا قد شاهدنا الوحش، فقد زحفنا صاعدين وأصبحنا على مسافة أقدام قليلة منه، واعتدل الوحش في جلسته ونظر إلينا، ونحن لا نعرف ما يفعله هذا الوحش هناك، بل ولا نعرف كنهه ونوعه.

فتعالت الأصوات:

- هذا الوحش خرج من البحر.

- بل خرج من الظلام.

- بل من الأشجار.

فصاح «جاك»:

- التزموا بالهدوء! استمعوا إليَّ، إن الوحش جالس هنالك. ومهما يكن من أمر هذا الوحش.

- فربما يكون منتظرًا القيام بأعمال الصيد والقنص..

- نعم.. قد يكون منتظرًا لكي يقوم بالصيد.

فقال «جاك»:

- الصيد.

وتذكر ارتجافه وارتعاشه القديم للغابة في الغابة:

- نعم، الوحش بمثابة صياد، كل ما هنالك أن تلتزموا بالصمت، والشيء الثاني هو أننا لم يكن بمقدورنا أن نقتله. والشيء الثالث هو أن «رالف» قال عن الصيادين التابعين لي إنهم ليسوا على ما يرام..

- لم أقل هذا الكلام على لإطلاق.

- مازالت المحارة في يدي.. إن «رالف» يعتقد أنكم جبناء وتهربون من الخنزير البري ومن الوحش، وليس هذا هو كل ما أريد قوله.

وكان هناك نوع من الترقب والشعور بالحسرة كما لو كان كل واحد منهم يعرف مقدمًا ما سيفصح عنه من كلام. واستطرد «جاك» بصوت مرتجف، وإن كان في شيء من العزم والتصميم. مواصلًا كلامه أثناء الصمت الخالي من روح التعاون:

- فهو يشبه «بيجي» ويقول نفس الكلام الذي يقوله «بيجي»، فهو لم يعد يصلح كزعيم.

وأمسك «جاك» بالمحارة في مزيد من الإحكام:

- بل هو نفسه شخص جبان.

وتوقف للحظات ثم استطرد:

- ففوق الجبل كنت أنا و«روجر» نشق طريقنا في المقدمة، وكان هو متخاذلًا وراءنا.

- ولكني سرت في المقدمة أيضًا.

- في المؤخرة.

وحملق الولدان كل منهما للآخر من خلال الشعر المتدلي على وجهيهما وقال «رالف»:

- لقد واصلت المسير أيضًا، وبعدئذ أسرعت هاربًا، وأنت أيضًا لذت بالفرار.

- معنى هذا أنك تتهمني بالجبن.

والتفت «جاك» نحو الصيادين.

- وهو ليس صيادًا، ولم يسبق له أن أحضر لنا لحومًا، وهو إنسان ليس على ما يرام، ولا نعرف أي شيء عنه.. وهو لا يفعل شيئًا سوى إصدار الأوامر، ويتوقع من الناس إطاعة أوامره بدون مقابل، وبدون أن يقدم لهم شيئًا. لا يقدم سوى الكلام والكلام.

فصاح «رالف»:

- الكلام! الكلام! من الذي يريد كل هذا الكلام؟ ومن الذي دعا إلى عقد الاجتماع؟

فتصاعدت الدماء في وجه «جاك» وغاص ذقنه للخلف، وحدَّق مشدوهًا لأعلى تحت حاجبيه.

وقال بلهجة لها طابع التهديد والمعنى العميق:

- وهو كذلك. وهو كذلك!

وأسند المحارة على صدره بيد واحدة، وطعن الهواء بأصبع السبابة.

- من منكم يعتقد أن «رالف» ينبغي ألا يكون رئيسًا؟

ونظر في ترقب مملوء بالأمل إلى الأولاد المصطفين على شكل دائرة، والذين كانوا قد أصيبوا بما يشبه التخدير والتجمد والمشاعر الباردة.

وكان هناك صمت مطبق تحت أشجار النخيل.

فقال «جاك» في قوة:

- من يريد ألا يكون «رالف» رئيسًا يرفع يديه.

ولكن الصمت استمر بطيئًا ومملوءًا بالخجل والحياء. وانسحب اللون الأمر تدريجيًا من وجه «جاك»، ثم عاد إلى وجهه في اندفاع مؤلم، ولعق شفتيه، وأمال رأسه بزاوية حتى يتجنب التقاء نظراته مع عين أخرى.

- كم عدد الذين يعتقدون؟

وتضاءل صوته تدريجيًا، واهتزت اليدان الممسكتان بالمحارة، وسلك صوته وتكلم بصوت مرتفع:

- حسنًا إذن.

ثم وضع المحارة بعناية شديدة على العشب عند قدميه، وكانت دموع الإذلال تسيل من عينيه:

- لن أقوم بأي دور بعد الآن، لست معكم.

وكان معظم الأولاد ينظرون لأسفل في تلك اللحظات نحو العشب أو تجاه أقدامهم، وسلك «جاك» صوته مرة أخرى:

- لن أكون جزءًا من مجموعة «رالف»..

ونظر إلى الكتل الخشبية الواقعة إلى جهة يده اليمنى، وراح يحصي عدد الصيادين الذين كانوا يشكلون في يوم ما جوقة المنشدين.

- إنني ذاهب بمفردي، وهو يمكنه أن يصطاد لنفسه الخنازير الخاصّة به. وأي شخص يرغب في القيام بأعمال الصيد يمكنه المجيء معي أيضًا.

وسار متعثرًا إلى خارج المثلث في اتجاه الأراضي المنخفضة المؤدية إلى الرمال البيضاء.

- جاك!

فاستدار «جاك» ونظر خلفه نحو «رالف». وصمت للحظات، وبعدئذ صرخ في تذمر وعنف وغضب:

- لا!

وقفز هابطًا من على الرصيف وجرى على «البلاج» بدون أن ينتبه لتساقط الدموع المستمر من عينيه. وأخذ «رالف» يرقبه إلى أن غامر في داخل الغابة.

وكان «بيجي» ساخطًا.

- لقد ظللت أتكلم يا «رالف» وأنت اكتفيت بالجلوس هناك.

فتحدث «رالف» لنفسه في هدوء وهو ينظر إلى «بيجي» بدون أن يراه.

- إنّه سيعود إلينا، عندما تغرب الشمس سيعود إلينا.

ونظر إلى المحارة الموجودة في يد «بيجي».

- ماذا؟

- لا شيء!

وتوقف «بيجي» عن محاولاته الرامية إلى تعنيف وتوبيخ «رالف» وراح ينظف العدسة المتبقية من نظارته مرة أخرى، وعاد إلى الموضوع الذي يريد التطرق إليه:

- يمكننا الاستغناء عن «جاك» فهناك آخرون كثيرون غيره في هذه الجزيرة، ولكن المشكلة هي أننا لدينا الآن وحش على هذه الجزيرة وإن كنت أنا شخصيًا أشك في وجود هذا الوحش، وفى رأيي أننا يجب أن نبقى قريبين من الرصيف، ولن نحتاج إلى «جاك» في هذه الحالة، ولن نحتاج إلى الصيد الذي يقوم به؛ ولذلك يمكننا الآن أن نتخذ القرار بشأن ما هو صالح ومفيد لنا، ونفرق ما بين الغث والثمين..

- لا يوجد علاج للموقف يا «بيجي». لا يمكننا أن نفعل شيئًا.

وظلوا جالسين لبعض الوقت في صمت مملوء باليأس.. وبعدئذ وقف «سيمون» وأخذ المحارة من «بيجي» الذي كان مذهولًا للغاية، حتى إنّه ظل واقفًا عل قدميه. ونظر «رالف» لأعلى نحو «سيمون».

- سيمون؟ ماذا ستقول في هذه المرّة؟

ودبت أصوات السخرية في أوصال الحلقة، وتضايق «سيمون» بسبب هذه الأصوات.

- في رأيي أنه ينبغي أن يكون هنا شيء ما نفعله. شيء ما نضعه في خطتنا.

واحتبس صوته مرة أخرى بسبب الضغوط النابعة من المجتمعين، وسعى للحصول على المساعدة والتعاطف فاختار «بيجي» والتفت قليلًا نحوه وأمسك بالمحارة بقوّة على صدره البني اللون.

- أعتقد أنه ينبغي لنا أن نصعد الجبل.

فارتعدت الحلقة في خوف - وتوقف «سيمون» عن الكلام فجأة، والتفت نحو «بيجي» الذي كان ينظر إليه نظرات مملوءة بالسخرية وعدم الفهم:

- وما فائدة الصعود إلى ذلك الوحش الموجود هنالك في حين لم يتمكّن «رالف» والشخصان الآخران من عمل أي شيء في المرّة السابقة؟

فهمس «سيمون» بالإجابة قائلًا.

- وهل هناك شيء آخر يمكننا أن نفعله؟

وبعد أن فرغ «سيمون» من خطبته سمح لـ «بيجي» أن يأخذ المحارة من يديه. وبعدئذ انسحب متراجعًا وجلس بعيدًا عن الآخرين بقدر الإمكان.

وبدأ «بيجي» يتكلم في مزيد من اليقين ولو لم تكن الظروف عصيبة للغاية لكان الحاضرون قد أدركوا أنه يتكلم أيضًا في شيء من البهجة والسعادة.

- لقد سبق أن قلت: إنّه يمكننا أن نتصرف ونعالج الأمور بدون وجود شخص معين معنا، والآن أقول لكم إنّه ينبغي أن نقرر ما يمكننا أن نفعله، وأعتقد أن بمقدوري أن أقول لكم وأخبركم بما سيقوله لكم «رالف» توًا. إنّه سيقول لكم إن أهم شيء في هذه الجزيرة هو إطلاق الدخان، ولا يمكن أن نطلق الدخان بدون أن نشعل النيران.

وصدرت عن «رالف» حركة تنم عن القلق:

- لن نذهب لإشعال النيران يا «بيجي» فذلك الشيء يجلس لنا هنالك فوق الجبل.. سنضطر للبقاء هنا.

فرفع «بيجي» المحارة كما لو كان يريد إضافة بعض القوة لكلماته التالية:

- إذا كنا لا نملك إشعال النيران فوق الجبل فلماذا لا نشعل النيران في الأماكن السفلية هنا، حيث يمكننا إقامة النيران بين تلك الصخور، بل ويمكن إقامتها على الرمال أيضًا، وبهذه الطريقة نحقق غرضنا ونطلق الدخان؟

- هذا كلام سليم!

- الدخان!

- عند بركة الاستحمام!

وبدأ الأولاد يثرثرون ويتكلمون كالمعتوهين، وكان «بيجي» هو الوحيد الذي لديه الجرأة الذهنية التي أعانته على اقتراح نقل النيران من الجبل. وقال «رالف»:

- إذن سنشعل النيران في الأماكن السفلية هنا.

ونظر فيما حوله:

- ويمكننا أن نقيم النيران في هذا المكان الذي يقع ما بين بركة الاستحمام والرصيف. وبالطبع..

وتوقف على الكلام متجهمًا، وراح يفكر وهو يقضم بدون وعى أحد أظافره بأسنانه.

- بالطبع لن يظهر الدخان بكميات كبيرة، ولن يُشاهد من مسافات بعيدة، ولكننا لا نستطيع الاقتراب، الاقتراب من..

فأومأ الآخرون وقد فهموا تمامًا ما يهدف إليه، فلن تكون هناك حاجة إلى الاقتراب.

- سنقوم بإشعال النيران الآن.

إن أعظم الأفكار هي الأفكار التي تتسم بالبساطة، وما إن وجدوا شيئًا يفعلونه حتى راحوا يعملون في حماس واهتمام شديدين. وكان «بيجي» يموج بالبهجة والمزيد من الحرية عقب رحيل «جاك» كما كان يموج بالفخر وهو يشارك لصالح الجماعة، حتى إنّه ساعد في الذهاب وإحضار الأخشاب، وكانت الأخشاب التي يحضرها قريبة وفى متناول اليد، حيث كانت هناك شجرة واقعة على الأرض وملقاة على الرصيف، ولم يكونوا بحاجة إلى الاستعانة بتلك الشجرة أثناء الاجتماعات؛ لأن قدسية الرصيف كانت قد حمت كل شيء موجود هناك، حتى ولو كان عديم الفائدة. وبعدئذ أدرك التوءمان أنهما سيحصلان على نيران بالقرب منهما، مما سيجعلهما يشعران بالارتياح والراحة في الليل، وقد دفع هذا القرار بعض الأطفال الصغار إلى الرقص والتصفيق الأيدي.

ولم تكن الأخشاب في نفس جفاف الأخشاب التي كانت تستخدم فوق الجبل، فالكثير منها كان رطبًا ومسوسًا، ومليئًا بالحشرات المهرولة بسرعة، لذلك كان الأمر يستلزم رفع الكتل الخشبية من فوق الأرض بعناية وحرص؛ لكيلا تتهشم وتتقوض وتتحول إلى مسحوق مخضل بالماء، والأكثر من هذا أن الأولاد لكي يتجنبوا التوغل في الغابة كانوا يركزون على الأخشاب القريبة الملقاة على الأرض، بغض النظر عن تشابكها مع نباتات جديدة نامية، فمشارف الغابة وحوافها والصخور المنخفضة القريبة من البحر كانت أماكن مألوفة لهم؛ لأنهّا قريبة من المحارة والأكواخ، ومحببة للغاية في ضوء النهار. ولم يفكر أحد فيما يمكن أن يكونوا عليه بالليل؛ ولذلك راحوا يعملون في نشاط كبير وبهجة هائلة، ومع ذلك أصبح هناك مع مرور الوقت مسحة من الرعب في نشاطهم، وقدر من الهستيريا في ابتهاجهم، وشيدوا هرمًا من الأوراق والأغصان والفروع والكتل الخشبية فوق الرمل العاري بجوار الرصيف، ولأول مرة في الجزيرة خلع «بيجي» نظارته التي تضم

عدسة واحدة وركع على الأرض وقام بتركيز أشعة الشمس على الأوراق سريعة الاشتعال، وسرعان ما ظهر سقف من الدخان وكتلة من اللهيب الأصفر اللون.

وشعر الأطفال الذين لم يشاهدوا سوى نيران قليلة من الكارثة الأولى بالإثارة الجنونية، فراحوا يرقصون ويغنون وينشدون، وساد بين الجميع جو يشبه جو حفلات السمر.

وأخيرًا توقف «رالف» عن العمل، ووقف وراح يمسح العرق عن وجهه، وقال:

- ينبغي أن نحرص على إشعال نيران صغيرة، فهذه النيران كبيرة للغاية، بحيث لا يمكنها الاستمرار بدون انطفاء.

وجلس «بيجي» على الرمال في حرص وبدأ ينظف نظارته ذات العدسة الواحدة، وقال:

- يمكننا أن نجري التجارب. وينبغي أن نعرف كيفيّة إشعال نيران صغيرة حامية، وبعدئذ نضع عليها أغصانًا خضراء للحصول على الدخان، ولابد أنّ هناك أنواعًا من الأوراق أفضل من أنواع أخرى.

وما إن هدأت النيران حتى انتهت مشاعر الإثارة، فتوقف الأطفال الصغار عن الرقص والغناء والإنشاد، وبدءوا يسيرون في تثاقل نحو البحر، أو أشجار الفاكهة، أو الأكواخ.

وألقى «رالف» نفسه في تثاقل على الرمال.

- سيتعين علينا أن نعد قائمة أخرى جديدة بأسماء من سيهتمون بشئون النيران.

- إذا استطعت العثور عليهم.

ونظر فيما حوله، وعندئذ أدرك لأول مرة أن عدد الأولاد الكبار ضئيل، وأدرك السبب الذي جعل العمل شاقًا للغاية.

- أين «موريس»؟

ومسح «بيجي» نظارته المكونة من عدسة واحدة.

- أتوقع أن يكون.. لا، فهو لن يذهب إلى الغابة بمفرده.. أليس كذلك؟

فقفز «رالف» وجرى بسرعة حول النيران، ووقف بجوار «بيجي» ممسكًا بشعره.

- ولكن كان ينبغي أن يكون لدينا قائمة بالأسماء.. يوجد الآن: «أنت» و«أنا» و«سام» و«إيريك» و..

ولم يستطع النظر إلى «بيجي» ولكنّه تكلّم بطريقة عارضة:

- أين «بيل»؟ وأين «روجر»؟

فانحنى «بيجي» للأمام ووضع قطعه من الأخشاب فوق النيران:

- أتوقع أنهما قد انصرفا.. وأتوقع أنهما لن يشتركا في اللعب أيضًا.

وجلس «رالف» وبدأ يحفر ثقوبًا صغيرة في الرمال، وقد أدهشه أن يرى أن أحدًا تتساقط منه قطرة دماء بجوار الرمال، وفحص ظفره المقضوم عن كثب، وشاهد قطرة الدماء الصغيرة التي تجمعت في المكان الذي قضم، والذي يحيط بالظفر.

واستأنف «بيجي» كلامه:

- لقد شاهدتهما وهما يتسللان بعيدًا أثناء قيامنا بتجميع الأخشاب. ولقد سارا في ذلك الاتجاه، وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه «جاك».

وانتهى «رالف» من فحص ظفره، ونظر لأعلى نحو الهواء، وكانت السماء مختلفة في ذلك اليوم ومملوءة بالضباب الشديد، حتى إن الهواء الساخن في بعض الأماكن كان يبدو أبيض اللون، وكأنما كانت السماء تتعاطف مع التغييرات الهائلة التي حدثت بينهم، وكان قرص الشمس مثل الفضة المعتمة، كما لو كان أكثر قربًا وأقل حرارة، ولكن الهواء كان خانقًا.

- لقد كانوا يثيرون المتاعب دائمًا، أليس كذلك؟

وجاء الصوت قريبًا من كتفه، وكانت نبرات الصوت تدل على القلق:

- يمكننا الاستغناء عنهم، ولسوف نكون أكثر سعادة بدونهم، أليس كذلك؟

وجلس «رالف» وجاء التوءمان يجران كتلة خشبية كبيرة ويبتسمان في بهجة لانتصارهما ونجاحهما، وألقيا بالكتلة الخشبية بين الجمرات مما جعل الشرر يتطاير.

- وباستطاعتنا أن نبذل جهودًا صادقة بمفردنا، أليس كذلك؟

وجلس «رالف» على الرمال بدون أن يتكلم لفترة طويلة، وذلك أثناء تعرض الكتلة الخشبية للجفاف، ثم سريان النيران فيها وتحولها إلى اللون الأحمر الساخن، ولم يشاهد «بيجي» وهو يذهب إلى التوءمين ويتهامس معهما، ولم يلحظ ذهاب الأولاد الثلاثة معًا إلى الغابة.

- أأنت هنا؟

وأفاق من شروده الذهني في شيء من الاهتزاز، وكان «بيجي» و«الآخرون» يقفون إلى جواره. وكانوا محملين بالفاكهة.

وقال «بيجي»: لقد رأيت أنه ينبغي أن نتناول نوعًا من الطعام. وجلس الأولاد الثلاثة، وكان معهم كمية هائلة من الفاكهة الناضجة للغاية، وابتسموا لـ «رالف» عندما أخذ بعض الفاكهة وبدأ يتناولها..

وقال «رالف»:

- شكرًا.

وبعدئذ قال بلهجة تنم عن الدهشة والابتهاج:

- شكرًا جزيلًا.

فقال «بيجي»:

- تصرف بنفسك في الأمور ولا تعتمد عليهم، فهؤلاء الناس ليس عندهم إدراك سليم، وهم الذين يخلقون المتاعب في هذه الجزيرة، ولسوف نعمل على إشعال نيران صغيرة حامية.

وتذكر «رالف» ما كان يقلق باله:

- أين «سيمون»؟

- لا أدري.

- أتعتقد أنه ذهب ليتسلق الجبل؟

فانفجر «بيجي» في عاصفة من الضحك، وتناول المزيد من الفاكهة.

- ربما، فهو إنسان مخبول ومعتوه.

وابتلع كتلة الطعام التي تملأ فمه.

وكان «سيمون» قد مر عبر منطقة أشجار الفاكهة، ولكن الأطفال الصغار كانوا مشغولين للغاية في إشعال النيران على البلاج، مما حال بينهم وبين تتبعه واقتفاء أثره هنالك. واستمر «سيمون» في سيره بين النباتات المتسلقة إلى أن وصل إلى الحصيرة الهائلة المنسوجة بالقرب من المساحة المكشوفة وزحف إلى داخلها.. وكانت أشعة الشمس تقذف بنفسها إلى ما وراء الحاجز المكون من الأوراق، وكانت الفراشات ترقص في المنتصف رقصاتها الدائبة المعروفة، وانحنى لأسفل، فسقط عليه سهم الشمس، وفى المرّة السابقة كان الهواء يبدو وكأنه يعطى ذبذبات حرارية، ولكنّه في هذه المرّة كان يهدد حياته، وسرعان ما أخذ العرق ينساب من شعره الخشن الطويل، فانتقل من مكانه إلى مكان آخر في شيء من القلق، ولكنّه لم يستطع تجنب الشمس، وسرعان ما بدأ يشعر بالعطش، ثم بالعطش الشديد.

واستمر في جلسته.

وفى مكان بعيد عن «البلاج» كان «جاك» واقفًا أمام مجموعة صغيرة من الأولاد، وكانت السعادة تبدو على وجهه.

وقال:

- الصيد.

وسيطر على وجدانهم. كان كل واحد منهم يضع على رأسه بقايا طاقية سوداء، وكانوا قد وقفوا منذ فترة طويلة في صفين، وكانوا يتسمون بالوقار والرزانة، وكانت أصواتهم هي أغنية الملائكة:

- سنقوم بالصيد، وسأكون أنا الرئيس.

فأومئوا برء وسهم، ومرت الأزمة بسهولة.

- وبعد ذلك ننظر في مسألة الوحش.

وتحركوا متجهين إلى لغابة.

- وأنا أقول لكم: لن يقلقنا موضوع الوحش.

وأومأ إليهم برأسه:

- سنتعمد نسيان الوحش ولا نفكر فيه.

- هذا الكلام سليم؟

- نعم.

- يجب أن ننسى الوحش.

وإذا كان «جاك» قد دُهش من اتقاد حماسهم، فإنّه لم يُظهر ذلك.

- وهناك شيء آخر، لن نستلم كثيرًا للأحلام في هذه الأماكن السفلية الغريبة من «البلاج» فهذه الأحلام تجعلنا عاجزين عن إنجاز الأمور.

فوافقوا في حماس خارج نطاق أعماق حياتهم الخاصّة الغارقة في القلق والعذاب.

- والآن استمعوا إلى. قد نذهب فيما بعد إلى صخرة القلعة، ولكن سأعمل على الحصول على مزيد من الأولاد الكبار الملتفين حول المحارة، وسنقوم باصطياد خنزير ونعد وليمة.

وتوقف عن الكلام للحظات ثم استطرد في بطء.

- وفيما يتعلق بالوحش فإننا عندما نقتل خنزيرًا. سنترك له بعض لحوم الخنزير، فلربما يؤدى هذا إلى امتناعه عن مضايقتنا.

ونهض واقفًا فجأة:

- سننطلق الآن إلى الغابة للقيام بأعمال الصيد.

واستدار وجرى مهرولًا، فساروا بعد لحظات في طاعة وامتثال..

وانتشروا في شيء من العصبية في الغابة، وعلى الفور عثر «جاك» على روث الخنازير، والجذوع المبعثرة التي تدلّ على وجود خنازير، وشاهد آثار الأقدام الحديثة للخنازير، فأعطى إشارة لباقي الصيادين؛ لكي يلتزموا بالهدوء، وسار هو بمفرده متقدمًا للأمام، وكان سعيدًا، وكانت ملابسه القديمة البالية في نفس لون ظلام الغابة المملوء بالرطوبة، وزحف هابطًا على أحد المنحدرات المؤدية إلى بعض الصخور والأشجار المتناثرة بالقرب من البحر.

وكانت الخنازير مستلقية كحقائب منتفخة مملوءة بالشحوم واللحوم تستمتع استمتاعًا جسديًا بالظلال الوارفة تحت الأشجار، ولم تكن هناك رياح، وكانت الخنازير ترقد في اطمئنان بدون أن تساورها أدنى شكوك.

وكان «جاك» قد تعلم من الخبرات السابقة أن يكون في نفس صمت الظلال، فتسلل مبتعدًا مرة أخرى، وأصدر أوامره للصيادين التابعين له المختبئين، وسرعان ما بدءوا جميعًا في التقدم للأمام ببطء شديد وهم يتصببون عرقًا بين جوانب الصمت والحرارة، ورفرفت سنبلة قمح في تكاسل تحت الأشجار، وكانت أكبر خنزيرة ترقد مبتعدة قليلًا عن باقي الخنازير، وكانت غارقة في غبطة ماديّة عميقة، وكان جلدها يكتسي باللون الأسود واللون الوردي، وكان الكيس الهائل لبطنها مطرزًا بصف من الخنازير الصغيرة التي كانت إما مستغرقة في النوم أو منهمكة في النبش والحفر، أو منخرطة في صراخ رفيع حاد.

وتوقف «جاك» على مسافة ١٥ ياردة من قطيع الخنازير، وصوب ذراعه نحو الخنزيرة الكبيرة في دقة كبيرة، ونظر حوله مستفسرًا؛ لكي يتأكد أن كل شخص قد فهم، وأومأ جميع الأولاد له برؤوسهم، وانزلق للخلف صف الأذرع اليمنى:

- الآن!

ووقفت الخنازير فجأة في رعب، وطارت الرماح الخشبية برؤوسها المدببة للغاية من على مسافة عشر ياردات فقط نحو الخنزيرة، التي وقع عليها الاختيار، واندفعت خنزيرة صغيرة في صراخ حاد مجنون نحو البحر وهي تجر وراءها الرمح الذي أطلقه «روجر»، وصرخت الخنزيرة الكبيرة صرخة حادة لاهثة وترنحت لأعلى عندما انغرس رمحان في خصرها، وتصايح الأولاد واندفعوا للأمام، وتبعثرت الخنازير الصغيرة وشقت الخنزيرة الكبيرة طريقها بين صف الأولاد، وارتطمت وتخبطت وهي تتجه بصعوبة نحو غياهب الغابة.

- انطلقوا وراءها!

فتسابقوا وراء آثار أقدام، ولكن الغابة كانت مظلمة متشابكة للغاية، حتى إن «جاك» راح يلعن ويسب، وأوقف الأولاد وألقى نظرات سريعة بين الأشجار، ولم يقل شيئًا لبعض الوقت، إلا أنه كان يتنفس في وحشية، مما جعلهم يشعرون بالرعب، وينظر بعضهم لبعض في إعجاب مشوب بالقلق. وسرعان ما أشار بأصبعه في عنف نحو الأرض.

- وهنالك.

وقبل أن يتمكّن الآخرون من فحص نقطة الدماء كان «جاك» قد انحرف فجأة، وبدأ يخمن مكان آثار الأقدام على وجه التقريب ويلمس غصنًا متداعيًا، ثم سار نحو اليمين في شيء من التردد والغموض، ثم على نحو أكيد، فتتبعه الصيادون.

وتوقف أمام مخبأ.

- إنها توجد هنالك في المخبأ.

فأحاطوا بالمخبأ، ولكن الخنزيرة تمكنت من الإفلات إلا أنها أصيبت برمح آخر في خصرها، وكانت الأطراف الغليظة للرماح المتدلية من جسدها تعوقها، كما كانت الأطراف المدببة للرماح المنغرسة في جسدها تسبب لها عذابًا شديدًا، وتعثرت في شجرة، فأدى ذلك إلى دخول الرماح في جسدها لمسافات أبعد، فأصبح بعد ذلك من السهل على أي واحد من الصيادين تتبعها عن طريق نقط الدماء الزاهية.

وكانت فترة ما بعد الظهر مثيرة للأعصاب ومملوءة بالضباب، وشنيعة بسبب الحرارة الشديدة المشبعة بالرطوبة، فترنحت الخنزيرة وهي تشق طريقها بصعوبة أمامهم، في حين كانت الدماء تنزف منها، والجنون يشع منها. وكان الصيادون يتتبعونها ويشدون عليها في رغبة عارمة، حيث كانوا يشعرون بالإثارة الشديدة الناجمة عن المطاردة الطويلة، والدماء التي تتساقط قطرة وراء قطرة، وبعدئذ أصبح بمقدورهم رؤيتها، بل والتقدم وراءها بنفس سرعتها، ولكنّها استجمعت كل ما لديها من قوة متبقية وانطلقت مسرعة أمامهم مرة أخرى، وأصبحوا وراءها مباشرة، عندما ترنحت في مكان مكشوف، حيث كانت توجد أزهار جميلة، وحيث كانت الفراشات تتراقص حول بعضها البعض، وحيث كان الهواء حارًا وساكنًا.

وهنا أصيبت الخنزيرة بالانهيار تحت وطأة الحرارة الشديدة، فسقطت على الأرض، فألقى الصيادون بأنفسهم نحوها، وهذا الهياج المخيف القادم لها من عالم مجهول لها جعلها مسعورة في جنون، فراحت تصرخ في حدة، وتقاوم في عناد، وكان الجو مشبعًا بالعرق والضجيج والدماء والرعب، وجرى «روجر» حول الكومة وراح ينخس بحربته كلما ظهرت لحوم الخنزيرة، وكان «جاك» معتليًا الخنزيرة وهو يطعنها بسكينته، ووجد «روجر» موضعًا لرأس الحربة الخاصّة به، وراح يدفع ويدفع إلى أن أصبح مستندًا بكل ثقله. فتحرك الرمح للأمام بوصة وراء بوصة، وأصبح الصراخ الحاد الممتلئ بالرعب صراخًا عاليًا للغاية، إلى حد الجنون، وبعدئذ عثر «جاك» على حلق الخنزيرة، فتدفقت الدماء ساخنة فوق يديه، فانهارت الخنزيرة تحتهم، وكان وزنهم ثقيلًا فوقها، وكانت طموحاتهم قد تحققت فوق جسدها. وكانت الفراشات مازالت تتراقص، ومازالت منهمكة في وسط الأراضي الفضاء.

وأخيرًا هدأت الأعمال الفورية العاجلة التي تتعلق بالقتل، وتراجع الأولاد للخلف، ونهض «جاك» واقفًا مادًا يديه.

- انظروا!

وانخرط في الضحك، وراح يضربهم في رفق، وضحك الأولاد عندما شاهدوا راحتي يديه الملطختين بالدماء والروائح الكريهة، وبعدئذ قام «جاك» بجذب «موريس» نحوه، ومسح يديه الملطختين بالدماء في وجنتي «موريس»، وبدأ «روجر» يشد رمحه، ولاحظ الأولاد ذلك لأول مرة، وثبت «روبرت» هذا الأمر في عبارة جعلت الجميع يتفجرون في عاصفة من الضجيج والصخب.

- على ردفيها مباشرة؟

- هل سمعت؟

- هل سمعت ما قاله؟

- على ردفيها مباشرة؟

وفى هذه المرّة قام كل من «روبرت» و«موريس» بتمثيل الأحداث التي تمت. ومثل «موريس» دور الخنزيرة وهي تبذل جهودًا مضنية لتجنب الرمح المنطلق نحوها، وكان تمثيله رائعًا للغاية، حتى إن الجميع انفجروا في الضحك الصاخب.

وأخيرًا أصبح التمثيل مملًا وتافهًا، وبدأ «جاك» ينظف يديه الملوثتين بالدماء فوق الصخر، ثم عكف على العمل في تجهيز الخنزيرة، فشق بطنها، وسحب الجيوب الساخنة التي تضم الأحشاء الملوثة وألقاها على كومة حطب فوق الصخر، في حين كان الآخرون يرقبونه. وكان «جاك» يتكلم أثناء تأديته العمل:

- سنأخذ اللحوم ونذهب بها إلى البلاج، وسأذهب أنا إلى الرصيف وأدعو الجميع لتناول الوليمة، وذلك للاقتصاد في الوقت.

وتكلم «روجر»:

- أيها الرئيس.

- أوه؟

- كيف يمكننا أن نشعل النيران؟

فجلس «جاك» القرفصاء ونظر متجهمًا إلى الخنزير:

- سنغير عليهم.. سنشن غارة عليهم. ونحصل على النيران.. «هنري» وأنت يا «روجر» و«بيل» و«موريس» سنطلي وجوهنا، ونتسلل إليهم، ويقوم «روجر» بخطف غصن مشتعل، في حين أقول أنا لهم ما أريد قوله، والباقون منكم يعودون من حيث أتوا؛ لأننا سنشعل النيران هناك. وبعد ذلك..

وتوقف عن الكلام ونهض واقفًا، وراح ينظر إلى الظلال المترامية تحت الأشجار، وكان صوته منخفضًا عندما استأنف كلامه.

- ولكننا سنترك جزءًا من اللحوم من أجل..

وركع لأسفل مرة أخرى، وبدأ يعمل في همة ونشاط مستخدمًا سكينته، وتزاحم الأولاد حوله، وتكلم من فوق كتفه موجهًا كلامه لـ «روجر».

- شذب عصًا من كلا الطرفين واجعلها حادة؟

ونهض واقفًا على الفور ممسكًا برأس الخنزيرة التي تقطر دماء في يديه.

- أين تلك العصا؟

- ها هي ذي.

- احشر أحد طرفيها في التربة. أوه! إن التربة صخرية! احشرها في ذلك الشرخ هنالك..

ورفع «جاك» الرأس لأعلى، ودفع الحلق اللين بقوّة لأسفل على الجانب المدبب للعصا الذي اخترق إلى داخل الفم، ووقف متراجعًا للخلف وكان الرأس معلقًا هناك، في حين كانت قطرات قليلة من الدماء تتساقط على العصا.

وبشكل غريزي تراجع الأولاد الآخرون للوراء أيضًا، وكانت الغابة صامتة للغاية، وراحوا ينصتون في انتباه شديد، فكان أعلى الأصوات هو صوت طنين الذباب الذي يحوم فوق الأمعاء الملقاة المتناثرة.

وتكلم «جاك» هامسًا:

- التقطوا الخنزيرة؟

فقام «موريس» و«روبرت» بوضع جثة الخنزيرة في عصي كالأسياخ، ورفعا الحمل الثقيل المميت، ووقفا استعدادًا. وظهر عليهما فجأة شيء من الدهاء وهما يقفان فوق الدماء الجافة وبين طيات الصمت المطبق.

وتكلم «جاك» بصوت مرتفع:

- هذا الرأس سنقدمه هدية للوحش.

وتقبل الصمت الهدية، وأدخل في قلوبهم الرعب والرهبة.. الرأس هنالك معتم العينين، ومبتسم ابتسامة خفيفة، ومسودة الدماء فيما بين أسنانها. ثم انطلقوا مهرولين فجأة وبأقصى سرعة ممكنة عبر الغابة ونحو «البلاج» المكشوف.

وظل «سيمون» واقفًا في مكانه كتمثال صغير بني اللون مختفٍ وراء الأوراق، وحتّى إذا أغلق عينيه فإن رأس الخنزير كان يتمثل في ذهنه مثل الصورة المتلوية، وكانت عيناه شبه المغلقتين قاتمتين بفعل المزاج الكلبي اللامحدود الذي يسود فترة المراهقة، وأكدتا لـ «سيمون» أن كل شيء - ما هو إلا عمل رديء.

- أعرف ذلك.

وأدرك «سيمون» أنه قد تكلّم بصوت مرتفع، ففتح عينيه بسرعة، وكان هناك الرأس المبتسم تحت ضوء النهار العجيب متجاهلة الذباب والأمعاء المتناثرة، بل ومتجاهلة الإهانة التي تكتنف وضع عصا في جثتها كالخازوق.

وأشاح بوجهه، ونظر بعيدًا وهو يلعق شفتيه الجافتين. هدية من أجل الوحش. ألا يستطيع الوحش أن يجئ ليأخذ الهدية؟ وبدا له أن الرأس يتفق معه في الرأي. وقال له الرأس في صمت: اهرب وأنقذ نفسك وعد إلى الآخرين. لقد كانت نكتة حقًا.. ولماذا ينبغي لك أن تهتم؟ لقد كنت فقط مخطئًا، وهذا كل ما في الأمر. شيء من الصداع، وربما أكلت شيئًا ما. عد إلى الآخرين أيها الطفل. هكذا قال الرأس في صمت.

ونظر «رالف» لأعلى وهو يشعر بثقل شعره المبلل، وحلق في السماء، وهنالك في الأعالي كانت توجد سحب في هذه المرّة فقط: بروج هائلة تتكشط بعيدًا فوق الجزيرة، رماديّة، وصفراء شاحبة، ونحاسية اللون. وكانت السحب تحتضن الجزيرة، وكانت تضغط على الجزيرة وتفرد لحظة وراء لحظة هذه الحرارة المطبقة التي تبث العذاب، بل إن الفراشات هجرت المكان المكشوف الذي يبتسم فيه ذلك الشيء القذر ويقطر دمًا. وأخفى «سيمون» رأسه مع الحرص على الإبقاء على عينيه مغلقتين، وبعدئذ وضع يده على عينيه.

ولم تكن هناك ظلال تحت الأشجار.. وكان كل مكان يسوده سكون لؤلؤي، حتى إن الشيء الحقيقي كان يبدو وهميًا وبدون تحديد واضح. وكانت كومة الأمعاء بمثابة بقعة سوداء من الذباب الذي يئز ويطن مثل المنشار. وبعد برهة عثر هذا الذباب على «سيمون»، فبعد أن أكل في نهم وشراسة هبط على قطرات العرق المتصببة من «سيمون» وشرب. وراح الذباب يدغدغ تحت فتحتي أنفه ويلعب لعبة «النطة» الإنجليزية على فخذيه. وكان هذا الذباب أسود اللون، ومتقزح الألوان، وبأعداد هائلة لا حصر لها. وأمام «سيمون» كان سيد الذباب (Lord Of The Flies) ممسكًا بعصا «سيمون» في تشبث، وكان مبتسمًا، وأخيرًا استسلم «سيمون» ونظر وراءه فشاهد الأسنان البيضاء، والعينين المعتمتين، والدماء وسيطرت على حلقته تلك المعرفة القديمة التي لا يمكن الهروب منها. وعلى صدغ «سيمون» الأيمن بدأ النبض يدق في ذهنه.

وكان «رالف» و«بيجي» يرقدان على الرمال ويحملقان في النيران ويلقيان بالحصى في قلب النيران العديمة الدخان:

- لقد احترق تمامًا ذلك الغصن.

- أين «سام» و«إريك»؟

- ينبغي أن نحصل على المزيد من الأخشاب. ولقد نفدت من عندنا الأغصان لخضراء.

وتنهد «رالف» وهب واقفًا، ولم تكن هناك أية ظلال تحت أشجار النخيل بمنطقة الرصيف، لم يكن هناك سوى ذلك الضوء الغريب الذي يبدو وكأنه يأتي من جميع الاتجاهات في وقت واحد. وانطلق الرعد مدويًا في الطبقات العليا بين السحب الكثيفة.

- سنحصل على كميات وفيرة من الماء تملأ دلاء وآنية عديدة.

- وماذا عن لنيران؟

وهرول «رالف» مسرعًا نحو الغابة، وعاد ومعه غصن أخضر اللون به أوراق عريضة، وألقى به في النيران فطقطق وخشخش وتجعدت الأوراق، وتصاعد الدخان الأصفر اللون منتشرًا.

وأخذ «بيجي» يرسم نموذجًا في الرمال بأصابعه على سبيل التسلية.

- المشكلة الآن هي أنه لا يوجد هنا معنا عدد كافي من الناس لرعاية شئون النيران، ويمكنك أن تعتبر «سام» و«إريك» شخصًا واحدًا، فهما يفعلان كل شيء معًا.

- بالطبع.

- حسنًا. ليس هذا عدلًا، أليس كذلك؟ ينبغي لهما أن يأخذا دورتين في العمل لا دورة واحدة.

وفكر «رالف» في هذا الكلام وفهم جوانب الموقف، وتضايق من نفسه عندما أدرك أن تفكيره محدود ولا يتناسب مع ولد كبير مثله، وتنهد مرة أخرى، لقد كانت الجزيرة تسير من سيئ لأسوأ.

ونظر «بيجي» إلى النيران.

- سنحتاج حالًا إلى غصن أخضر آخر.

فدار «رالف» على قدمه:

- يا «بيجي» ماذا سنفعل؟

- سندبر أمورنا بدونهم.

- ولكن النيران..

وتجهم وهو ينظر إلى أطراف الأغصان غير المحترقة، والتي اكتست بخليط من اللون الأبيض واللون الأسود، وحاول أن يعبر عن أفكاره ويضعها في صيغة معينة.

- إنني أشعر بالخوف.

وشاهد «بيجي» وهو ينظر لأعلى نحوه، فاستطرد في ارتباك:

- لست خائفًا من الوحش.. أقصد أنني خائف من ذلك الأمر أيضًا، ولكن لا أحد يدرك مدى أهميّة النيران، فلو أن أحدًا ألقى لك بحبل أثناء تعرضك للغرق، ولو أنّ طبيبًا قال لك: تناول هذا الدواء لأنك إذا لم تتناوله ستتعرض للموت - ألن تبادر إلى فعل ذلك؟

- بالطبع سأبادر إلى فعل ذلك.

- ألا يدركون؟ ألا يفهمون؟ ألا يدركون أننا سنموت هنا على هذه الجزيرة إذا لم نشعل النيران ونطلق إشارة الدخان؟ انظر إلى ذلك!

وكانت هناك موجة من الهواء المتقد بالسخونة ترتعش فوق الرماد، ولكن بدون أي أثر للدخان.

- إننا لا نستطيع الإبقاء على النيران مشتعلة، وهم لا يهتمون بالنيران، وما هو أسوأ من ذلك..

ونظر في إمعان إلى وجه «بيجي» المتصبب عرقًا.

- والأكثر من ذلك - وهذا لا يخطر على بالى مطلقًا - لنفرض أنني سرت على نهج الآخرين فيما يتعلق بعدم الاهتمام بالنيران، فماذا سيحدث لنا عندئذ؟

وخلع «بيجي» نظارته وهو يشعر بالقلق الشديد:

- لست أدرى يا «رالف»، كل ما هنالك هو أنه ينبغي لنا ان نستمر على هذا النهج الذي نسلكه الآن، وهذا هو كل ما في الأمر، وذلك هو ما يفعله الأولاد الكبار الراشدون.

وبعد أن بدأ «رالف» في البوح بما يدور في سريرته استطرد قائلًا:

- يا «بيجي»، ما هو الخطأ في ذلك؟

فنظر «بيجي» إليه في دهشة:

- هل تقصد الـ..

- لا، ليس هذا، أقصد.. ما الذي يجعل الأمور تنهار على النحو الذي تنهار عليه لآن؟

ومسح «بيجي» نظارته في بطء وانهمك في التفكير.

وعندما أدرك «بيجي» أن «رالف» بدأ يتقبله ويرتاح إليه إلى حد كبير احمرّ وجهه في فخر واعتزاز.

- لست أدري يا «رالف»، وأعتقد أنه هو الذي تسبب في انهيار الأوضاع..

- تقصد «جاك»؟

- «جاك» لقد كان هناك «تابو» أو نوع من التحريم يدور أيضًا حول تلك الكلمة.

فأومأ «رالف» برأسه في وقار وقال:

- نعم، لابد أن الأمر كذلك.

وانفجرت الغابة بالقرب في زئير صاخب، إذ كانت هناك أشكال شيطانية لها وجوه مطلية بألوان حمراء وخضراء. وبيضاء تندفع في عواء وصراخ، مما جعل الأطفال الصغار يهربون في بكاء وصراخ، وبزاوية من عينه شاهد «رالف» «بيجي» وهو ينطلق هاربًا، واندفع شخصان شيطانيان نحو النيران، فاستعد «رالف» للدفاع عن نفسه، ولكنهما انتزعا أغصانًا شبه محترقة وانطلقا بها على طول «البلاج» ووقف ثلاثة آخرون ساكنين وراحوا ينظرون إلى «رالف» وعرف «رالف» أن أطول شخص بينهم هو «جاك»، وكان «جاك» متخشبًا وعاريًا، فيما عدا الحزام وبعض الطلاء.

واستجمع «رالف» أنفاسه وتكلم:

- حسنًا؟

فتجاهله «جاك» ورفع حربته وبدأ في الصياح:

- استمعوا إليّ جميعًا. أنا والصيادون التابعون لي نعيش على «البلاج» عند صخرة منبسطة، ونحن نقوم بالصيد وإعداد الولائم ونمرح في سعادة، فإذا أردتم الانضمام إلى قبيلتي فتعالوا وشاهدوا ما نقوم به، فلربما سمحت لكم بالانضمام إلينا.. وقد لا أسمح لكم!

وتوقف عن الكلام ونظر فيما حوله، وكان في مأمن من الخجل أو الشعور بالذات؛ لأنّه كان مستترًا خلف قناع الطلاء الذي وضعه على وجهه، وكان باستطاعته النظر إليهم الواحد تلو الآخر.. وكان «رالف» راكعًا بجوار بقايا النيران، مثل العداء الذي قطع مسافة جريًا ثم وقف عند العلامة الخاصّة بنهاية المسافة، وكان وجهه شبه متوارٍ وراء الشعر ووراء الهباب وحملق «سام» و«إريك» كل منهما في الآخر بالقرب من شجرة نخيلٍ عند حافة الغابة. وعوى طفل صغير كان مكتومًا في تجعد ومحتقن الوجه بالقرب من بركة السباحة، وكان «بيجي» واقفًا فوق الرصيف، وقد أمسك بالمحارة بين يديه:

- الليلة سنقيم وليمة، فقد تمكنا من ذبح خنزيرة، وأصبح لدينا كميات وفيرة من اللحوم، باستطاعتكم المجيء وتناول اللحوم معنا إذا رغبتم في ذلك.

وانفجر الرعد مرة أخرى بين أخاديد السحب في طبقات الجو العليا وتمايل «جاك» ومعه الشخصان المتوحشان المجهولا الهوية، ونظروا لأعلى، ثم استعادوا توازنهم. واستمر الطفل الصغير في العواء، وكان «جاك» منتظرًا حدوث شيء ما. فهمس في أذن الشخصين الآخرين لكي يستحثهما على التكلم:

- تكلما الآن.

فتمتم الشخصان المتوحشان. فقال لهما «جاك» في حدة:

- تكلما الآن!

فنظر الشخصان المتوحشان كل منهما إلى صاحبه ورفعا رمحيهما في آن واحد، وتحدثا في وقت واحد:

- لقد تكلّم الزعيم.

وبعدئذ استدار ثلاثتهم وانطلقوا مهرولين بعيدًا.

فنهض «رالف» واقفًا على قدميه على الفور وهو ينظر إلى المكان الذي اختفى فيه الأشخاص المتوحشون، وجاء «سام» و«إريك» وهما يتحدثان في همس ملئ بالرعب:

- لقد اعتقدت أن الأمر كان..

- وأنا كنت خائفًا.

وكان «بيجي» واقفًا فوقهم على الرصيف وهو لا يزال يمسك بالمحارة.

وقال «رالف»:

- هؤلاء الأشخاص هم: «جاك» و«موريس» و«روبرت» واستطرد:

- أليسوا مستغرقين في اللّهو والمرح؟

- لقد اعتقدت أنني على وشك التعرض لنوبة من الربو.

- دعك من الربو الخاص بك.

- عندما شاهدت «جاك» اعتقدت أنه سيذهب ليأخذ المحارة، ولست أدرى السبب في هذا الاعتقاد.

ونظر الأولاد إلى المحارة البيضاء في احترام مملوء بالمحبة والحنان. ووضع «بيجي» المحارة بين يدي «رالف»، وعندما شاهد الأطفال الصغار ذلك الرمز المألوف لهم بدءوا يعودون قال:

- ليس هنا.

واستدار نحو الرصيف وهو يشعر بالحاجة إلى بعض الطقوس أو الشعائر تحرك «رالف» أولًا محتضنًا المحارة. وتبعه «بيجي» في وقار شديد، وبعدئذ التوءمان، ثم الأطفال الصغار والآخرون.

- تفضلوا بالجلوس جميعًا. لقد شنوا غارة علينا لكي يحصلوا على شيء من النيران. وهم الآن يلهون ويمرحون، ولكن الـ..

وشعر «رالف» بالحيرة والارتباك:

- ولكن الـ..

وكانوا ينظرون إليه في وقار شديد بدون أن تساورهم أية شكوك بشأن كفاءته. وأزاح «رالف» الشعر عن عينيه ونظر إلى «بيجي».

- ولكن الـ.. أوه. النيران! النيران بالطبع!

وشرع في الضحك ثم توقف وأصبح فصيح اللسان، فتكلم في تدفق وسلاسة.

- النيران هي أهم شيء على الأطلاق، ولن تُنقذ حياتنا بدون إشعال النيران، ولقد كنت أود أن أضع طلاء الحرب على جسدي وأصبح متوحشًا، ولكن ينبغي أن نحرص على استمرار النيران، فالنيران هي أهم شيء على الإطلاق في هذه الجزيرة.. لأنهّا.. لأنهّا..

وتوقف عن الكلام مرة أخرى، وأصبح الصمت مليئًا بالشكوك والتعجب، فهمس «بيجي» مستحثًا:

- لأنهّا هي المنقذ.

- أوه! نعم. فبدون النيران لا نستطيع إنقاذ حياتنا؛ لذلك ينبغي أن نبقى إلى جوار النيران ونطلق الدخان.

وعندما توقف لم يعلق أحد بأي كلام.. وبعد الخطب العديدة الرائعة التي سبق أن ألقاها «رالف» في نفس هذا الموضوع بدت تعليقاته الأخيرة ضعيفة وركيكة وعرجاء حتى من وجهة نظر الأطفال الصغار..

وأخيرًا مد «بيل» يديه طالبًا المحارة.

- لم نعد نستطيع الإبقاء على النيران مشتعلة هنالك، حيث إننا بحاجة إلى المزيد من الناس حتى نتمكن من الإبقاء عليها مشتعلة، وفى رأى أن نذهب إلى الوليمة ونقول لهم إننا لا نستطيع وحدنا - وبدون اشتراكهم معنا - الإبقاء على النار مشتعلة. وبرغم أن أعمال الصيد من الأمور الوحشية فإنها تتضمن قدرًا من اللهو والمرح.

وأمسك «سام» و«إريك» بالمحارة معًا.

- ذهابنا إليهم سيعود علينا بشيء من اللّهو والمرح كما يقول «بيل» وبالإضافة إلى ذلك فهو قد وجه إلينا الدعوة.

- .. لحضور وليمة.

- .. اللحوم.

- .. قشرة لحم الخنزير المحمر.

- يكفيني قدر ضئيل من اللحوم.

فرفع «رالف» يده:

- ولماذا لا نحصل على اللحوم الخاصّة بنا؟

ونظر «التوءمان» أحدهما إلى الآخر وأجاب «بيل»:

- نحن لا نريد الذهاب إلى الغابة.

فكشر «رالف» في ازدراء.

- إنّه - كما تعرفون - يذهب إلى الغابة.

- لأنّه صياد. وهم جميعًا صيادون، وهذا هو الفارق.. وسيطر الصمت على الجميع للحظات، وبعدئذ تمتم «بيجي» وهو ينظر إلى الرمال:

- اللحوم..

وكان الأطفال الصغار جالسين، وكانوا يفكرون في اللحوم في وقار كئيب في حين كان لعابهم يسيل. ودوت مدافع الرعد فوقهم مرة أخرى. وتحرك سعف النخيل الجاف، فنتج عن ذلك عصفة ريح فجائية ساخنة.

وقال سيد الذباب:

- أنت ولد صغير الجسم أحمق.. أنت لست سوى ولد صغير جاهل وأبله وأحمق.

وحرك «سيمون» لسانه المتورم ولم يقل شيئًا. فقال سيد الذباب:

- ألا توافق على كلامي هذا؟ ألست مجرد ولد صغير أحمق؟ فرد عليه «سيمون» بنفس الصوت الصامت.

وقال سيد «الذباب»:

- حسنًا إذن. يحسن بك أن تفر هاربًا، لا تريد لـ «رالف» أن يعتقد أنك معتوه. أليس كذلك؟ وأنت تشعر بالود نحو «رالف» أليس كذلك؟ وتشعر بالود نحو «بيجي» أليس كذلك؟

وكان رأس «سيمون» مائلًا قليلًا لأعلى، ولم تستطع عيناه الكف عن النظر إلى «سيد الذباب». وكان «سيد الذباب» معلقًا في مكان أمامه.

- ماذا تفعل هنا بمفردك؟ ألست خائفًا مني؟

واهتز «سيمون» في قشعريرة:

- لا يوجد أي شخص هنا لكي يقدم لك العون والمساعدة.. لا يوجد سواي، وأنا الوحش!

وتحرك فم «سيمون» في تقلص فصدرت عنه بصعوبة كلمات مسموعة.

- رأس الخنزيرة معلق على العصا.

فقال الرأس:

- كنت تتخيل أن الوحش هو شيء ما يُمكنك اصطياده وقتله!.. ودوت للحظة أو لحظتين الغابة وجميع الأماكن الأخرى التي أدركت في شيء من العتمة والغموض بالمحاكاة الساخرة للضحك.. لقد كنت تعرف.. ألم تكن تعرف أنني جزء منك؟ قريب، قريب، قريب!

هل أنا السبب في عدم الذهاب؟ وهل أنا السبب في أن الأمور تسير على ما هي عليه؟

وضحك بارتعاش مرة أخرى.

وقال «سيد الذباب»:

- تعال الآن. ارجع إلى الآخرين ولسوف تنسى المسألة برمتها.

وتمايل «رأس سيمون» في ارتعاد، وكانت عيناه شبه مغلقتين، وكما لو كان يقلد الشيء القذر المعلق على العصا. وكان يدرك أن إحدى الحالات الخاصّة به آتية لا محالة، وبدأ «سيد الذباب» يتمدد كالبالون.

- هذا أمر يدعو للسخرية والضحك. فأنت تدرك جيدًا أنك ستقابلني هنا فقط؛ لذلك لا تحاول الهرب!

وكان جسد «سيمون» محدبًا ومتخشبًا، وتحدث «سيد الذباب» بصوت ناظر المدرسة:

- لقد تم التمادي في هذا الأمر أكثر من اللازم. وهل تعتقد يا طفلي المسكين المضلل أنك تعرف الأمور على نحو أفضل مني؟

وكانت هناك فترة صمت:

- إنني أحذرك، ولسوف يتصاعد الغضب في داخلي.. هل تفهم ما أقوله لك؟ أنت لست مطلوبًا أو مطاردًا.. أتفهمني؟ ولسوف نلهو بعض الشيء على هذه الجزيرة.. أتفهمني؟ سوف نلهو ونلعب

بعض الشيء على هذه الجزيرة؛ لذلك لا تجرب ذلك الأمر يا بنى يا مسكين يا مضلل وإلا..

وأدرك «سيمون» أنه كان ينظر إلى داخل فم شاسع. وكان هناك سواد في داخل الفم. سواد آخذ في الاتساع.

وقال «سيد الذباب»:

- .. وإلا فسوف نحتال عليكم ونخدعكم.. أتفهمني؟

«جاك» و«روجر» و«موريس» و«بيل» و«بيجي» و«رالف»..

هل أنت.. تفهمني؟

وكان «سيمون» في داخل الفم.. وسقط على الأرض فاقد الوعي.

الفصل التاسع

مشهد الموت

واستمر تجمع السحب فوق الجزيرة، وتصاعد تيار ثابت من الهواء الساخن طوال اليوم من الجبل حيث كان يتدفق لأعلى لمسافة عشرة آلاف قدم، وكومت كتل الغاز الدوارة التأثيرات الجوية الكهربائية إلى أن أصبح الهواء على وشك الانفجار. وكانت الشمس قد توارت في الفترات الأولى من السماء، فحل محل ضوء النهار الساطع بتوهج نحاسي اللون، وحتّى الهواء الذي تدفق آتيًا من جهة البحر والأشجار والأسطح الوردية للصخور، ولم يزدهر أي شيء، باستثناء الذباب الذي سود ولوث سيده، وجعل هبات الريح الفجائية المتدفقة شبيهة بكومة متوهجة من الفحم. وحتّى عندما انقطع الشريان في داخل أنف «سيمون» وتدفقت الدماء فإن الذباب تركه وشأنه وفضل عليه الطعام الممتاز للخنزيرة.

ومع تدفق الدماء انتقلت النوبة التي مر بها «سيمون» إلى رحلة الإعياء والنوم، فرقد فوق حصيرة من النباتات المتسلقة حين كان المساء يتقدم وكان المدفع لا يزال مستمرًا في لعبه، واستيقظ أخيرًا وشاهد في غير وضوح التراب المعتم قريبًا من خده، فلم يتحرك وظل راقدًا هناك، وكان وجهه في وضع جانبي على التراب، وكات عيناه تنظران أمامه في نوع من التبلد. وبعدئذ انقلب على وجهه وجذب قدميه تحته، وأمسك بالنباتات المتسلقة لكي يجذب نفسه لأعلى، وعندما اهتزت النباتات المتسلقة تفجر الذباب من الأمعاء في نغمة شريرة، ثم أصبح أكثر صرامة وإصرار مرة أخرى، ونهض «سيمون» واقفًا على قدميه، وكان الضوء غير دنيوي، وغريبًا، وخارقًا للطبيعة. وكان «سيد الذباب» متشبثًا فوق عصاه مثل كرة سوداء.

وتكلم «سيمون» بصوت مرتفع موجهًا كلامه للأرض الفضاء المكشوفة.

- هل هناك شيء آخر أفعله؟

ولم يتلق أي رد، فاستدار مبتعدًا عن المكان المكشوف، وزحف بين النباتات المتسلقة إلى أن أصبح بين ظلمة الغابة المعتمة، فسار في وحشة واكتئاب بين جذوع الأشجار، وكان وجهه خاليًا من التعبير، وكانت الدماء قد تجمدت حول ذقنه وفمه، ولكنّه من وقت لآخر - عندما كان يرفع أحبال النباتات المتسلقة ويلقيها على جانب لكي يختار اتجاهه من بين الاتجاهات المختلفة فوق الأرض - فإنّه كان ينطق بكلمات لا تصل إلى الهواء على الإطلاق.

وسرعان ما بدأت النباتات المتسلقة تنحسر قليلًا عن الأشجار من مكان لآخر، فظهرت كميات ضئيلة من اللون اللؤلؤي تناثرت من السماء وهبطت متخللة الأشجار. وكان هذا المكان هو العمود الفقري للجزيرة، فهو بمثابة الأرض المرتفعة قليلًا، والتي ترقد تحت الجبل، والتي تتخللها أشجار كثيفة، على عكس ما هو عليه الحال في أعماق الغابة. فهناك كانت توجد فراغات واسعة تنتشر

عليها هنا وهناك أجمات وأدغال وأشجار ضخمة، وقاده اتجاه الأرض إلى الصعود لأعلى، مع انحسار الأشجار، وظهور المساحات المكشوفة، وواصل سيره مترنحًا من وقت لآخر بسبب الإعياء، إلا أنه لم يتوقف على الإطلاق، واختفى اللمعان العادي من عينيه، وكان يسير في نوع من التصميم الكئيب مثل رجل عجوز.

وهبت نفحة من الريح جعلته يترنح، وأدرك أنه قد خرج تمامًا إلى المكان المكشوف فوق الصخر تحت سماء نحاسية صفراء، واكتشف أن ساقيه ضعيفتان، وأن لسانه يؤلمه طوال الوقت. وعندما وصلت الرياح إلى قمة الجبل تمكّن من مشاهدة شيء ما: رفرفة نسيج أزرق في مواجهة سحب بنية اللون. ودفع نفسه لمواصلة السير للأمام، وهبت الريح مرة أخرى في مزيد من القوة في هذه المرّة، فصفعت أعالي الأشجار بالغابة إلى أن انحنت في زئير. وشاهد «سيمون» فجأة شيئًا محدبًا يجلس فوق القمة وينظر لأسفل نحوه، فأخفى وجهه وواصل تقدمه.

وكان الذباب قد عثر على هذا الهيكل أيضًا، وكانت حركاته التي تشبه حركات الكائن الحي تثير خوف الذباب وتبعده للحظات، بحيث كان يشكل سحابة سوداء حول رأس الهيكل. وبعدئذ عندما تداعت المادة الزرقاء للمظلة «الباراشوت» انحنى الهيكل البدين للأمام في تنهد، فاستقر على الذباب مرة أخرى.

وشعر «سيمون» بركبتيه ترتطمان في الصخور فزحف للأمام.، وسرعان ما فهم الموقف، وعرف من تشابك الخطوط ميكانيكيات هذا التقليد الساخر المثير للضحك.

فراح يفحص العظام الأنفية البيضاء، والأسنان، وألوان التحلل والفساد، وأدرك كيف أن طبقات من المطاط والقماش كانت تمسك في غير رحمة بالجسد المسكين الذي تعرض حتمًا للتعفن والتحلل، وبعدئذ هبت الريح مرة أخرى، فارتفع الهيكل لأعلى وانحنى، ونفث قذارة منفرة نحوه، فركع «سيمون» على يديه ورجليه وراح يتقيأ إلى أن أفرغ كل ما في بطنه، وبعدئذ أمسك الخطوط في يديه وحررها من الصخور، وحرر الهيكل من إذلال الرياح.

وأخيرًا استدار مبتعدًا، ونظر لأسفل نحو «البلاجات» وبدت النيران عند الرصيف كأنها قد انطفأت أو كأنها لا تنفث أي دخان على الأقل وإلى مسافة أبعد على البلاج، وإلى ما وراء النهر الصغير، وبالقرب من الكتلة الصخرية الصلبة المكعبة كان هناك شريط رفيع من الدخان آخذ في التصاعد إلى عنان السماء. وحجب «سيمون» عينيه بكلتا يديه - وقد نسي تمامًا الذباب - وحملق في الدخان. وبرغم بعد المسافة فإنّه تمكّن من مشاهدة معظم الأولاد هناك، وربما كانوا جميعًا هناك، ومعنى هذا أنهم قد نقلوا المعسكر إلى مكان بعيد عن الوحش، وبينما كان «سيمون» يفكر في ذلك الأمر التفت نحو ذلك الهيكل المسكين المحطم الذي يجلس إلى جواره نافثًا حوله الروائح الكريهة. لقد كان الوحش مريعًا وعديم الضرر وينبغي أن تصل هذه الأنباء إلى الآخرين في أسرع وقت ممكن، فبدأ في الهبوط من فوق الجبل، وكانت ساقاه تنثنيان تحته، وبرغم حرصه الشديد فإنّه كان يتعثر ويتمايل ويترنح.

وقال «رالف»:

- الاستحمام هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن نفعله.

وكان «بيجي» يفحص السماء المخيفة الواضحة من خلال نظارته التي تضم عدسة واحدة.

- إنني لا أحب تلك السحب. أتذكر كيف كانت الأمطار رهيبة عقب رسونا على هذه الجزيرة؟

- ولسوف تمطر مرة أخرى.

وغطس «رالف» في بركة السباحة. وكان هناك اثنان من الأطفال الصغار يلعبان عند الحافة ويحاولان التماس الراحة من البلل الذي هو أشد سخونة من الدماء. وخلع «بيجي» نظارته وخطا قليلًا في الماء، ثم وضع نظارته على وجهه مرة أخرى، وطفا «رالف» فوق سطح الماء ونفث نافورة من الماء على «بيجي».

فقال " بيجي»:

- احترس لكيلا يصل الماء إلى نظارتي، فإذا ابتلّت نظارتي بالماء فسأضطر للخروج منا الماء وتنظيفها.

فنفث «رالف» الماء على «بيجي» مرة أخرى، لكن الماء لم يصل إليه، وضحك ساخرًا من «بيجي»، وكان يتوقع منه أن يخرج من الماء وصاغرًا متألمًا كالمعتاد، ولكن «بيجي» بدلًا من ذلك راح يضرب في الماء بيديه.

وصرخ:

- توقف عن هذا. كف عن هذا، أتسمعني؟

وألقى بالماء في غضب على وجه «رالف».

وقال «رالف»:

- وهو كذلك. وهو كذلك. عليك بالصبر قليلًا، وسترى..!

وتوقف «بيجي» عن الضرب في الماء.

- إنني أشعر بآلام في رأسي. كنت أود أن يكون الهواء أكثر لطفًا وبرودة.

- أود أن تتساقط الأمطار.

- أود أن نعود إلى بلادنا.

واستلقى «بيجي» على ظهره فوق الجانب الرملي المنحدر للبركة، وبرز كرشه قليلًا لأعلى، وجفت الرمال فوقه. ونفث «رالف» الماء لأعلى نحو السماء. وكان باستطاعة المرء أن يخمن حركة الشمس من خلال تقدم رقعة من الضوء بين السحب، وركع في الماء ونظر فيما حوله.

- أين الناس جميعًا؟

فاعتدل «بيجي» وجلس:

- ربما يكونون مستلقين في الكوخ.

- وأين «سام» و«إريك»؟

- وأين «بيل»؟

وأشار «بيجي» إلى ما وراء الرصيف:

- ذلك هو المكان الذي ذهبوا إليه، فقد ذهبوا إلى الحفلة التي يقيمها «جاك».

فقال «رالف» في قلق:

- دعهم يذهبون، فهذا لا يعنيني في شيء؟

- من أجل الحصول على قدر من اللحوم..

فقال «رالف» في وقار:

- ومن أجل الصيد، ومن أجل التظاهر بإنهم قبيلة واحدة، ووضع طلاء الحرب على أجسامهم.

وحرك «بيجي» الرمال تحت الماء ولم ينظر إلى «رالف»:

- ربما ينبغي لنا الذهاب أيضًا.

فنظر إليه «رالف» نظرة خاطفة، وتدفقت الدماء في وجه «بيجي» خجلًا:

- أقصد.. لكي نضمن عدم حدوث شيء.

ونفث «رالف» الماء مرة أخرى.

وقبل أن ينضم «رالف» و«بيجي» إلى مجموعة الأشخاص التابعين لـ «جاك» بوقت طويل كان باستطاعتهما سماع الحفلة. وكانت هناك مساحة عشبية في المكان الذي تركت فيه أشجار النخيل شريطًا عريضًا من المروج بين الغابة والشاطئ. وعلى مسافة خطوة واحدة لأسفل من حافة المروج كانت توجد الرمال البيضاء التي ألقت بها المياه العالية، وهي رمال دافئة وجافة وثابتة من كثرة ما وطئها من أقدام. وأسفل هذا كانت توجد صخرة ممتدة لمسافة بعيدة نحو «اللاجون». وإلى ما وراء هذا كان يوجد امتداد قصير من الرمال، وبعد ذلك توجد حافة الماء، وكانت هناك نيران مشتعلة فوق الصخر، وكانت الدهون والشحوم تقطر من لحوم الخنزيرة التي يجرى تحميرها، وتتساقط القطرات نحو ألسنة اللهب غير المرئية، وكان جميع الأولاد بالجزيرة باستثناء «بيجي» و«رالف» و«سيمون» وشخصين يشرفان على أعمال الشواء - متجمعين فوق المروج. وكانوا

يضحكون وينشدون ويرقدون ويجلسون القرفصاء، أو يقفون فوق العشب وهم ممسكون بالطعام في أيديهم، ولكن وجوههم الملوثة بالدهون كانت تدلّ على أنهم قد انتهوا من تناول اللحوم، وكان بعضهم ممسكًا بقرعات جوز الهند في أيديهم، وكانوا يشربون الماء منها. وقبل أن تبدأ الحفلة تم دحرجة كتلة خشبية هائلة في وسط المساحة العشبية، وجلس عليها «جاك» مثل إله زائف، وكان جسده مدهونًا بالطلاء ومزدانا بأكاليل الزهور. وكانت هناك كومات من اللحوم موضوعة على أوراق خضراء بالقرب منه، بالإضافة إلى كومات من الفاكهة، وكميات من قرعات جوز الهند المملوءة بمياه الشرب.

ووصل «رالف» و«بيجي» إلى حافة الرصيف العشبي، وما إن شاهدهما الأولاد حتى لاذوا بالصمت الواحد تلو الآخر إلى أن أصبح الولد الوحيد المجاور مباشرة لـ «جاك» هو الذي ظل يتكلم، وبعدئذ امتد الصمت إلى ذلك الولد أيضًا، والتفت «جاك» وهو جالس في مكانه وظل «جاك» ينظر إليهما لبعض الوقت، وكان صوت خشخشة النيران هو الصوت العالي الذي يفوق دندنة سلسلة الصخور القريبة من سطح الماء، وأشاح «رالف» بوجهه بعيدًا، واعتقد سام أن «رالف» قد استدار نحوه متهمًا إياه، فوضع العظمة التي يقضم فيها على الأرض، وضحك بصوت مرتفع كله عصبية. وسار «رالف» خطوة واحدة في تردد وأشار إلى شجرة نخيل، وهمس بكلام غير مسموع لـ «بيجي» ثم ضحكًا معًا بصوت مرتفع مثل سام. ورفع «رالف» قدميه عاليًا من الرمال، وبدأ يتجول مبتعدًا قليلًا عن هذا المكان، وحاول «بيجي» إطلاق صفارة من فمه.

وفى نفس هذه اللحظة جذب الأولاد الذين يقومون بالطهي عند النيران جزءًا كبيرًا من اللحوم وجروا بها نحو العشب. وارتطموا في «بيجي» فلسعته سخونة اللحوم، فراح يولول ويرقص، وعلى الفور أصبح «رالف» وجمهرة الأولاد متحدين، واجتاحتهم جميعًا عاصفة من الضحك، فأزاحت عنهم جميعًا مشاعر التوتر، وأصبح «بيجي» مرة أخرى مركزًا للسخرية الاجتماعية، حتى إن شخصًا شعر بالبهجة وعدم التوتر.

ونهض «جاك» واقفًا ولوح برمحه:

- أعطوهما بعض اللحوم.

فقام الأولاد الذين يمسكون العصا التي تعلق عليها اللحوم بإعطاء كل من «رالف» و«بيجي» قطعة كبيرة من اللحوم الحمراء، فتقبلا الهدية واللعاب يسيل منهما؛ لذلك وقفا وأكلا تحت سماء رعدية في لون النحاس الأصفر، حيث أخذت تدوي مع هبوب العاصفة.

ولوح «جاك» برمحه مرة أخرى:

- هل أخذ كل شخص كفايته من اللحوم وشبع تمامًا؟

وكانت هناك كميات متبقية من اللحوم، حيث كانت تئز بالدهون فوق السفودات الخشبية التي تشبه الأسياخ الحديدية، وكانت مكومة فوق الأوراق الكبيرة التي تشبه الأطباق. وشعر «بيجي»

أن معدته قد خدعته، فألقى بعظمة منزوعة اللحوم تمامًا لأسفل على البلاج، وانحنى للحصول على المزيد من اللحوم.

فتكلم «جاك» مرة أخرى في شيء من نفاد الصبر:

- هل أخذ كل شخص كفايته من اللحوم؟

وكانت لهجة صوته تدلّ على التحذير، وعلى إحساس بالفخر، والشعور بالملكية، فراح الأولاد يسرعون في التهام الطعام، حيث كان لايزال هناك بعض الوقت، وعندما أدرك «جاك» أنه لا يوجد أمل في توقفهم عن التهام الطعام على الفور فإنّه نهض من فوق الكتلة الخشبية التي هي بمثابة عرشه وسار الهوينى نحو حافة العشب. ونظر لأسفل - من وراء الطلاء الموجود على جسده - نحو «رالف» و«بيجي»، فابتعدا عنه قليلًا وسارا على الرمال، وراح «رالف» يرقب النيران أثناء التهامه الطعام. ولاحظ -بدون فهم - أن ألسنة اللهب كانت واضحة ومرئية تمامًا آنئذ في مواجهة الضوء المعتم. وجاء المساء غير مصحوب بالجمال الهادئ، وإنا كان مليئًا بالتهديد بالعنف.

وتكلم «جاك»:

- ناولني قرعة مليئة بالماء.

فأحضر له «هنري» قرعة جوز هند مليئة بالماء، فشرب «جاك» وهو يرقب «بيجي» و«رالف» من فوق الحافة الخشنة للقرعة. وكانت القوة تكمن في ذراعيه وساعديه المنتفختين، وكانت السلطة تجلس فوق كتفه وتثرثر في أذنه مثل القرد:

- اجلسوا جميعًا.

فنظم الأولاد أنفسهم في صفوف فوق العشب أمامه، ولكن «رالف» و«بيجي» ظلًا واقفين فوق الرمال الناعمة في مكان منخفض بحوالي قدم عن الآخرين، فتجاهلهما «جاك» مؤقتًا، وأنزل القناع عن وجهه أمام الأولاد الجالسين، وأشار نحوهم برمحه:

- من منكم يرغب في الانضمام لقبيلتي؟

فقام «رالف» بحركة فجائية أصبحت عثرة. فالتفت بعض الأولاد نحوه.

قال «جاك»:

- لقد قدمت لكم الطعام.. وسيقوم الصيادون التابعون لي بحمايتكم من الوحش.. فمن منكم سينضم إلى قبيلتي؟

فقال «رالف»:

- أنا الرئيس؛ لأنك اخترتني رئيسًا، وكنا سنحرص على استمرار اشتعال النيران، ولكنك الآن تجرى وراء الطعام.

فصاح «جاك»:

- وأنت نفسك جريت وراء الطعام.. انظر إلى العظمة الموجودة في يديك!

فتصاعد اللون القرمزي إلى وجه «رالف».

- لقد قلت إنكم صيادون، والصيد كان هو كل اهتمامكم.

فتجاهله «جاك» مرة أخرى.

- من منكم سينضم إلى قبيلتي ويستمتع باللهو والمرح؟

فقال «رالف» في تهيب وارتجاف.. أنا الرئيس.. وماذا عن النيران؟ وأنا قد أحضرت المحارة.

فقال «جاك» ساخرًا:

- أنت لا تمسك بالمحارة الآن، فقد تركتها وراءك، ألا ترى جيدًا؟ كما أنّ المحارة ليست لها أهميّة هنا في هذا المكان الذي يقع في طرف الجزيرة.

ودوى الرعد فجأة، وبدلًا من الدوي المتبلد كانت هناك نقطة تصادم في الانفجار.

وقال «رالف»:

- المحارة يعتد بها هنا أيضًا وفى جميع أرجاء الجزيرة.

- وما الذي ستفعله إزاءها؟

فأخذ «رالف» يتفحّص صفوف الأولاد، وأحس أنه لا فائدة من ورائهم، فأشاح بوجهه بعيدًا وقد اعتراه لارتباك وبدأ العرق يتصبب منه.. فهمس «بيجي»:

- النيران.. ينبغي إنقاذها.

- من منكم سينضم إلى قبيلتي؟

- سأنضم أنا.

- وأنا:

- وأنا سأنضم.

فقال «رالف» لاهث لأنفاس:

- سوف أنفخ في المحارة للدعوة إلى عقد اجتماع.

لن نسمع النداء.

- لمس «بيجي» معصم «رالف ا).

- هيا بنا ننصرف، فالمتاعب على وشك الظهور، ونحن قد انتهينا من تناول اللحوم.

وكان هناك وميض من الضوء الساطع فيما وراء الغابة.. وتفجر الرعد مرة أخرى في عنف، حتى إن أحد الأطفال الصغار شرع في الانتحاب والبكاء والأنين، وتساقطت قطرات كبيرة من الماء بينهم محدثة أصواتًا لدى ارتطامها بالأرض.

فقال «رالف»:

- ستهب عاصفة رعدية، ولسوف يهبط المطر بغزارة مثلما حدث عندما أسقطنا في هذا المكان لأول مرة، فمن هو الشخص الذكي الماهر الآن؟ أين هي الأكواخ الخاصّة بكم؟ وماذا ستفعلون إزاء هذا الأمر؟

وكان الصيادون ينظرون في قلق نحو السماء ويجفلون وينكمشون بسبب ضربات قطرات الماء، واجتاحت الأولاد موجة من القلق، فراحوا يتمايلون ويتحركون ويسيرون بدون هدف، وأصبح الضوء المرفرف أكثر توهجا كما أصبحت ضربات الرعد أكثر عنفًا، وبدا الأطفال الصغار يجرون هنا وهناك وهم يصرخون ويبكون.

وقفز «جاك» هابطًا على الرمال:

- هيا نرقص رقداتنا، وهيا أقبلوا، وهيا نرقص!

وجرى وهو يتعثر في الرمال الكثيفة، واتجه نحو الصخور المكشوفة التي تقع إلى ما وراء النيران.. وما بين ومضات البرق كان الليل مظلمًا وغيفًا ومريعًا، وتبعه الأولاد في ضجيج صاخب، وأصبح «روجر» هو الخنزير وراح يشخر وينخر، يهاجم «جاك» الذي قفز جانبًا مبتعدًا. وأخذ الصيادون حرابهم، وأخذ الطهاة سفوداتهم، وأخذ الآخرون عصيًا من أخشاب النيران، ونشأت حركة دائرية، وتصاعد الإنشاد والغناء، وبينهما كان «روجر» يقلد الرعب الذي اجتاح الخنزيرة، كان الأطفال الصغار يجرون ويقفزون ناحية الجانب الخارجي من الدائرة. وتحت تهديدات السماء وجد «بيجي» و«رالف» نفسيهما متلهفين لأخذ مكان في هذا المجتمع المثير الذي يتّسم بأنه يوحى بالأمن والأمان نسبيًا، وشعرا بالبهجة عندما قاما بلمس الظهور البنية اللون للسور الذي كان يطوق الرعب ويتحكم فيه.

- اقتلوا الوحش! وشقوا رقبته! واسفكوا دماءه!

وأصبحت الحركة منتظمة، في حين فقدت الأغنية بهجتها الأولى الظاهرية وأصبحت شبيهة بإيقاع الفيض الثابت. وتوقف «روجر» عن تمثيل دور الخنزيرة حيث قام بتمثيل دور الصياد،

حتى إن منتصف الحلقة أصبح مثل الفراغ المتثائب. وبدأ بعض الأطفال الصغار ينظَمّون حلقة خاصة. وأخذت الحلقات التكميلية تدور وتدور كما لو كان التكرار سيحقق الأمن والأمان، وكان هناك النبض والخفقان، والطابع لمميز الذي يتميز به أحد الكائنات الحية.

وكانت السماء الداكنة تقسمها ندبة زرقاء - بيضاء، وبعد لحظات هبط الصوت عليهم مثل ضربة سوط عملاق، فظهرت على الأغنية نغمة تدلّ على الآلام والصراخ العنيف.

- اقتلوا الوحش! اقطعوا رقبته! اسفكوا دماءه!

ومرة أخرى شقت الندبة الزرقاء - البيضاء السماء فوقهم، فدوى الانفجار الكبريتي، فصرخ الأطفال الصغار، وتخبطوا في ارتباك هنا وهناك وهم يفرون بعيدًا عند حافة الغابة.. ودخل أحد الأطفال الصغار إلى حلقة الأولاد الكبار بسبب ذعره لشديد، وقال:

- الوحش! الوحش!

وأصبحت الدائرة على شكل حدوة حصان، وكان هناك شيء ما يزحف خارجًا من الغابة، وكان مكفهرًا وغامضًا، وتصاعدت الصرخات الحادة الثاقبة أمام الوحش، وكانت الصرخات تشبه الآلام المبرحة، فتعثر الوحش في داخل حدوة الحصان.

- اقتلوا الوحش! اقطعوا رقبته! اسفكوا دماءه!

وكانت الندبة الزرقاء - البيضاء مطردة ومتواصلة، وكان الضجيج الجنوني شديدًا بحيث لا يستطيع أحد أن يتحمله، وكان «سيمون» يصرخ بأعلى صوته ببعض الكلمات عن وجود رجل ميت فوق أحد التلال.

- اقتلوا الوحش! اقطعوا رقبته! اسفكوا دماءه! أجهزوا عليه! أجهزوا عليه في داخل الحلقة!

فانهالت العصي، وبدأ فم الدائرة الجديدة في المضغ بأسنانه والصراخ. وتهاوى الوحش على ركبتيه في وسط الحلقة، وكانت يداه مطويتين فوق رأسه وكان يصرخ ويحتج في عنف على ذلك الضجيج البغيض الجنوني، وينبههم بكلمات غير مسموعة بسبب الضجيج عن وجود جثة فوق التل. وكافح الوحش متقدمًا للأمام، وكسر الحلقة المحدقة به، وسقط فوق حافة الصخرة الشديدة الانحدار، وتدحرج إلى الرمال القريبة من الماء، فاندفع الأولاد كالطوفان وراءه وهبطوا كالسيل الجارف على المنحدر الصخري، وجثموا على الوحش وهم يصرخون ويضربونه بالعصي، ويعضونه بأسنانهم، ويمزقون جسده، ولم يكن هناك أي كلام ولا أي حركات، ولا شيء سوى التمزيق بالأسنان والمخالب.

وبعدئذ انشقت السحب وسقطت الأمطار مدرارًا كأنها شلالات. وتدفقت المياه من فوق قمة الجبل، ومزقت أوراق وأغصان الأشجار وانصبت مثل الدش البارد فوق الكومة التي تكافح في استماتة فوق الرمال، وكان الوحش هو الشيء الوحيد الذي يرقد ساكنًا على مسافة ياردات قليلة من

مياه البحر، وحتّى أثناء المطر كان باستطاعتهم أن يدركوا أن الوحش كان ضئيلًا للغاية، وأن دماء قد بدأت تتدفق بالفعل وتلوث الرمال.

وبعد لحظات هبت رياح شديدة جعلت الأمطار تنحرف في اتجاه جانبي، وجعلت المياه تسقط كالشلال من فوق أشجار الغابة: وفوق قمة الجبل امتلأت المظلة «الباراشوت» وتحرك وانزلق الهيكل، ونهض على قدميه، ولف ودار وتمايل لأسفل خلال مساحة شاسعة من الهواء المبلل، وخطا بأقدام خرقاء فوق قمم الأشجار العالية، وبدأ يسقط من عليائه ويتداعى إلى أن غاص بالقرب من «البلاج» فاندفع الأولاد يصرخون تحت جنح الظلام. ونقل «الباراشوت» الهيكل للأمام وألقى به في عنف فوق سلسلة الصخور القريبة من سطح الماء، ثم ألقى به إلى البحر.

وفى حوالي منتصف الليل توقف المطر، وانجرفت السحب بعيدًا، حتى إن السماء أصبحت مرصعة مرة أخرى بمصابيح النجوم العظيمة، وبعدئذ تلاشى النسيم أيضًا، ولم تعد توجد هناك أية أصوات، إلا صوت قطرات الماء التي كانت تنساب من الشقوق، وتتساقط من الأوراق، ورقة وراء ورقة إلى التربة البنية اللون بالجزيرة. وكان الهواء باردًا ومشبعًا بالرطوبة وصافيًا. وسرعان ما أصبحت أصوات تساقط الماء ساكنة أيضًا، وكان الوحش يرقد مكتومًا ومتكورًا فوق «البلاج» الشاحب، وكانت البقع تنتشر بوصة وراء بوصة.

وأصبحت حافة «اللاجون» شريطًا فوسفوريًا متألقًا، وكان هذا الشريط يتقدم دقيقة وراء دقيقة مع تدفق الموجة الهائلة للمد والجزر. وانعكست السماء الصافية - وكذلك مجموعة النجوم الثابتة البراقة الضامرة - على صفحة مياه البحر الصافية. وكان الشريط الفوسفوري يزداد وضوحًا فوق حبات الرمل والحصى الصغير، حيث كان يمسك كل حبة رمل أو حصى في غمرة من التوتر، وبعدئذ كان يقبلها في مقطع، كَلَغَة خافتة غير مسموعة، وبعدئذ سار قدمًا للأمام.

وعلى طول حافة الشاطئ بالأماكن الضحلة، كان الصفاء الآخذ في التقدم ممتلئًا بمخلوقات عجيبة، لها عيون نارية وأجساد من شعاع القمر.. وهنا وهناك كانت توجد حصاة كبيرة متشبثة بالهواء الخاص بها ومغطاة بمعطف من اللآلئ، وغطى المد والجزر الرمال المملوءة بالحفر والثقوب الناجمة عن الأمطار، ومهد كل شيء، ووضع عليه طبقة فضية ناعمة ولامس آنئذ أول البقع التي كانت تنز وتتسرب من الجسد المحطم، وصدرت عن الكائنات رقعة متحركة من الضوء لدى تجمعها عند الحافة. وارتفعت المياه لمسافة أبعد، وكست شعر «سيمون» الخشن بالبريق واللمعان، وتألق خط وجنته بلون فضي، وأصبحت استدارة كتفه مثل الرخام المنحوت، وراحت الكائنات الغريبة التي تشهد الموقف بعيونها النارية تشغل نفسها حول رأسه وارتفع الجسد بمقدار جزء من البوصة من الرمال، فتصاعدت فقاقيع في الهواء من الفم في صوت يشبه «البقللة»، وبعدئذ استدار في رفق منجرفًا إلى الماء.

وفى مكان ما فوق المنحنى المظلم للعالم كانت الشمس والقمر يجذبان، وكان ضباب الماء فوق الكوكب الأرضي مقيدًا ومحتبسًا، وكان ينفتح قليلًا على جانب واحد، في حين انعطف الجزء المركزي المصمت، وتحركت الموجة الهائلة للمد والجزر لمسافة أبعد على طول الجزيرة، وارتفعت المياه، وانسابت جثة «سيمون» نحو البحر المفتوح في خفة وسلاسة، وقد أحاطت بها

أهداب إضافية من الكائنات الناصعة الفضولية. وكانت جثة «سيمون» تتخذ الشكل الفضي أسفل مجموعات النجوم الراسخة.

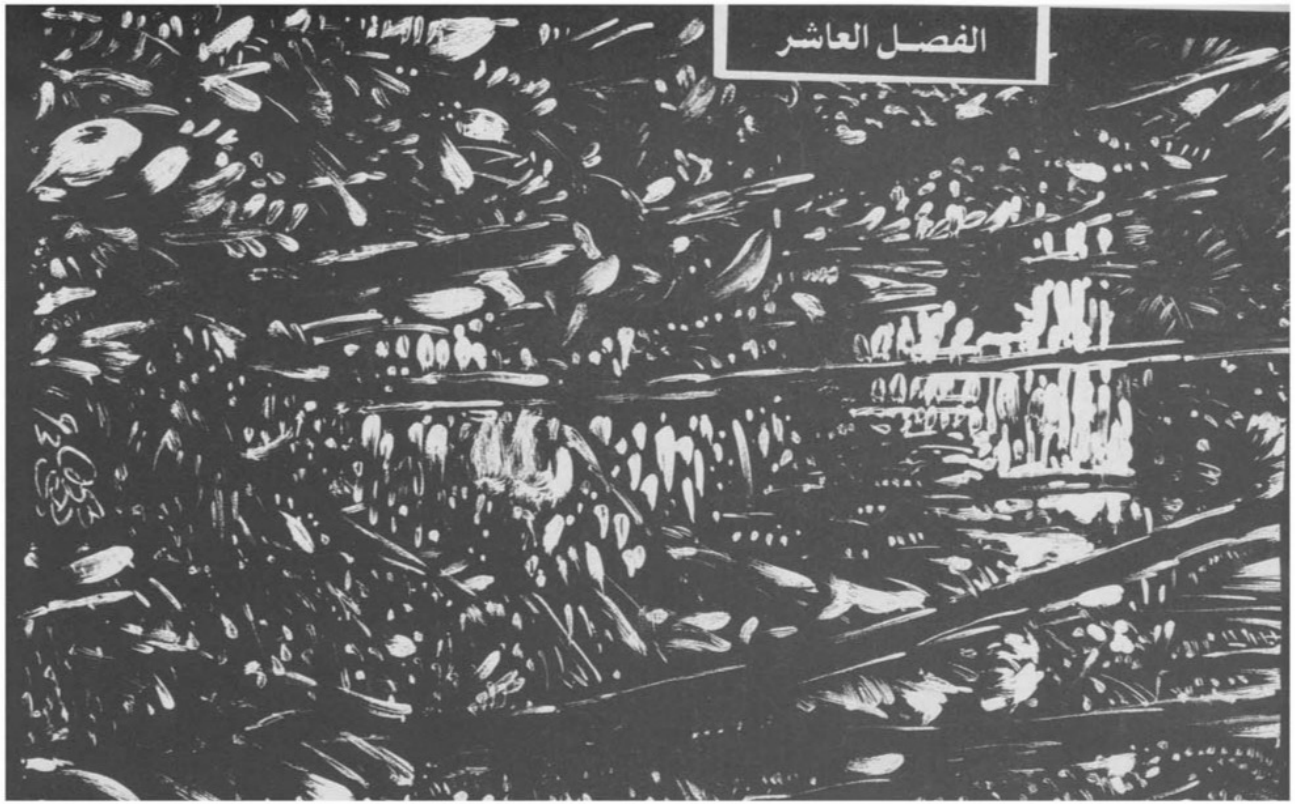
الفصل العاشر

الصدفة والنظارة

حلق «بيجي» في الهيكل المتقدم وأخذ يمعن النظر في دقة واهتمام. وكان قد اكتشف في الآونة الأخيرة أنه يرى في بعض الأحيان في مزيد من الوضوح إذا خلع نظارته ونقل العدسة الوحيدة إلى العين الأخرى، ولكن حتى من خلال العين الجيدة ظل «رالف» هو «رالف» على نحو لا يدعو للخلط أو الخطأ عقب الأصوات التي حدثت، فقد خرج في تلك الآونة من بين أشجار جوز الهند وهو يعرج على قدميه، وكان متسخًا وقذرًا، وكانت الأوراق الجافة الميتة تتدلى من كتلة كثة من شعره الأصفر اللون. وكانت إحدى عينيه تبدو مثل شقّ طولي على خده المنتفخ، وكانت قشرة هائلة من الدماء قد تكونت على ركبته اليمنى، وتوقف للحظات وراح يحملق في الهيكل الموجود على الرصيف.

- «بيجي»؟ هل أنت الشخص الوحيد المتبقي هنا؟

- يوجد بعض الأطفال الصغار.

- لا فائدة ترجى من وراء الأطفال الصغار، ألا يوجد أولاد كبار؟

- أوه! يوجد «سام» و«إريك»، وهما يقومان الآن بجمع الأخشاب.

- ألا يوجد أي أشخاص كبار غيرهما؟

- لا أعرف.

وتسلق «رالف» صاعدًا إلى الرصيف في حرص وحذر. وكان العشب الخشن مازال باليًا في الأماكن التي اعتاد أن يجلس عليها الأولاد أثناء عقد الاجتماعات، وكانت المحارة الرقيقة البيضاء مازالت تلمع وتتلألأ بجسمها المصقول اللامع، وجلس «رالف» على العشب وراح ينظر في إعجاب إلى مقعد الرياسة وإلى المحارة. وركع «بيجي» على يساره واستمر الصمت بينهما لحظات طويلة.

وأخيرًا سلك «رالف» صوته وهمس ببعض الكلام. فرد علية «بيجي» هامسًا:

- ماذا تقول؟

فتكلم «رالف» بصوت واضح مرتفع:

- «سيمون».

ولم يقل «بيجي» أي تعليق واكتفى بالإيماء برأسه في وقار. واستمرا في جلستهما وهما يحملقان بنظرات أصابها الضعف والوهن في مقعد الرياسة، وفى اللاجون المتلألئ، وكان الضوء الأخضر والمساحات الهائلة من ضوء الشمس ينسابان فوق جسديهما الملونين المتسخين.

وأخيرًا نهض «رالف» واقفًا وذهب إلى المحارة، وأمسك بالصدفة وراح يربّت عليها بكلتا يديه، وركع مستندًا على جذع الشجرة وقال:

- بيجي؟

- ماذا سنفعل؟

وأومأ بيجي برأسه للمحارة.

- باستطاعتك أن..

- أن أدعو إلى عقد اجتماع؟

وضحك «رالف» في حدة عندما قال ذلك الكلام، فتجهم «بيجي»:

- أنت مازلت رئيسًا.

فضحك «رالف» مرة أخرى.

- أنت فوقنا جميعًا.

- المحارة معي.

- يا «رالف» كف عن الضحك على ذلك النحو وانتبه إليّ. ليس هناك داع لذلك يا «رالف»، فماذا سيظن الآخرون؟

وأخيرًا توقف «رالف» وكانت فرائصه ترتعد:

- بيجي.

- نعم.

- ذاك كان سيمون!

- لقد قلت لي هذا من قبل.

- لقد كانت تلك جريمة قتل.

فقال «بيجي» في ارتجاف:

- توقف عن هذا القول، فما هي الفائدة من وراء تحدثك على هذا النحو؟

وقفز واقفًا على قدميه، وأصبح يطل على «رالف» من علٍّ.

- لقد كان الظلام سائدًا. وكان هناك ذلك.. ذلك الرقص الدموي، وكان هناك البرق والرعد والمطر، وكنا جميعًا في حالة من الرعب والخوف!

فقال «رالف» في بطء:

- لم أكن أنا خائفًا.. لقد كنت.. لست أدري ماذا كنت؟!

فقال «بيجي» في إثارة:

- لقد كنا في حالة من الذعر والرعب، وكان من المتوقع أن يحدث أي شيء. ولم يكن الأمر على النحو الذي قلته..

وكان يشير معبرًا بالحركات، وباحثًا عن صيغة معبرة عما يجيش في ذهنه.

- أوه.. «بيجي»!

وكان صوت «رالف» منخفضًا ومتخاذلًا ومقهورًا، مما جعل «بيجي» يتوقف عن القيام بتلك الحركات المعبرة بيديه وجسده، فانحنى لأسفل ولاذ بالصمت في ترقب، وهز «رالف» نفسه للأمام والخلف وهو محتضن المحارة.

- ألا تفهمني يا «بيجي»؟ إن الأمور التي قمنا بها..

- لعله مازال..

- لا.

وتهدج صوت «بيجي» لدى رؤيته وجه «رالف»..

- لقد كنت أنت خارج الدائرة. نعم، كنت خارج الحلقة.. فأنت لم تدخل إلى الحلقة على الإطلاق. هل شاهدت بنفسك ماذا فعلنا؟.. أقصد: ما فعلوا هم؟

وكان هناك اشمئزاز مع وجود نوع من الإثارة المحمومة في نفس الوقت في صوته.

- ألم تشاهد بنفسك يا «بيجي»؟

- لم أشاهد جيدًا كل تلك الأحداث، فنظارتي ليس بها سوى عدسة واحدة الآن، وكان ينبغي لك أن تدرك ذلك يا «رالف»..

واستمر «رالف» في هزّ نفسه للأمام والخلف..

وقال «بيجي» فجأة:

- ولقد كان الأمر بمثابة حادثة، ولم يخرج عن كونه حادثة.. مجرد حادثة.

- أنت لم تشاهد ما فعلوه.

- استمع إلى يا «رالف» ينبغي لنا أن ننسى كل هذا الذي حدث.. فنحن لا نستطيع التفكير في هذا الأمر بطريقة سليمة.. أتفهمني؟

- إنني خائف وأريد العودة إلى وطني.. يا إلهي! أريد العودة إلى بيتي.

فقال «بيجي» في إصرار وعناد:

- لقد كان الأمر مجرد حادثة، وذلك هو كل ما في الأمر.

ولمس كتف «رالف»، العاري، ففزع «رالف» لدى حدوث هذا الاتصال البشري.

وألقى «بيجي» نظرة خاطفة فيما حوله، وبعدئذ انحنى مقتربًا وقال:

- استمع إلى يا «رالف»: لا تضع في ذهنك أننا كنا نشارك في ذلك الرقص، وكذلك «سام» و«إريك» لم يشاركا في الرقص.

- ولكننا كنا جميعًا مشتركين، كلنا جميعًا!

فهز «بيجي» رأسه:

- ولكننا لم نشارك معهم حتى النهاية، وهم لم يلحظوا في الظلام شيئًا، وعلى أية حال فأنت قلت عنى إنني خارج الحلقة.

فتمتم «رالف»:

- وأنا أيضًا، فقد كنت أنا أيضًا خارج حلبة الرقص.

فأومأ «بيجي» برأسه في لهفة وشغف واهتمام:

- هذا صحيح، لقد كنا خارج دائرة الرقص، ونحن لم نفعل أي شيء على الإطلاق، بل لم نشاهد أي شيء مطلقًا..

وتوقف «بيجي» عن الكلام... واستطرد:

- سنعيش هنا معتمدين على أنفسنا. فنحن الأربعة..

- نحن الأربعة! إن عددنا هذا الضئيل لا يكفي لإشعال النيران

- سنحاول. أتفهمني؟ أنا أشعل النيران.

وأقبل «سام» و«إريك»، وكانا يجران كتلة هائلة من الخشب ويخرجان بها من الغابة، وألقيا بالكتلة الخشبية بجوار النيران، واستدارا في اتجاه بركة الاستحمام، فهب «رالف» واقفًا على قدميه.

- هاي أنتما الاثنان!

فتوقف «التوءمان» للحظات، ولكنهما استمرا في سيرهما.

- إنهما يا «رالف» ذاهبان للاستحمام.

- ويستحسن فتح الموضوع معهما.

ودهش «التوءمان» للغاية لدى مشاهدتهما «رالف»، وارتفعت الدماء إلى وجهيهما، وامتدت نظراتهما إلى ما وراء في الهواء.

- لقد توقعنا أن نقابلك يا «رالف».

- لقد كنا موجودين في الغابة منذ لحظات؛ لكي نحضر أخشابًا من أجل النيران..

- ولقد تُهنا في غياهب المكان في الليلة الماضية.

ففحص «رالف» أصابع قدميه:

- هل تعرضتما للتوهان عقب الـ..

وراح «بيجي» ينظف عدسة نظارته.

وقال «سام» بصوت مخنوق:

- عقب الوليمة.

وأومأ «إريك» برأسه:

- نعم. عقب الوليمة.

وقال «بيجي» على وجه السرعة:

- لقد غادرنا المكان في وقت مبكر حيث كنا نشعر بالتعب والإرهاق.

- وهذا هو ما فعلناه أيضًا في وقت مبكر للغاية..

ولمس «سام» خدشًا فوق جبهته، ثم سارع برفع يده عن الخدش على وجه السرعة، ووضع «إريك» أصبعه على شفته المشقوقة.

وقال «سام» مرة أخرى:

- نعم. فقد كنا غاية في الإرهاق؛ ولذلك غادرنا المكان في وقت مبكر. أكان الـ.. جيدًا؟

وكان الهواء ثقيلًا بالمعرفة غير المنطوقة، وتلوى «سام» وانفلتت الكلمة الفاحشة من فمه حيث قال:

- أكان الرقص جيدًا؟

وهزت ذكرى الرقص الذي لم يشارك فيه أي منهم الأولاد الأربعة في عف:

- لقد غادرنا المكان في وقت مبكر.

وعندما وصل «روجر» إلى عنق الأراضي التي تربط صخرة القلعة بالأرض الأم، فإنّه لم يندهش من التحدي التي ظهر له.. وكان قد عوَّل أثناء الليلة الرهيبة على العثور على الأقل على بعض أفراد القبيلة وقد احتموا من أهوال الجزيرة في أكثر الأماكن أمنًا.

ودوى الصوت بحدة من مكان مرتفع، حيث كانت الشقوق المتناقضة متوازنة بعضها فوق بعض.

- توقف! من يسير هناك؟

- «روجر».

- تقدم أيها الصديق.

فتقدم «روجر».

- لقد قال الرئيس إنّه ينبغي لنا أن نتحدى كل شخص، فحملق «روجر» لأعلى:

- ليس باستطاعتك إيقافي عن التقدم إذا أردت ذلك.

- ليس باستطاعتي أنا؟ اصعد إلى أعلى، ولسوف ترى.

وتسلق «روجر» المنحدر الصخري الذي يشبه السلم.

- انظر إلى هذا؟

وكانت كتلة خشبية قد حشرت تحت الصخرة العلوية، ووضع تحتها عتلة خشبية رافعة، وانحنى «روبرت» قليلًا على العتلة فزمجرت الصخرة. وكان بذل أي جهد كبير من شأنه أن يلقى

بالصخرة لأسفل بصوت كالرعد نحو عنق الأرض. واستصوب «روجر» ذلك، حيث أعجبته الفكرة.

- إنِّه رئيس حقيقي ومناسب.. أليس كذلك؟

فأومأ «روبرت» برأسه:

- وهو سوف يصحبنا معه للصيد.

وهز رأسه في اتجاه الأكواخ البعيدة، حيث كان ينطلق خيط رفيع من الدخان الأبيض صاعدًا إلى عنان السماء.. وكان «روجر» جالسًا على نفس حافة المنحدر الصخري، حيث كان ينظر باكتئاب وراءه نحو الجزيرة في حين كان يشتعل بأصابعه في سِنّة غير ثابتة. واستقرت حملقته على قمة الجبل البعيد، وغير «روبرت» موضوع الحديث الذي لم يتم التطرق إليه:

- إنِّه سوف يعطى «ويلفريد» علقة ساخنة.

- لماذا؟

فهز «روبرت» رأسه في نوع من الشك:

- لست أدري، فهو لم يذكر السبب، كل ما هناك أنه ظهر عليه الغضب، وجعلنا نقوم بربط «ويلفريد».. وضحك في إثارة واستطرد:

- وهو ما زال مربوطًا منذ ساعات طويلة ومنتظرًا.

- ولكن ألم يذكر الرئيس السبب؟

- لم أسمعه يذكر السبب على الإطلاق.

وتلقى «روجر» هذه الأنباء كنوع من الاستنارة حين كان يجلس على الصخور الهائلة تحت الشمس اللافحة المحرقة.. وكف عن اللعب في سنته غير الثابتة، وجلس ساكنًا، وأخذ يستوعب احتمالات السلطة الطائشة غير الرشيدة، وبعدئذ وبدون أن ينطق بأي كلمة أخرى تسلق على الصخور نحو الكهف إلى باقي أفراد القبيلة.

وكان الرئيس جالسًا هناك عاريًا حتى خصره، وكان وجهه مدهونًا باللون الأحمر والأبيض، وكانت القبيلة ترقد في نصف دائرة أمامه، وكان «ويلفريد» - الذي أخذ «علقة» ساخنة منذ فترة وجيزة، وظل مربوطًا - يبكي بصوت مرتفع في مكان خلفي. وجلس «روجر» القرفصاء مع الآخرين.

واستطرد الرئيس:

- غدًا سنقوم بأعمال الصيد مرة أخرى.

وأشار إلى هذا المتوحش وذاك برمحه:

- وسوف يمكث بعضكم لتحسين الكهف وحماية البوابة، ولسوف آخذ معي عددًا قليلًا من الصيادين وأعود لكم باللحوم، وسوف يحرص المدافعون عن البوابة على عدم السماح للآخرين بالتسلل والدخول.

ورفع متوحش يده فاستدار الرئيس نحوه بوجهه الكئيب المدهون بالطلاء:

- ولماذا تتوقع منهم أن يحاولوا التسلل إلى الداخل أيها الرئيس؟

وكان الرئيس غامضًا وغير صريح، ولكنّه كان جادًا:

- سوف يحاولون.. سيحاولون إفساد الأشياء التي نقوم بها؛ لذلك ينبغي أن يكون المراقبون عند البوابة منتبهين وحريصين.. وبعدئذ..

وتوقف الرئيس عن الكلام.. وشاهدوا مثلثًا من اللون الأحمر المفزع يتطاير ويمر على شفتيه ويختفى مرة أخرى:

- وبعدئذ قد يحاول الوحش الدخول، وأنتم تذكرون كيف أنه زحف

فاقشعر بدن نصف الدائرة وارتجفت أجسامهم، وتمتموا في موافقة وتصديق:

- لقد جاء متخفيًا، ولربما يأتي مرة أخرى، حتى في حالة قيامنا بإعطائه رأس الذبيحة ليأكلها؛ لذلك يجب أن ترقبوا وتلاحظوا وتكونوا غاية في الحرص والحذر؟

ورفع «ستانلي» ساعده عن الصخرة وأشار بإصبع متسائلًا:

- حسنًا، ولكن ألم نقم نحن، ألم نقم نحن..؟

وتلوى ونظر لأسفل.

- لا!

وفى الصمت الذي أتبع ذلك جفل كل شخص متوحش من ذاكرته الفردية الخاصّة به.

- لا فكيف كان باستطاعتنا أن نقتله؟

فشعر المتوحشون ببعض الارتياح، ولكنهم كانوا يشعرون ببعض الخوف من الأهوال المقبلة فيما بعد، وراحوا يتمتمون مرة أخرى.

وقال الرئيس في وقار:

- لذلك اتركوا الجبل وشأنه، وأعطوه الرأس إذا ذهبتم للصيد، ورفع «ستانلي» أصبعه مرة أخرى:

- أتوقع أن يكون الوحش قد أخفى نفسه..

فقال الرئيس:

- ربما، وعلى أية حال يستحسن أن نستمر في التيقظ ومواجهته، فلا أحد منا يعرف ما قد يفعله..

وأخذ أفراد القبيلة يفكرون في هذا القول، ثم أصابتهم هزة كما لو كانوا قد اهتزوا بسبب هبة ريح. وشاهد الرئيس التأثيرات التي نجمت عن كلماته فوقف فجأة:

- ولكننا سنقوم بالصيد غدًا، وعندما ننجح في الحصول على اللحوم سنقيم وليمة.

ورفع «بيل» يده:

- أيها الرئيس؟

- نعم؟

- ما هو الشيء الذي سنستخدمه لكي نشعل النيران؟

فارتبك الرئيس واحمرَّ وجهه غير أن احتقان وجهه قد اختفى وراء الطلاء الصلصالي الأحمر والأبيض.. وسكبت القبيلة تمتمتها مرة أخرى في صمته المملوء بالقلق والتردد، وبعدئذ رفع الرئيس رأسه قائلًا:

- سنحصل على النيران من الآخرين، استمعوا إليَّ، غدًا سنقوم بالصيد ونحصل على اللحوم، وفى هذه الليلة سأذهب مع اثنين من الصيادين.. من منكم يرغب في المجيء معي؟

فرفع كل من «موريس» و«روجر» يده:

- موريس

- نعم أيها الرئيس؟

- أين كانت توجد نيرانهم؟

- في الخلف عند المكان القديم بجوار صخرة النيران.

فأومأ الرئيس برأسه:

- ويستطيع باقي الصيادين أن يذهبوا للنوم عقب غروب الشمس مباشرة. أمّا نحن الثلاثة: «موريس» و«روجر» و«أنا» فلدينا أعمال تتطلب الإنجاز. وسوف نغادر هذا المكان قبل غروب الشمس مباشرة.

فرفع «موريس» يده:

- ولكن ماذا سيحدث إذا قابلنا...

فقال الرئيس موضحًا:

- سنداوم على السير بجوار الرمال، فإذا جاء فنلجأ إلى الرقص مرة أخرى مثلما فعلنا في المرّة السابقة.

- ثلاثتنا فقط؟

ومرة أخرى تصاعدت الهمهمات ثم خمدت وتلاشت.

ناول «بيجي» نظارته لـ «رالف» ووقف منتظرًا استعادة بصره..

وكات الأخشاب مبللة ومشبعة بالرطوبة.

وكانت هذه هي المرّة الثالثة التي أوقدوا فيها النيران.

وكان «رالف» يقف إلى الوراء قليلًا ويتحدث إلى نفسه:

- لا نريد أن تمر ليلة أخرى بدون إشعال النيران.

ونظر فيما حوله، نحو الأولاد الثلاثة الواقفين بالقرب منه، وكانت تجتاحه موجات من الشعور بالذنب.. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي اعترف فيها بأن النيران تؤدى مهمّة مزدوجة، ومن المؤكد أن المهمة الأولى هي أنها ترسل عمودًا من الدخان يدل على وجودهم في هذا المكان، أمّا المهمة التالية فهي تدفئهم بالليل وتشعرهم بالراحة والارتياح إلى أن يناموا.

وراح «إريك» ينفخ في الأخشاب إلى أن توهجت وصدر عنها لهب صغير.. وتصاعدت موجة عظيمة من الدخان الأبيض والأصفر إلى عنان السماء. واسترد «بيجي» نظارته ونظر إلى الدخان في ابتهاج:

- لو كنا نتمكن من صنع راديو!

- أو طائرة!

- أو قارب.

وانجرف «رالف» إلى معلوماته المتلاشية تدريجيًا عن العالم:

- قد نقع أسرى في أيدي الهنود الحمر.

فدفع «إريك» بشعره إلى الوراء:

- ربما كانوا أفضل من.

ولم يشأ أن يذكر اسم الناس، وأكمل «سام» الجملة نيابة عنه بأن أومأ برأسه على طول «البلاج».

وتذكر «رالف» الهيكل المخيف الموجود في «الباراشوت»:

- لقد قال شيئًا عن وجود رجل ميت.

وخجل من نفسه، وتصور مدى الألم لدى اعترافه لنفسه بأنه كان موجودًا أثناء الرقص. وقام بحركات من جسده تستحث الدخان على الصعود إلى طبقات الجو العليا.

- لا تتوقف أيها الدخان.. داوم على الصعود لأعلى.

- إن كثافة الدخان آخذة في التناقص!

- نحن بحاجة من الآن إلى المزيد من الأخشاب، حتى ولو كانت الأخشاب مبللة.

- نويات الربو عندي..

وكان الرد له طابع التلقائية:

- دعك من الربو الخاص بك.

- إذا جذبت الكتل الخشبية تزداد نوبة الربو حدة.. وكنت أتمنى ألا تحدث لي هذه النوبات يا «رالف»، ولكن ها هي ذي النوبات تهاجمني.

وذهب الأولاد إلى الغابة ورجعوا وقد امتلأت أذرعهم بالأخشاب المسوسة. ومرة أخرى تصاعد الدخان كثيفًا ومتخذًا اللون الأصفر.

- هيا بنا نذهب لإحضار شيء نأكله؟

وذهبوا معًا إلى أشجار الفواكه وهم يجملون معهم رماحهم، وكانوا يسرعون في مشيتهم ويتحدثون بكلمات قليلة، وعندما خرجوا من الغابة مرة أخرى كانت الشمس تغيب وراء الأفق.. وكانت الجمرات فقط هي التي تتوهج في النار، ولم يكن هناك أي قدر من الدخان.

وقال «إريك»:

- لا أستطيع حمل أي أخشاب أخرى؛ لأنني أشعر بالإرهاق الشديد.

فسلك «رالف» صوته:

- لقد نجحنا في جعل النيران تشتعل باستمرار بالأماكن العلوية هنالك.

- هنالك بالأماكن العلوية كانت النيران صغيرة، ولكن هذه النيران التي نشعلها الآن تتطلب أن تكون نيرانًا كبيرة.

فحمل «رالف» قطعة صغيرة من الأخشاب وألقى بها في النيران، وراح يرقب الدخان وهو يتصاعد وينجرف مع التيار تجاه الشفق الأحمر.

- ينبغي لنا الإبقاء عليها مشتعلة باستمرار.

فألقى «إريك» بنفسه على الأرض:

- إنني في غاية الإرهاق. وما هو الخير الذي سيعود علينا من وراء النيران؟

فصرخ «رالف» بصوت مملوء بالفزع والشعور بالصدمة:

- لا تتكلم على هذا النحو!

وركع «سام» بجوار «إريك»:

- حسنًا.. ما هو الخير من وراء ذلك؟

وحاول «رالف» في سخط وتبرم أن يتذكر.. فقد كان هناك شيء حسن يتعلق بالنيران.. شيء ما أعظم على نحو ساحق.

فقال «بيجي» في اكتئاب وعبوس:

- لقد سبق لـ «رالف» أن أوضح لكم هذا الأمر مرارًا وتكرارًا. فهل هناك وسيلة أخرى لإنقاذ حياتنا سوى إشعال النيران؟

- بالطبع! إذا لم نطلق الدخان..

وجلس القرفصاء أمامهم تحت ضوء الغسق المتدافع في كثافته:

- ألا تفهمون؟ وما هي الفائدة التي ترجى من وراء التطلع إلى الحصول على راديوهات وقوارب؟

ومد يده ولوى أصابعه في قبضة يد من جديد:

- لا يوجد هناك سوى شيء واحد يمكن أن نفعله لإخراجنا من هذه الورطة، فأي شخص يمكنه اللعب واللّهو والصيد، وأي شخص يمكنه أن يحضر لنا اللحوم..

وراح ينتقل بنظراته من وجه إلى وجه، وبعدئذ - ولدى وصوله إلى لحظة الاعتقاد الراسخ والشغف الهائل - رفرفت الستارة في رأسه، فنسى ما كان يهدف إليه، فركع هنالك وقد أحكم غلق جماع يده، وأخذ يحملق في وقار، وينتقل بنظراته من شخص لآخر، وبعدئذ تحركت الستارة عنه منقشعة إلى الخلف.

- أوه! نعم.. ولذلك ينبغي علينا أن نبث الدخان، بل والمزيد من الدخان.

- ولكننا لا نستطيع الإبقاء على النيران مشتعلة باستمرار.. انظر إلى تلك النيران!

وكانت النيران قد بدأت تتلاشى أمامهم.

فقال «رالف» موجهًا الكلام لنفسه بعض الشيء:

- اثنان منا يهتمان بشئون النيران، بمعنى أنهما سيعملان في شئون النيران ١٢ ساعة يوميًا.

- لا نستطيع إحضار أية أخشاب أخرى، يا «رالف»..

- ليس أثناء الظلام..

وقال «بيجي»:

- يمكننا إشعال النيران في صباح كل يوم.. فلا أحد سيرى الدخان ليلًا في الظلام.

وأومأ «سام» برأسه في عنف:

- لقد كان الأمر مختلفًا عندما كانت النيران في الأماكن العلوية هنالك.

ونهض «رالف» واقفًا، وشعر بأنه عديم الحيلة لدى تزايد كثافة الظلام.

- إذن فلندع النيران تنطفئ في هذه الليلة فقط..

وسار في الطريق متجهًا إلى الكوخ الأول الذي لا يزال متماسكًا في مكانه، وإن كان قد تهشّم بعض الشيء، وكانت الأسرة المكونة من أوراق الشجر ملقاة في داخل الكوخ، وكانت الأوراق جافة وتصدر أصواتًا لدى مسها. وفى الكوخ التالي كان يوجد طفل صغير يتحدث أثناء نومه، وزحف الأولاد الأربعة الكبار إلى داخل الكوخ. وحفر كل واحد منهم لنفسه حفرة تحت الأوراق.. واستلقى «التوءمان» معًا واستلقى «رالف» و«بيجي» عند الجانب الآخر. واستمر تمزيق الأوراق وخشخشتها لبعض الوقت، وذلك أثناء محاولتهم التوصل إلى وضع مريح لأجسامهم.

- نعم.

- هل أنت على ما يرام؟

- أعتقد ذلك.

وأخيرًا أصبح الكوخ صامتًا فيما عدا بعض الخشخشة من وقت لآخر، وتعلق أمامهم مستطيل من الظلام يتخلله «ترتر» براق.. وكان هناك الصوت الأجوف لأمواج البحر المتكسرة على الشعب المرجانية. ووطد «رالف» نفسه للإستسلام للعبته الليلية التي ترتكز على الافتراضات..

لنفرض أنه أصبح بالإمكان نقلهم للوطن بطائرة نفاثة.. فهذا معناه إنهم سيهبطون قبل حلول الصباح في ذلك المطار الضخم في «ويلتشاير» وبعدئذ سينتقلون بالسيارة، لا. لكي تتم الأمور

على النحو السليم فإنهم سيذهبون بالقطار على طول المسافة جنوبًا حتى «ديفون» ويأخذون ذلك الكوخ الخلوي الصغير مرة أخرى، وبعدئذ تجئ الخيول المتوحشة عند نهاية الحديقة وتنظر من فوق السور.

وتقلب «رالف» في قلق بين أوراق الشجر.. لقد كانت الدار تصوّر متوحشة، وكذلك كانت الخيول.. إلا أنّ جاذبية التوحش كانت قد ولت إلى غير رجعة.

وانزلق ذهنه إلى التفكير في مدينة أليفة مروضة، حيث لا تستطيع الوحشية أن تضع قدمها عليها. وهل هناك شيء أكثر أمنًا من مركز «الأوتوبيس» بلمباته وعجلاته؟

وعلى الفور كان «رالف» يرقص حول عمود مصباح.. وكان هناك «أتوبيس» يزحف خارجًا من محطة «الأتوبيس»، وكان «الأتوبيس» عجيبًا..

- رالف! رالف!

- ماذا في الأمر؟

- لا تحدث ضجة على ذلك النحو الذي..

- آسف.

ومن بين الظلام السائد في الطرف البعيد من الكوخ ترامى صوت أنين مريع ومخيف، وتحركوا في عنف وخوف، وتهشمت الأوراق تحت وطأة حركاتهم، وكان «سام» و«إريك» في حالة احتضان، وراح يقاتل كل منهما لآخر.

- سام! سام!

- هاي-إريك!

وسرعان ما ساد الصمت مرة أخرى.

وتحدث «بيجي» بصوت خافت مع «رالف»:

- ينبغي أن نخرج من هذا الكابوس.

- ماذا تعنى؟

- يجب أن يتم إنقاذنا.

ولأول مرة في ذلك اليوم ضحك «رالف» في سخرية، على الرغم من حشود السواد والظلام الزاحفة.

فهمس «بيجي»:

- إنني أعنى ما أقول، فإذا لم نعد إلى وطننا على وجه السرعة فستخرج الرغاوى من أفواهنا.

- حول المنعطف..

- سعداء بإلقاء القنابل.

- أفاقون.

ورفع «رالف» خصلات شعره الرطب بعيدًا عن عينيه.

- ابعث بخطاب إلى عمتك؟

وفكر «بيجي» في هذا الأمر في وقار وخشوع!

- إنني لا أعرف أين هي الآن، وليس عندي مظروف ولا طابع بريد، ولا يوجد صندوق بريد لوضع الخطاب فيه، ولا يوجد ساعٍ للبريد..

وسيطر نجاح هذه النكتة الصغيرة على «رالف» فانخرط في ضحك هستيري لا يمكن التحكم فيه، وكان جسده يتقافز وينتفض.

فعنفه «بيجي» في وقار:

- إنني لم أقل شيئًا يدعو إلى كل هذا الضحك..

واستمر «رالف» في الضحك الهستيري برغم الآلام التي أحسّ بها في صدره، وأنهكته انتقاضات جسده إلى أن استلقى متقطع الأنفاس، كئيب المنظر، منتظرًا النوبة التشنجية التالية. وبدأ النوم يتربص به أثناء إحدى فترات التوقف عن الضحك.

- «رالف» لقد عُدَت تثير الضجة والضوضاء مرة أخرى، من فضلك التزم بالهدوء يا «رالف».. لا..

وتقلب «رالف» في اضطراب لاهث بين الأوراق.. وشعر بالامتنان لأن حلمه قد قطع، لأن «الأتوبيس» كان أكثر قربًا وأكثر وضوحًا..

- لماذا؟.. لأن..

- الزم الهدوء.. وأرهف السمع.

فاستلقى «رالف» في حرص وحذر وهو يتابع التنهيدة الطويلة المنبعثة من الأوراق. ونطق «إريك» ببضع كلمات في أنين ثم استلقى ساكنًا. وكان الظلام حالك السواد، باستثناء المستطيل العديم الجدوى الذي تتخلّله النجوم.

- إنني لا أسمع شيئًا.

- كان هناك شيء ما يتحرك خارج الكوخ.

وظهر وخز في رأس «رالف»، وأغرق صوت بكائه كل شيء آخر، وبعدئذ خمد وهدأ.

- مازلت غير قادر على سماع أي شيء.

- أرهف السمع.. أرهف، السمع لفترة طويلة.

وفى وضوح تام - وعلى نحو مؤكد تمامًا - صدرت خشخشة عن إحدى الأغصان على مسافة ياردة أو نحو ذلك من ظهر الكوخ، فزأرت الدماء مرة أخرى في أذني «رالف» وراحت الصور المختلطة تطارد بعضها بعضًا في داخل عقله. وكان خليط من هذه الأشياء يجول ويجوس حول الأكواخ.. وشعر برأس «بيجي» يرتكز على كتفه، بقبضة يده التي تمسك به في تشنج.

- رالف! رالف!

- التزم بالصمت وأرهف السمع.

وراح «رالف» يدعو الله في استماتة لكي يفضل الوحش التهام الأطفال الصغار.

وهمس صوت بشكل مرعب في الخارج:

- بيجي.. بيجي..

فشهق «بيجي» قائلًا:

- لقد وصل إلينا.. إنها حقيقة واقعة!

وأمسك بـ «رالف» في تشبث واشرأب بعنقه ليلتقط الهواء.

- «بيجي».. هيا نخرج من الكوخ.. أنا في حاجة إليك يا «بيجي»، وكان فم «رالف» ملاصقًا لأذن «بيجي».

- لا تقل أي شيء.

- «بيجي» أين أنت يا «بيجي»؟

واحتك شيء ما بسرعة خاطفة بظهر الكوخ، وظل «بيجي» ساكتًا للحظات، وبعدئذ تعرض لنوبة من الربو، فقوس ظهره وتمرغ بين الأوراق بساقيه، فتدحرج «رالف» مبتعدًا عنه.

وبعدئذ كان هناك عواء شرير في فتحة الكوخ، وظهر الوثوب والخبط واللكم الصادر عن كائنات حية.. وتعثر شخص ما فوق «رالف» وأصبح المكان الذي يكمن فيه «بيجي» يضج بالعواء والزمجرة وأصوات الارتطام والتحطيم والأطراف المتطايرة، وسدد «رالف» الضربات لهم.. وبعدئذ بدأ يتدحرج مع عددٍ من الآخرين يصل إلى حوالي ١٢ شخصًا، وانخرطوا جميعًا في

العض والضرب والخدش. وتعرض «رالف» للكمات الشديدة، وشعر بجسده يتمزق، وعثر على بعض الأصابع في فمه، فانهال عليها قضمًا وعضًا، وتراجعت قبضة قوية للخلف، ثم عادت مثل «البستن» حتى إن الكوخ بأكمله تفجر بالقتال، وتلوى «رالف» على جانب فوق قمة جسد يتضور ألمًا، وأحس بالأنفاس الساخنة فوق خده، فأخذ يدق ويسحق الفم الموجود تحته مستخدمًا قبضة يده المغلقة في إحكام كالمطرقة، وراح يضرب في مزيد من العصبية والهستيرية عندما أصبح الوجه زلقًا، وتحركت ركبة لأعلى بين ساقيه، فسقط على جانب متضورًا من الألم الشديد، ودار القتال فوقه، وبعدئذ تهاوى الكوخ في تداعٍ نهائي مكتوم، وشقت الأشكال العديمة الأسماء طريقها بصعوبة وهي تغادر المكان، وجرجرتْ أشكال مظلمة نفسها خارجة من الحطام، ورفرفت مبتعدة، وعندئذٍ أصبحت صرخات الأطفال وشهقات «بيجي» مسموعة بوضوح مرة أخرى.

ونادى «رالف» بصوت مرتجف:

- جميع الأطفال الصغار يذهبون للنوم، لقد دخلنا في معركة مع الآخرين، والآن اذهبوا للنوم.

فاقترب «سام» و«إريك» من «رالف» وحَلّقا فيه:

- هل أنتما الاثنان عل ما يرام؟

- أعتقد ذلك..

- لقد شطر جسدي إلى نصفين.

- وأنا كذلك، كيف الحال بالنسبة لبيجي؟

وجذبوا «بيجي» من بين الحطام وأسندوه على شجرة.. وكان الليل باردًا وخاليًا من الرعب المباشر، وكان تنفس «بيجي» قد تحسن بعض الشيء.

- هل أصبت بأية جروح يا «بيجي»؟

- ليس كثيرًا.

فقال «رالف» في مرارة:

- إنّه «جاك» والصيادون التابعون له.. لماذا لا يتركوننا وشأننا؟

فقال «سام»:

- لقد أعطيناهم علقة ساخنة لن ينسوها.

وأرغمته الأمانة على أن يستطرد قائلًا:

- أنتم على الأقل فعلتم ذلك، فأنا قد أصبت بالارتباك في أحد الأركان.

وقال «رالف»:

- لقد أعطيت واحدًا منهم درسًا قاسيًا. فقد حطمته تمامًا، وهو لم يأت مرة أخرى ليقاتلنا قبل أن يفكر في ذلك الأمر عشرات المرّات.

وقال «إريك»:

- وفعلت أنا أيضًا ذلك.. فعندما استيقظت من النوم كان هناك شخص يركلني ويرفسني في وجهي، وانسابت الدماء بشكل مريع من وجهي على ما أعتقد يا «رالف»، ولكني تغلبت عليه في النهاية.

- ماذا فعلت؟

فقال «إريك» في فخر:

- لقد رفعت ركبتي لأعلى وضربته بركبتي بين ساقيه.. ولا بد أنك سمعته يعوي من الألم، وهو قد أخذ درسًا قاسيًا ولن يعود إلى قتالنا مرة أخرى قبل أن يفكر في ذلك الأمر كثيرًا؛ ولذلك فنحن قد أثبتنا وجودنا..

وتحرك «رالف» فجأة في الظلام، ولكنّه سمع «إريك» يحرك فمه باستمرار:

- ماذا في الأمر؟

- لا شيء، مجرد سِنّة غير ثابتة.

ووقف «بيجي».

- أأنت على ما يرام «بيجي»؟

- لقد اعتقدت أنهم كانوا يريدون الحصول على المحارة.

وهرول «رالف» متجهًا إلى «البلاج» الشاحب، وقفز صاعدًا إلى الرصيف، وكانت المحارة مازالت تُلمح بجوار مقعد الرئيس، فحملق للحظات قليلة ثم عاد إلى «بيجي»:

- إنهم لم يأخذوا المحارة.

- أعرف ذلك، إنهم لم يجيئوا من أجل الحصول على المحارة، وإنما جاءوا من أجل شيء آخر. يا «رالف»، ماذا سأفعل أنا؟

وبعيدًا على طول الشريط المنحني للبلاج كان ثلاثة أشخاص يهرولون تجاه صخرة القلعة، وكانوا يحرصون على الابتعاد عن الغابة ويلتزمون بالجري بجوار الماء، وكانوا ينشدون من وقت لآخر بصوت منخفض، ومن وقت لآخر كانوا سيسيرون في بطء بجوار خط الضياء الفوسفوري المتحرك، وكان الرئيس يقودهما مهرولًا في خطوة منتظمة، وكان سعيدًا بما أنجزه من أعمال،

وكان في تلك اللحظة زعيمًا حقّا. وكان يقوم بحركات الطعن والوخز برمحه، وكانت نظارة «بيجي» المكسورة تتدلى من يده اليسرى.

الفصل الحادي عشر

صخرة القلعة

وتحت البرد المعتدل للفجر - والذي يدوم لفترة قصيرة - تجمع الأولاد الأربعة حول البقعة السوداء التي كانت توجد عليها النيران، وانحنى «رالف» وراح ينفخ، فتطاير رماد خفيف هنا وهناك نحو أنفاسه، ولكن لم تتوهج أية شرارة بين الرماد، وراقب «التوءمان» الموقف في قلق، في حين كان «بيجي» جالسًا - وقد خلا وجهه من أي تعبير - خلف الحائط المضيء؛ لقصر البصر عنده. واستمر «رالف» في النفخ إلى أن أصبحت أذناه تعانيان الجهد، وحلت النسائم الأولى للفجر محله في هذه المهمة وأعمت عينيه بالرماد، فتراجع للخلف قليلًا وجلس القرفصاء، وراح يسب ويلعن ويمسح الماء المنهمر من عينيه.

- لا فائدة!

فنظر «إريك» نحوه في استياء شبه محجوب من خلال قناع من الدماء الجافة. وحدق «بيجي» في الاتجاه العام الذي يوجد فيه «رالف».

- بالطبع لا جدوى من وراء النفخ يا «رالف». والآن لا توجد لدينا نيران.

وقرب «رالف» وجهه بحيث أصبح على مسافة قدمين فقط من وجه «بيجي».

- هل يُمكنك مشاهدتي؟

- فعلًا.

وسمح «رالف» للجزء المتدلي المتورم من خده بأن يغلق عينه مرة أخرى.

- لقد استولوا على نيراننا.

وتصاعد الغضب في داخله فصرخ في حدة:

- لقد سرقوا نيراننا.

وقال بيجي:

- ها هي ذي أفعالهم الدنيئة.. لقد أعموني وأصابوني بالعمى..

- وذلك هو «جاك» مريديو.. ادعُ إلى عقد اجتماع يا «رالف»؛ إذ ينبغي لنا أن نقرر ما يجب أن نفعله.

- اجتماع من أجلنا نحن فقط؟

- هذا هو كل ما لدينا من أعداد.. يا «سام» دعني أسير باستمرار على مقربة منك.

- وساروا جميعًا نحو الرصيف.

وقال «بيجي»:

- انفخ في البوق.. انفخ بصوت مرتفع بقدر ما تستطيع.

ودوت الغابة مرة أخرى بأصداء الصوت، فتطايرت الطيور من فوق قمم الأشجار بصوت مرتفع مثلما فعلت في ذلك الصباح الأول منذ عصور جيولوجية مضت، وكان «البلاج» مهجورًا على كلا الجابين، وجاء بعض الأطفال الصغار من الأكواخ، وجلس «رالف» فوق جذع الشجرة اللامع، ووقف الثلاثة الآخرون أمامه، وأومأ برأسه، وجلس «سام» و«إريك» جهة اليمين. ودفع «رالف» بالمحارة بين يدي «بيجي» فأمسك «بيجي» المحارة اللامعة في حرص وعناية وراح يرمش بعينيه تجاه «رالف»:

- أبدأ في التكلم؟

- لقد أخذت المحارة لكي أقول لكم: إنني لم أعد أستطيع الرؤية ومشاهدة الأشياء وإنه ينبغي لي استعادة نظارتي، ولقد حدثت أشياء مروعة ومخيفة على هذه الجزيرة، ومازالت تحدث، ولقد سبق أن أدليت بصوتي وانتخبتك رئيسًا - وهو الشخص الوحيد الذي يعمل دائمًا ما يروق له - لذلك يجب عليك يا «رالف» أن تتكلم وتحدثنا عما ستفعله. وإلا..

وتوقف «بيجي» عن الكلام وراح يبكي ويدع المخاط يسيل من أنفه، فأخذ «رالف» المحارة، وجلس «بيجي»:

- مجرد نيران عادية.. ولعلكم ترون معي أنه باستطاعتنا إشعال تلك النيران. أليس كذلك؟ مجرد إشارة من الدخان حتى يمكن إنقاذ حياتنا. أنحن أناس همجيون أم ماذا؟ ففي هذه اللحظة - ولأول مرة - لا تتصاعد إشارة من الدخان، وقد تكون هناك سفن تمر في هذه اللحظات بالقرب منا. هل تذكرون كيف أنه انهمك في أعمال الصيد فانطفأت النيران أثناء مرور سفينة القرب منا؟ ومع ذلك يعتقد الجميع أنه أفضل مني في منصب الرياسة. وبعدئذ كان هناك.. وكان هناك.. وتلك كانت غلطته أيضًا. فلو لم يكن هو رئيسًا لما حدث ذلك الأمر على الإطلاق. والآن لا يستطيع «بيجي» الرؤية بدون نظارة، وقد جاءوا إلينا بهدف السرقة ليلًا في الظلام، وسرقوا نيراننا. نعم سرقوا نيراننا، ولقد كنا على استعداد لإعطائهم ما يريدونه من نيران إذا طلبوا منا ذلك.. ولكنهم جاءوا وسرقوا النيران، وأطفئوا الإشارة، وبذلك لا يمكن إنقاذ حياتنا على الإطلاق.. أتفهمون ما أريد قوله؟ لقد كنا على استعداد لمنحهم ما يريدون من نيران، ولكنهم لجئوا إلى السرقة. وأنا..

وتوقف في شيء من التخاذل العقلي عندما رفرفت الستارة في ذهنه ورفع «بيجي» يديه طالبًا المحارة.

- ما هو الإجراء الذي ستتخذه يا «رالف»؟ فهذا الكلام الذي تقوله هو مجرد كلام بدون اتخاذ قرارات، وأنا أريد استعادة نظارتي.

- إنني أحاول التفكير في هذا الأمر، إنني أعرض عليكم فكرة الذهاب إليهم، نذهب إليهم بصورتنا العادية التي اعتدنا الظهور بها، الوجوه مغسولة، والشعر مصفف؛ لأننا أولًا وقبل كل شيء لسنا همجيين بالفعل، وإنقاذ حياتنا ليس من قبيل اللّهو واللعب.

وفتح الجزء المتورم المتدلي من خده، ونظر إلى «التوءمين»:

- باستطاعتنا أن نتأنق ونتهندم قليلًا، ثم نذهب إليهم.

فقال «سام»:

- ينبغي لنا أن نأخذ معنا الرماح، ويأخذ «بيجي» أيضًا رمحه.

- لأننا قد نحتاج إلى هذه الرماح.

- أنت غير ممسك بالمحارة!

فأمسك «بيجي» بالمحارة.

- يمكنكم أن تأخذوا معكم الرماح الخاصّة بكم إذا كنتم ترغبون في ذلك، ولكني لن أفعل ذلك، فما الفائدة إذا أخذت رمحي معي؟ فأنا سأُقاد مثل الكلب على أية حال. نعم اضحكوا. انخرطوا في الضحك المستمر. هناك أشخاص في هذه الجزيرة يضحكون على أي شيء.. وما هي النتيجة؟ وما هي الأفكار التي تدور في ذهن الأولاد الكبار؟ لقد تم اغتيال «سيمون» الصغير. كما كان الولد الصغير الذي له علامة على وجهه موجودًا، فمن منكم شاهده منذ أن جئنا إلى هذه الجزيرة؟

- يا «بيجي».. انتظر قليلًا!

- المحارة معي.. سأذهب إلى ذلك الولد المسمى «جاك مريديو» وأقول له بكل صراحة ما يعتمل في صدري.

- ستتعرض للأذى والمتاعب.

- وماذا يمكنه أن يفعل أكثر مما فعل؟ سأوضح له الصالح من الطالح، والغث من الثمين، ودعوني أحمل المحارة يا «رالف»، لكي أريه الشيء الوحيد الذي لم يحصل عليه.

وتوقف «بيجي» عن الكلام للحظات، وراح يحملق فيما حوله في الأشكال المعتمة، وكان تجسد الاجتماع القديم المهروس والمسحوق بالأقدام بين العشب يصغي إليه.

- سأذهب إليه وأنا ممسك بالمحارة في يدي، سأظهر المحارة واضحة أمامه، سأقول له استمع إليَّ. أنت أقوى مني، وأنت غير مصاب بمرض الربو. سأقول له: أنت تستطيع الإبصار بكلتا

عينيك، ولكني لا أتوسل إليك لكي ترد إليَّ نظارتي، ولا أريد الحصول على نظارتي من باب العطف والإحسان والمن عليّ. ولا أطلب منك أن تتحلى بالروح الرياضية، ليس لأنك على خطأ، ولكن لأن الحق هو الحق، سأقول لك: أعطني نظارتي. وهذا هو ما ينبغي أن تفعله.

وأنهى «بيجي» كلامه وهو يرتعش، وكانت دماء الغضب تتصاعد إلى رأسه، ودفع بالمحارة بين يدي «رالف» كما لو كان يريد التخلص منها على وجه السرعة، وراح يمسح الدموع من عينيه، وكان الضوء الأخضر لطيفًا حولهم، وكانت المحارة راقدة عند قدمي «رالف» رقيقة وبيضاء. وتلألأت نقطة واحدة من الماء قد هربت من بين أصابع «بيجي» فوق المنحنى الرقيق كأنها إحدى النجوم.

وأخيرًا اعتدل «رالف» في جلسته، ودفع بشعره للخلف:

- وهو كذلك، أقصد يُمكنك أن تفعل هذا إذا كان هذا الإجراء يروق لك، ولسوف نذهب معك.

فقال «سام» في خوف:

- ولكنّه سيكون مدهونًا بالطلاء، وأنتم تعرفون كيف أنه سيكون..

- إنه لن يهتم كثيرًا بنا.

- إذا ظهرت عليه المرونة فسنحصل عليها.

فعبس «رالف» في وجه «سام». وتذكر في شيء من الغموض وعدم الجلاء بعض الكلام الذي كان قد قاله «سيمون» ذات مرّت عند الصخور.

فقال:

- لا تكن أحمق، وأضاف قائلا بسرعة: هيا بنا.

وقدم المحارة لـ «بيجي» لكي يحملها، فارتفعت الدماء في وجه «بيجي» نتيجة للشعور بالفخر في هذه المرّة.

- ينبغي أن تحملها.

- عندما نصبح جاهزين سأحملها.

وراح «بيجي» يبحث في ذهنه عن كلمات يعبر بها عن رغبته العميقة في حمل المحارة، مع الابتعاد عن شبهة المجاملات:

- لا يهمني ذلك كثيرًا، وكل ما أريده يا «رالف» هو أن يتم اقتيادي على الطريق.

فوضع «رالف» المحارة على الكتلة الخشبية اللامعة.

- يحسن بنا أن نتناول الطعام أولًا ونستعد بعد ذلك.

وشقوا طريقهم نحو أشجار الفاكهة التي لحق بها الدمار والتخريب وتم مساعدة «بيجي» لكي يتمكّن من تناول طعامه، وعثر بنفسه على بعض الطعام عن طريق اللمس، وبينما كانوا يأكلون أخذ «رالف» يفكر في فترة ما بعد الظهيرة.

- سنكون على النحو الذي نحن عليه، ولسوف نغتسل.

فابتلع «سام» الطعام الذي يملأ فمه واحتج قائلًا.

- ولكننا نستحم في كل يوم!

فنظر «رالف» إلى الأشياء القذرة الموجودة أمامه وتنهد..

- ينبغي أن نمشط شعرنا، وكل ما هنالك أنه طويل للغاية.

فقال «إريك»:

- لدى في الكوخ جوربان، ويمكننا جذبهما فوق رؤوسنا مثل الطاقية، كنوع من أنواع الطواقي.

فقال «بيجي»:

- يمكننا العثور على شيء ما، ونربط به شعرنا من الخلف.

- مثل البنات!

- لا. ليس بالطبع مثل البنات.

وقال «رالف»:

- إذن يجب أن نذهب ونحن على ما نحن عليه. وهم لن يكونوا أفضل حالًا منا.

وقام «إريك» بحركة استدراك وإعاقة.

- ولكنهم سيكونون مدهوني الأجسام. وأنتم تعرفون كيف يكون منظر هذا الطلاء.

وأومأ الآخرون برؤوسهم، وأدركوا جيدًا أن إخفاء الأجسام بالطلاء يفضي إلى الوحشية، ويؤدي إلى الهمجية.

وقال رالف:

- حسنًا، أمّا نحن فلن ندهن أجسامنا؛ لأننا لسنا متوحشين أو همجيين.

فنظر «سام» و«إريك» أحدهما إلى الآخر.

- ومع ذلك..

فصرخ «رالف» في عنف:

- لا طلاء!

وحاول أن يتذكر.

وقال:

- الدخان. نحن نريد الدخان.

وانقلب على «التوءمين» في وحشية.

- لقد قلت «الدخان».. ينبغي أن نطلق الدخان.

وساد الصمت المطبق، ولم يتخلل ذلك الصمت سوى طنين الحشود الهائلة من النحل. وأخيرًا تكلّم «بيجي» في شيء من الود والحنان.

- بالطبع ينبغي أن نشعل النيران؛ لأن الدخان هو إشارة تدلّ على وجودنا، ولا يمكن أن تنقذ حياتنا إذا لم نتمكن من إطلاق الدخان.

فقال «رالف في حدة:

- إنني أعرف ذلك!

وجذب ذراعه بعيدًا عن «بيجي»، واستطرد:

- أأنت تقترح عليَّ هذه الأفكار؟

فقال «بيجي» على وجه السرعة:

- إنني أقول فقط ما تقوله أنت دائمًا، فقد فكرت في ذلك الأمر للحظات..

فقال «رالف» بصوت مرتفع:

- إنني لم أفكر في ذلك الأمر للحظات، ولكنني أدرك هذه الحقيقة طوال الوقت وباستمرار، فهذه الحقيقة متمثلة في ذهني بصفة مستمرة، ولا تغيب عن تفكيري في أي من الأوقات.

فأومأ «بيجي» في استعطاف واسترضاء.

- أنت الرئيس يا «رالف». أنت تتذكر كل شيء.

- أنا لم أنس.

- بالطبع لم تنس.

وكان «التوءمان» يفحصان «رالف» في شيء من الدهشة كما لو كانا يشاهدانه لأول مرة.

وانطلقوا على طول الشاطئ في مجموعة تتكون من أربعة أفراد.. وكان «رالف» يسير في المقدمة، وكان يعرج بعض الشيء وقد وضع رمحه على كتفه، وكان يرى الأشياء بشكل جزئي من خلال ارتعاشات ضباب الحرارة فوق الرمال المهتزة في وميض، وبسبب شعره الطويل، وبسبب الضرر والأذى الذي لحق به. وخلفه كان يسير «التوءمان» وكانا يشعران في تلك الآونة بالضيق، إلا أنهما كانا ممتلئين بالحيوية والقوة المتأججة، وكان كلامهما قليلًا، غير أنهما كانا يجران في تثاقل مقبضي رمحيهما الخشبيين؛ لأن «بيجي» كان قد اكتشف أن باستطاعته مشاهدة هذه الأمور التي تتحرك على طول الرمال، وذلك «بيجي» يسير بين المقبضين المسحوبين على الأرض وقد أمسك المحارة بكلتا يديه في حرص وعناية. وكان الأولاد بمثابة مجموعة صغيرة متآلفة تتحرك على «البلاج»، أربعة ظلال مسطحة كالصحيفة تتراقص وتختلط تحتهم، ولم تترك العاصفة أية آثار حيث كان «البلاج» نظيفًا مثل الفصل الذي تم صقله وتنظيفه. وكانت السماء والجبل يقعان على مسافة هائلة، وكانا يتوهجان تحت وطأة الحرارة، أمّا الشعب المرجانية فكانت مرفوعة لأعلى من خلال السراب، وكانت تطفو فوق بركة فضية تقع على منتصف الطريق المؤدى إلى السماء.

ومروا على المكان الذي سبق أن رقصت عليه القبيلة، وكانت الأغصان والعصي المتفحمة مازالت ملقاة على الصخور حيث أخدتها الأمطار، غير أن الرمال القريبة من مياه البحر أصبحت ناعمة مرة أخرى، ومروا على ذلك المكان في صمت. ولم يشك أحد في أن القبيلة سيتم العثور عليها عند صخرة القلعة، وعندما لاحت لهم صخرة القلعة توقفوا جميعًا في لحظة واحدة، وكانت أشد الكتل كثافة فوق الجزيرة، وهي كتلة من جذوع الأشجار الملتوية السوداء والخضراء التي لا يمكن اختراقها، وتقع على يسارهم، وكان العشب الطويل يتمايل وينحني أمامهم. وفى تلك اللحظة تقدم «رالف» للأمام.

وهنا كان يوجد العشب المهروس الذي سبق أن اضطجعوا عليه جميعًا عندما ذهب هو ليحتج، وكان يوجد هناك عنق الأراضي، وكانت توجد سلسلة الصخور القريبة من الشاطئ، والتي تلتف حول الصخرة، وفوق الصخرة كانت توجد القمم العالية الحمراء اللون.

ولمس «سام» ذراعه.

- الدخان!

وكانت هناك سحابة من الدخان تتمايل في ارتعاش في الهواء على الجانب الآخر من الصخرة.

- بعض النيران؟! لا أظن ذلك.

والتفت «رالف» وراءه:

- ولماذا نتخفى؟

واتخذ خطوات فوق الشريط العشبي وتخطاه إلى المساحة المكشوفة الصغيرة التي تؤدى إلى العنق الضيق:

- أنتما الاثنان تتبعانني في المؤخرة، سأسير أنا في المقدمة وسيسير «بيجي» ورائي بخطوة واحدة، واستعدا بالرماح الموجودة معكما.

وحملق «بيجي» في قلق في الحجاب المضيء الذي كان يتدلى بينه وبين العالم الخارجي.

- هل هناك أمان؟ ألا يوجد هناك منحدر صخري بالقرب من الشاطئ؟ إنني أسمع البحر بوضوح.

- عليك بالسير ورائي مباشرة.

وتحرك «رالف» للأمام تجاه العنق، وركل حجرًا، فطار نحو البحر ووقع في الماء، وعندئذٍ حدثت حركة امتصاص لأسفل في مياه البحر، فأزاحت النقاب عن مربع عشبي آخر على مسافة أربعين قدمًا أسفل ذراع «رالف» اليسرى.

فقال «بيجي» بصوت متهدج:

- هل أنا في أمان؟ إنني أشعر بالرهبة!

ومن مكان مرتفع فوقهم، ومن القمم العالية صدرت صيحة فجائية تلتها صرخة حرب، فردت عليها صرخات اثني عشر شخصًا مترامية من وراء الصخرة.

- أعطني المحارة، وقف مكانك صامتًا بدون حراك.

- توقف! من يسير هناك؟

فأحنى «رالف» ظهره ولمح وجه «روجر» المظلم فوق القمة. فصاح «رالف»:

- أنت تدرك من أنا، توقف عن هذا السخف ولا تكن غبيًا!

ووضع المحارة على شفتيه وبدأ في النفخ، فظهر المتوحشون بأجسامهم المدهونة بالطلاء، وتقدموا تدريجيًا حول سلسلة الصخور الغريبة من الشاطئ واتجهوا نحو العنق، وكانوا يحملون الرماح في أيديهم ويستعدون لحماية المدخل، فاستمر «رالف» في النفخ متجاهلًا موجات الرعب التي اجتاحت «بيجي».

وكان «روجر» يصيح:

- أنت معتوه.. ألا تدرك الموقف؟

وأخيرًا رفع «رالف» شفتيه عن المحارة وتوقف؛ لكي يسترد أنفاسه اللاهثة. ثم جاءت كلماته شاهقة ولاهثة، إلا أنها كانت واضحة ومسموعة.

- إنني أدعو إلى عقد الاجتماع.

وراح المتوحشون الذين يحرسون العنق يتمتمون فيما بينهم.. ولكن لم تصدر عنهم أية حركة. فتقدم «رالف» خطوتين للأمام. وهمس صوت وراءه في إلحاح:

- لا تتركني.. يا «رالف»!

فقال «رالف» وهو ينظر على جانب:

- عليك بالركوع على الأرض والانتظار إلى أن أعود إليك..

ووقف عند منتصف المسافة المؤدية إلى العنق وحملق في المتوحشين بشدة. وكان المتوحشون يشعرون بالحرية والانطلاق وهم مستترون وراء الدهان الذي يطلى أجسامهم، وكانوا قد ربطوا شعورهم الطويلة من الخلف، وبذلك كانوا يشعرون بالراحة أكثر منه، وقرر «رالف» أن يربط شعره من الخلف فيما بعد، بل شعر أنه يريد أن يطلب منهم الانتظار لحين قيامه بربط شعره إلى الوراء في نفس ذلك المكان وفى نفس تلك اللحظة. إلا أنّ هذا المطلب كان أمرًا مستحيلًا، وضحك المتوحشون ضحكات مكتومة، وأشار أحدهم برمحه نحو «رالف» وفى المكان العالي رفع «روجر» يديه عن العتلة الخشبية وانحنى بجسده للأمام، ليرى ما يحدث. وكان الأولاد الموجودون فوق العنق يقفون في بركة من الظلال الخاصّة بهم، وكانت الظلال متناقصة ولا تضم سوى رءوس مشوشة. وجثم «بيجي» منحنيًا، وكان ظهره عديم الشكل مثل الزكيبة.

- إنني أدعو إلى عقد اجتماع.

وساد صمت مطبق..

والتقط «روجر» حجرًا صغيرًا، وألقى به بين التوءمين، وكان يهدف إلى عدم إصابتهما بالحجر، ففزع «التوءمان» وتمالك «سام» نفسه بصعوبة، وبدأ نوع ما من القوة في النبض في داخل جسد «روجر».

وتكلم «رالف» مرة أخرى بصوت مرتفع:

- إنني أدعو إلى عقد اجتماع.

ومر ببصره عليهم جميعًا.

- أين يوجد «جاك»؟

فتحركت مجموعة الأولاد وراح يستشير بعضهم بعضًا، ثم تحدث وجه مدهون بالطلاء بصوت يشبه صوت «روبرت»:

- إنِّه يقوم بأعمال الصيد الآن، ونبهنا إلى عدم السماح لكم بالدخول إلى هذا المكان الخاص بنا.

فقال «رالف»:

- لقد جئت لبحث موضوع النيران معكم، وكذلك الموضوع الخاص بنظارة «بيجي».

وغيرت المجموعة الموجودة أمامه من أماكنها، وانطلقت ضحكات مرتعشة من بينهم، وكانت ضحكات خفيفة مملوءة بالتوتر، فترددت أصداؤها بين الصخور الطويلة.

وتحدث صوت من وراء «رالف»:

- ماذا تريد؟

وتحرك «التوءمان» فجأة وتخطيا «رالف» ووقفا بين «رالف» والمدخل، فاستدار «رالف» على وجه السرعة.. وكان «جاك» - الذي أمكن تمييزه من خلال شخصيته وشعره الأحمر - يتقدم للأمام خارجًا من الغابة. وكان هناك صيادان يربضان على كلا جانبيه وكان ثلاثتهم متخفين وراء أقنعة تضم اللونين: الأسود والأخضر، ووراءهم فوق العشب كان هناك الجسد المقطوع الرأس الممتلئ البطن للخنزيرة، حيث كان جسدها يرقد في نفس المكان الذي ألقي فيه.

وصرخ «بيجي»:

- لا تتركني يا «رالف»!

وفى حرص مثير للسخرية طوق الصخرة وصعد عليها فوق البحر الممتص للماء، وأصبحت ضحكات المتوحشين المكتومة تعليقات ساخرة عالية.

وصاح «جاك» بصوت يعلو على صوت الضوضاء.

- عليك بالانصراف بعيدًا يا «رالف». عليك بالالتزام بحدود المكان الخاص بك، أمّا هذا المكان فهو خاص بي وقبيلتي، ويجب أن تتركني وشأني.

فتلاشت الضحكات الساخرة.

فقال «رالف» لاهثًا:

- أنت سرقت نظارة «بيجي» وينبغي لك إعادتها إليه.

- ينبغي لي؟ ومن أنت حتى تتكلم بهذا الكلام؟

فاشتعلت انفعالات «رالف» وازدادت حدة.

- إنني أقول لك إنك قد أدليت بصوتك وانتخبتني رئيسًا.. ألم تسمع المحارة؟ لقد لعبت لعبة قذرة، وكنا على استعداد لتزويدك بالنيران التي تريدها إذا طلبت منا ذلك.

وكانت الدماء تتدفق إلى خديه وخفقت العين المصابة بكدمة:

- كان باستطاعتك الحصول على النيران في أي وقت تشاء، ولكنك لم تفعل ذلك؛ لأنك جئت متسللًا مثل اللص وسرقت نظارة «بيجي».

- قل لي هذا الكلام مرة أخرى.

- أنت لص.. لص.

فصرخ «بيجي»:

- قدر ظروفي يا «رالف».

فاندفع «جاك» ليطعن صدر «رالف» برمحه، ولكن «رالف» كان يحس بوضع السلاح عندما لمح ذراع «جاك» وتفادى الضربة باستخدام مقبض رمحه، ثم أدار رمحه وحاول طعن «جاك» بجوار أذنه، وتلاحما وجهًا لوجه، وراحا يلهثان في وحشية، ويتدافعان، ويحملق أحدهما في الآخر في غضب مستطير.

- من هو اللص؟

- أنت.

وتلوى «جاك» محررًا نفسه وسدد ضربة إلى «رالف» برمحه.. وأصبحا يستخدمان رمحيهما مثل سيوف المبارزة على نحو لا يفضي إلى الموت، وكأن ذلك قد تم من خلال موافقة مشتركة بينهما، وأصابت ضربة رمح «رالف» فانزلق من يده ووقع على أصابعه مصابًا بآلام مروعة، ثم تباعدا أحدهما عن الآخر مرة أخرى، وأصبحت أماكنهما معكوسة: أصبح «جاك» في اتجاه صخرة القلعة، وأصبح «رالف» في الناحية الخارجية تجاه الجزيرة.. وكان كلا الولدين يتنفس بصعوبة بالغة.

- هيا إذن!

- أقبل.. تعال!

وفى وحشية ضارية اتخذ كل منهما الوضع القتالي، ولكن كلا منهما حرص على وجود مسافة كافية بينه وبين الآخرين.

- اقترب مني وسألقنك درسًا قاسيًا.

- اقترب أنت.

وأنشب «بيجي» أظافره في الأرض، لأنّه كان يحاول جذب انتباه «رالف»، فتحرك «رالف» وانحنى لأسفل ناظرًا إلى «جاك» في حذر في الوقت نفسه.

- يا «رالف»: لا تنسَ الهدف الذي جئنا من أجله إلى هنا، لقد جئنا من أجل النيران ومن أجل نظارتي.

فأومأ «رالف» برأسه. وأرخى عضلاته المقاتلة ووقف في سلاسة واسترخاء، ووضع مقبض رمحه على الأرض.. وراح «جاك» يرقبه في شيء من الغموض من خلال الطلاء الذي يعلو جسده. وأخذ «رالف» ينظر لأعلى نحو القمم العالية، ثم نظر إلى مجموعة الأولاد الهمجيين المتوحشين.

- استمعوا إليَّ. لقد جئنا إلى هنا لنقول لكم: أولًا: ينبغي على «جاك» إعادة نظارة «بيجي». فهو لا يستطيع الرؤية بدون نظارة. وأنتم لا تلتزمون بالقواعد والقوانين، وتتصرفون بطريقة غير مشرفة..

فضحكت قبيلة المتوحشين المدهونين في قهقهة عالية، وتداعى عقل «رالف» ودفع شعره لأعلى، وحملق في القناع الأخضر والأسود الماثل أمامه محاولًا تذكر الشكل الحقيقي لـ «جاك».

وهمس «بيجي»:

- ولا تنس النيران.

- أوه، نعم.. وفيما يتعلق بالنيران فإنني أقول لكم مرة أخرى هذا القول، ولقد حرصت على تكرار ذلك القول منذ أن أسقطنا في هذا المكان.

ولوح برمحه وأشار إلى المتوحشين:

- إن الأمل الوحيد الماثل أمامكم يرتكز على الإبقاء على نيران الإشارة مشتعلة باستمرار طول فترات ضوء النهار. فلربما تلاحظ سفينة ما الدخان فتأتى؛ لتنقذ حياتنا وتنقلنا إلى وطننا، ولكننا بدون هذه النيران سنضطر للانتظار إلى أن تجئ سفينة ما بطريقة المصادفة، وقد نظل منتظرين لسنوات طويلة إلى أن نصبح طاعنين في السن..

فتناثر الضحك المرتعد الفضي الرنين غير الحقيقي من المتوحشين، وترددت أصداؤه بعيدًا، واهتز «رالف» في موجة من الغضب الفجائي. وأصبح صوته أجش.

- ألا تفهمون أيها المغفلون المدهونون بالطلاء؟ إن «سام» و«إريك» و«بيجي» و«أنا» - هذا العدد الضئيل لا يكفي لإشعال النيران بصفة مستمرة. ولقد حاولنا الإبقاء على النيران مشتعلة باستمرار، وفشلنا في ذلك.. وهأنتم أولاء تلهون بأعمال الصيد..

وأشار إلى ما وراءهم، حيث تتبعثر كميات ضئيلة للغاية من الدخان في الهواء.

- انظروا إلى ذلك الدخان! أتسمون هذه نيرانًا للإشارة؟ هذه ليست سوى نيران ضئيلة للطهي. والآن فأنتم ستأكلون، وبعدئذ لن يكون هناك دخان، ألا تفهمون؟ فقد تمر سفينة هنالك في عرض البحر..

وتوقف عن الكلام، وشعر بالإحباط بسبب الصمت وتنكر المجموعة التي تحرس المدخل وراء ستار من الطلاء والدهانات. وفتح «جاك» فمًا وردي اللون، ووجه كلامه إلى «سام» و«إريك» اللذين كانا يقفان بينه وبين هذه القبيلة:

- أنتما الاثنان ارجعا إلى الوراء!

فلم يردا عليه. وشعر «التوءمان» بالحيرة، وراحا ينظر كل منهما إلى زميله، في حين وقف «بيجي» في حذر بعد أن عادت الطمأنينة إليه عقب توقف أعمال العنف. وحملق «جاك» في «رالف» ثم انتقل ببصره وحملق في «التوءمين»:

- أمسكوا بهما!

فلم يتحرك.. فصرخ «جاك» في غضب:

- قلت لكم: أمسكوا بهما.

فتحركت المجموعة المدهونة بالطلاء حول «سام» و«إريك» في عصبية وبدون مهارة في استخدام اليدين. ومرة أخرى تناثرت الضحكات وأصبح «سام» و«إريك» من منطلق قلب الحضارة:

- أوه! لقد أصدرت أوامري بأمانة، وأخذت الرماح منهما..

- اربطوهما!

وصاح «رالف» في يأس في مواجهة القناع الأسود والأخضر:

- جاك!

- استمروا.. اربطوهما.

وشعرت المجموعة المدهونة بالطلاء بأن «سام» و«إريك» أصبحا شيئًا آخر مختلفًا عن ذي قبل، وشعرت بالسلطة متركزة في أيديها هي، وراحوا يضربون «التوءمين» في وحشية، وكانت ضرباتهم تتسم بالارتباك والإثارة. وهبط الإلهام على «جاك». فأدرك أن «رالف» سيحاول القيام بأعمال الإنقاذ فطوقه من الخلف وتفادى «رالف» الضربة القاتلة في الوقت المناسب، ووراءهما كانت القبيلة.. و«التوءمان» بمثابة كومة متصارعة متصايحة بصوت مرتفع، فجثم «بيجي» مرة أخرى، وبعدئذ أصبح «التوءمان» مطروحين على الأرض وقد اعترتهما دهشة بالغة، وكانت القبيلة تقفز حولهما. واستدار «جاك» نحو «رالف» وتكلم من بين أسنانه:

- أترى؟ إنهم ينفذون أوامري.

وساد الصمت مرة أخرى. وكان «التوءمان» مطروحين على الأرض ومربوطين بطريقة غير فنية، وراحت القبيلة ترقب «رالف» لمعرفة ما سيفعله. وراح «رالف» يحصي عددهم من خلال

أهدابه، ولمح الدخان غير الفعال بنظرة خاطفة.

فتفجر الغضب في داخله وصرخ في وجه «جاك»:

- أنت متوحش، ودموي، وخنزير، وجدير بالازدراء، ولص دموي!

وقام بالهجوم.

وهجم «جاك» هو الآخر وهو يدرك أن الأزمة قد وصلت إلى ذروتها، وتقابلا بحركة سريعة فجائية، وسدد كل منهما اللكمات العنيفة للآخر، ثم قفزا متباعدين. وبعدئذ وجه «جاك» لكمة قوية بجماع يده إلى «رالف» فوصلت اللكمة إلى أذنه. فسدد «رالف» ضربة في بطن «جاك» جعلته ينخر ويشخر كالخنزير. ثم بدأ يواجه كل منهما الآخر، وهما يلهثان ويموجان بالغضب والانفعال، غير أن كلا منهما لم يفقد شجاعته بسبب وحشية الآخر. وبدأا يدركان تلك الضجة والضوضاء التي أصبحت بمثابة الخلفيّة الموسيقية لهذا القتال، إذ كان هناك هتاف حاد مستمر من جانب القبيلة التي تشاهد الموقف خلفها. وشق صوت «بيجي» طريقه إلى أذن «رالف».

- دعني أتكلم.

وكان بيجي واقفًا وسط غبار المعركة، وعندما أدركت القبيلة ما يهدف إليه «بيجي» تحول الهتاف الحاد إلى أصوات ازدراء واستهجان منتظمة.

وأمسك «بيجي» بالمحارة، فهبطت أصوات الازدراء بعض الشيء، ثم ارتفعت في تزايد مرة أخرى.

- المحارة في يدي.

وصرخ في حدة.

- أقول لكم: إن المحارة في يدي.

وعندئذ ساد الصمت على نحو يدعو للدهشة، وكانت القبيلة متلهفة لسماع ما يمكن أن يقوله من كلام مثير للتسلية.

وساد الترقب أيضًا، ولكن الصمت كان يتخلله صوت هوائي يمرّ بجوار رأس «رالف»، فأعطى ذلك الصوت قدرًا من الانتباه - فسمعه مرة أخرى: صوت ضعيف «ظب ZUP»، كان هناك شخص ما يلقى بالحجارة، وكان «روجر» هو الذي يلقي بالحجارة. في حين كانت إحدى يديه لا تزال موضوعة فوق العتلة الخشبية، وأسفله كان «رالف» بمثابة كومة من الشعر، كما كان «بيجي» بمثابة كيس من الدهنيات.

- إنني ممسك بالمحارة لأقول لكم إنكم تتصرفون مثل زمرة أو شلة من الأطفال الصغار.

فتصاعدت أصوات الازدراء والاستهجان، وتلاشت مرة أخرى، وكان «بيجي» يرفع لأعلى الصدفة البيضاء الجميلة.

- أيهما أفضل: أن تكونوا مجموعة من الهنود المدهوني الأجساد بالطلاء مثلما أنتم عليه الآن، أو أن تكونوا أناسًا معقولين مثل «رالف»؟

فتصاعد ضجيج هائل بين المتوحشين. فصرخ «بيجي» مرة أخرى:

- ما الأفضل: أن يكون لدينا قواعد ولوائح وقوانين والاتفاق على مبدأ واحد، أو أن نلجأ إلى الصيد والقتل؟

فتصاعد الضجيج مرة أخرى، وتزايد صوت «الظب ZUP» فصاح «رالف» في وجه الضجيج:

- ما هو الأفضل: القانون وإنقاذ حياتنا أو الصيد وتحطيم القوانين؟

وهنا بدأ «جاك» يصرخ ويولول هو الآخر، ولم يعد باستطاعة «رالف» توصيل كلامه إلى الناس، وكان «جاك» قد رجع إلى اليمين في مواجهة القبيلة، فأصبحوا كتلة صلدة من التهديد مزودة بالرماح، وكانت نية القيام بهجوم تتشكل فيما بينهم، وكانوا يخططون لشن الهجوم، حيث كانوا يرغبون في تطهير العنق والإحاطة به، ووقف «رالف» في مواجهتهم، وكان يقف على جانب بعض الشيء، وقد استعد برمحه، وإلى جواره كان «بيجي» مازال ممسكًا بالتعويذة.. كان ممسكًا بالمحارة اللامعة الجميلة.

وهجمت عاصفة الصوت في عنف عليهما مثل تعويذة من الكراهية والبغضاء، ومن المكان المرتفع فوقهما استند «روجر» بكل قوته على العتلة الخشبية وقد تملكه إحساس بالاستهتار الممزوج بالهلوسة والهذيان.

وسمع «رالف» الصخرة الهائلة قبل أن يراها بلحظات طويلة، وكان مدركًا للاهتزاز العنيف في الأرض الذي ترامى إليه من خلال أخمص قدميه، كما كان مدركًا لصوت تحطم الحجارة فوق قمة المنحدر الصخري الشاهق. وبعدئذ قفز ذلك الشيء الأحمر الضخم البشع الفظيع عبر العنق، وألقى بنفسه في وضع مستو، في حين كانت القبيلة تصرخ صرخات مدوية.

وضربت الصخرة «بيجي» ضربة سطحية مائلة، ابتداء من ذقنه حتى ركبته، فانفجرت المحارة وتحطمت إلى آلاف من القطع الصغيرة، ولم يعد لها كيان على الإطلاق، ولم يقل «بيجي» شيئًا، ولم تصدر عنه أية زمجرة؛ إذ لم يكن هناك وقت لكي يزمجر، حيث طار على الفور في الهواء منحرفًا عن الصخرة ومنقلبًا أثناء طيرانه. ووثبت الصخرة مرّتين وضاعت في غياهب الغابة، وسقط «بيجي» على مسافة أربعين قدمًا، واستقر على ظهره عبر الصخرة الحمراء المربعة الموجودة في البحر. فشج رأسه وخرج منه بعض المواد، واكتسى الرأس باللون الأحمر، واختلجت ذراعا «بيجي» وساقه قليلًا مثل اختلاج الخنزير عقب ذبحه، وبعدئذ تنفس

البحر مرة أخرى في تنهيدة طويلة بطيئة. وعندما تراجعت المياه في امتصاص مرة أخرى كان جسد «بيجي» قد ولى إلى غير رجعة!

وفى هذه المرّة كان الصمت شديدًا ومطبقًا. وتحركت شفتا «رالف» فكونت كلمة، ولكن لم يصدر عنه أي صوت.

وفجأة قفز «جاك» خارجًا من بين القبيلة وبدأ في الصراخ في وحشية:

- أرأيت ما حدث؟ هل شاهدت ما حدث؟ وهذا هو مصيرك أيضًا، وهذه هي خطتي، فأنا أهدف إلى ذلك، لم يعد لديك قبيلة تحميك. والمحارة قد تحطمت وانتهت إلى الأبد.

وجرى في انحناء مندفعًا للأمام:

- أنا الرئيس.

وقذف رمحه تجاه «رالف» في شر مستطير وتصميم كامل، فمزق سن الرمح الجلد واللحم في ضلوع «رالف» ثم انحرف الرمح وسقط في مياه البحر. وتعثر «رالف» ولم يشعر بالألم، ولكنّه أحسّ بالهلع والذعر الشديدين، وانخرطت القبيلة في الصراخ مثل رئيسها، وبدأت تتقدم للأمام، وطار رمح آخر ملتو في خط غير مستقيم ومرّ بجوار وجه «رالف»، وسقط رمح آخر صادر من المكان المرتفع الذي يجلس فيه «روجر» وكان «التوءمان» مستلقيين في تخف وراء القبيلة، وراحت وجوه الشياطين المجهولي الهوية تحتشد عبر العنق، فاستدار «رالف» وانطلق هاربًا. وتصاعدت وراءه ضجة عالية كأنها صادرة عن النورس البحري. وأطاع غريزة لم يكن يعرف أنه يمتلكها، وانحرف فوق الفضاء المكشوف، حتى إن الرماح انطلقت بعيدًا عن الهدف. وشاهد جسد الخنزيرة المفصولة الرأس، وقفز فوقها في الوقت المناسب، وبعدئذ شقّ طريقه في جلبة صاخبة في داخل الأوراق والنباتات والأغصان الصغيرة، وأصبح متخفيًا بين غياهب الغابة.

ووجد الرئيس نفسه يتوقف عند الخنزيرة، فاستدار ورفع يديه.

- ارجعوا.. ارجعوا إلى القلعة!

وعلى الفور عادت القبيلة في صخب إلى العنق، حيث انضم إليهم «روجر» فتكلم الرئيس معه في غضب:

- لماذا تركت الحراسة؟

فنظر «روجر» إليه في وقار وقال:

- لقد هبطت فقط إلى أسفل.

وتحلق حوله رعب الجلادين.. ولم يقل الرئيس له أي كلام آخر، ولكنّه نظر لأسفل نحو «سام» و«إريك».

- ينبغي لكما الانضمام إلى القبيلة.

- دعني أنصرف.

- وأنا.

فاختطف الرئيس أحد الرماح القليلة المتبقية، وضرب به «سام» في ضلوعه.

وقال الرئيس في وحشية:

- ماذا تعنى؟ هيه؟

- وما معنى مجيئكم بالرماح؟ وماذا تعني بعدم الانضمام إلى قبيلتي.

وأصبح الوخز والنخس متكررًا على إيقاع منتظم.. فاحتج «سام» صارخًا بصوت مرتفع:

- ليست هذه هي الوسيلة الصحيحة.

وتقدم «روجر» متخطيًا الرئيس، ومتجنبًا دَفْعَه بكتفه، حيث كان قريبًا وتقدم للغاية من الرئيس أثناء تقدمه. وتوقف صراخ «سام»، وكان «سام» و«إريك» مطروحين على الأرض، وكانا ينظران لأعلى في رعب هادئ، وتقدم «روجر» نحوهما كشخص يستخدم سلطة قبيحة لا يمكن وصفها.

الفصل الثانى عشر

صيحة الصيادين

واستلقى «رالف» في مخبأ وأخذ يتعجب من جراحه، وكانت الكدمة الزرقاء في اللحم يصل قطرها بضع بوصات فوق ضلعه الأيمن، كما كانت هناك ندبة غائرة دموية متورمة في المكان الذي طعنه الرمح فيه. وكان شعره مملوءًا بالقذارة ومولولبًا من الداخل، مثل الأجزاء اللولبية في النباتات المتسلقة، وتعرض جسده كله للخدش والكدمات، نتيجة لهربه وتدافعه في عمق الغابة. وعندما أصبح تنفسه طبيعيًا مرة أخرى استقر رأيه على ضرورة تأجيل غسل جروحه بالمياه؛ إذ كيف يستطيع المرء أن يصغى لأصوات الأقدام العارية إذا كان هو مندمجًا في الطرطشة في الماء؟ وكيف يستطيع المرء أن يشعر بالأمن والأمان وهو موجود بجوار المجرى المائي الصغير، أو على «البلاج» المكشوف؟

وراح «رالف» يرهف السمع، إنِّه لم يكن بعيدًا بالفعل عن صخرة القلعة، وأثناء الفزع والهلع الأول كان قد اعتقد أنه سمع أصوات اقتفاء أثره، غير. إن الصيادين كانوا قد اكتفوا بالتسلل إلى الأهداب الخارجية للنباتات الخضراء، وربما أخذوا يصلحون الرماح، وبعدئذ اندفعوا عائدين إلى الصخرة المشمسة كما لو كانوا خائفين من الظلام الموجود تحت أوراق الشجر. وكان قد لمح واحدًا منهم مدهونًا باللون الأسود والبني والأحمر، وخيل إليه أن ذلك الولد هو بيل Bill وكانت هذه صورة ولد متوحش رفضت صورته الاندماج مع تلك الصورة القديمة لولد يرتدي القميص والبنطلون القصير.

وتلاشت فترة ما بعد الظهيرة، وتحركت بقع ضوء الشمس المستديرة بانتظام فوق سعف النخيل، وأوراق السرخس الخضراء، وفوق الليف البني للنباتات، ولكن لم تترامَ أية أصوات من خلف الصخرة. وأخيرًا تسلل «رالف» خارجًا كالدودة من بين نباتات السرخس، ثم تسلل خارجًا للأمام نحو حافة تلك الأجمة التي لا يمكن اختراقها، والتي تواجه عنق الأراضي، وحلق في حذر شديد بين الأغصان في الحافة، فشاهد «روبرت» جالسًا للحراسة فوق قمة المنحدر الصخري الشاهق، وكان ممسكًا برمح في يده اليسرى، وكان يلقى بحصوة لأعلى بيده اليمنى ثم يلتقطها مرة أخرى. وخلفه كان هناك عمود من الدخان يتصاعد في كثافة لأعلى، حتى إن فتحتي أنف «رالف» اتسعتا، وسال اللعاب من فمه، ومسح «رالف» أنفه وفمه بظهر يده، وبدأ يشعر بالجوع لأول مرة منذ ذلك الصباح، لابد أن القبيلة تجلس حول الخنزيرة المنزوعة الأحشاء وترقب الشحوم والدهون وهي تنز وتحترق بين الرماد، إنهم منهمكون قطعًا في تناول الطعام.

وظهر هيكل آخر يصعب التعرف على شخصيته بجوار «روبرت» وأعطاه شيئًا ما، ثم استدار ورجع إلى خلف الصخرة، ووضع «روبرت» رمحه على الصخرة بجواره وبدأ يقضم بين يديه المرفوعتين، وهذا يعنى أن الوليمة قد بدأت بالفعل، وأن الحارس قد أعطي نصيبه.

وعندئذ أدرك «رالف» أنه آمن في سلام بشكل مؤقت، فأخذ يعرج مبتعدًا بين أشجار الفواكه، وعندما تذكر الوليمة أدرك أنه يتناول طعامًا عاديًا، بل طعامًا مرًا.. الوليمة اليوم وبعدئذ غدًا..

وراح يناقش نفسه في اقتناع بأنهم قد يتركونه وشأنه، بل قد يحرمون قتله، ولكن الإدراك الواقعي الشديد عاد إليه مرة أخرى، وكان تحطيم المحارة وقتل «بيجي» و«سيمون» يجثم فوق الجزيرة مثل الضباب، فهؤلاء المتوحشون المدهونون بالطلاء قد يتمادون أكثر وأكثر، وبعدئذ كانت هناك تلك الرابطة التي يتعذّر تحديدها وتعريفها بينه وبين «جاك»؛ ولذلك لن يتركه «جاك» وشأنه على الإطلاق.

وتوقف وقد برقشته الشمس بالبقع، وكان ممسكًا بغصن كبير، وكان مستعدًا للتواري تحت ذلك الغصن لكيلا أحد يراه، وتملكته نوبة من الرعب جعلته يرتعد ويرتجف، فصاح بصوت مرتفع.

لا. إنهم ليسوا سيئين على هذا النحو، وما حدث كان مجرد حادثة.

وتوارى بسرعة تحت الغصن الكبير المملوء بالأوراق، وجرى في ارتباك، وبعدئذ توقف وراح يرهف السمع.

ووصل إلى الفدادين المهشمة التي تضم أشجار الفاكهة، وأخذ يأكل في شراهة بالغة. وشاهد طفلين صغيرين، ونظرًا لأنّه لم تكن لديه أي فكرة عن منظره البشع فإنّه تعجب عندما صرخ الأولاد ولاذوا بالفرار بمجرد أن شاهدوه.

وبعد أن فرغ من تناول الطعام سار تجاه «البلاج» وكان ضوء الشمس يميل آنئذ نحو أشجار النخيل القريبة من الأكواخ المحطمة. وكات هناك بركة الاستحمام والرصيف، وكان أفضل شيء يمكن عمله هو أن يتجاهل أحاسيس الكآبة الجاثمة على قلبه، ويعتمد على إدراكهم السليم ورجاحة عقلهم وسلامة عقلهم تحت ضوء النهار، وطالما أن القبيلة قد فرغت من تناول طعامها فإنّ عليه أن يحاول معها مرة أخرى. وعلى كل حال فهو لم يكن باستطاعته البقاء طوال الليل في كوخ شاغر بجوار الرصيف المهجور، واقشعر جسده وبدأ يرتعد تحت شمس المساء. لا نيران، لا دخان، لا إنقاذ، فاستدار وأخذ يعرج مخترقًا الغابة ومتجهًا نحو المكان الخاص بـ «جاك» في الجزيرة.

وكانت العصي المائلة لضوء الشمس تضيع معالمها بين الأغصان، وأخيرًا وصل إلى مكان مكشوف بالغابة، حيث كانت الأرض صخرية، ما حال دون نمو النباتات، وكان هذا المكان في تلك الآونة بمثابة بركة من الظلال، وكاد «رالف» يلقى بنفسه خلف إحدى الأشجار عندما شاهد شيئا ما واقفًا في منتصف هذا المكان، ولكنّه أدرك عندئذٍ أن الوجه الأبيض كان عظامًا، وأن جمجمة الخنزيرة كانت تبتسم له من فوق قمة العصا.. فسار في بطء نحو منتصف المكان المكشوف، ونظر نظرات ثاقبة إلى الجمجمة التي تلمع وتتلألأ بلونها الأيض مثلما كانت المحارة تلمع، وبدت الجمجمة وكأنها تسخر منه بشكل يثير الشكوك في طبيعة الدوافع البشريّة.. وشاهد نملة فضولية ميالة للبحث والتحقيق، وقد انهمكت في التجول في تجويف إحدى العينين، وكان ذلك الشيء فاقد الحياة.

وسرت في ظهره وخزات قليلة من الإحساس، فتوقف، وكانت الجمجمة على نفس المستوى مع وجهه تقريبًا، ورفع شعره بكلتا يديه. وابتسمت الأسنان، وبدا تجويفا العينين الشاغران وكأنهما يتلقيان حملقته بطريقة بارعة، وبدون أي جهد.

وماذا كان ذلك الشيء؟

لقد كانت الجمجمة ترقب «رالف» مثل الشخص الذي يعرف جميع الإجابات، ولكنّه يرفض التكلم. واجتاحه الخوف المريض والغضب. وضرب في وحشية ذلك الشيء الكريه الماثل أمامه، فتراجع للخلف مثل لعبة الأطفال، وعاد مرة أخرى وهو لا يزال يبتسم في وجهه، حتى إنّه اهتزّ في عنف وصاح في نفور واشمئزاز شديدين. وبعدئذ راح يلعق المفاصل بين سلاميات أصابعه التي أصيبت بالكدمات، وأخذ ينظر إلى العصا العارية حيث انفلقت الجمجمة إلى شطرين، وأصبحت الابتسامة حينئذ ممتدة لمسافة ست أقدام، واقتلع العصا المرتعشة من الشرخ، وأمسك بها مثل رمح يحول بينه وبين القطع البيضاء، وبعدئذ تراجع بظهره إلى الخلف وهو لايزال ينظر إلى الجمجمة التي استلقت على الأرض واتجهت بابتسامتها نحو السماء.

وبعد أن تلاشى التوهج الأخضر وزال عن الأفق واكتمل الليل تمامًا، وصل «رالف» مرة أخرى إلى الأيكة التي تواجه صخرة القلعة، فراح يحملق من خلال الأيكة، وأدرك أن القمة مازالت تعجّ بالناس، وكان كل فرد منهم معه رمحه وعلى أهبة الاستعداد.

وركع بين الظلام، واجتاحته مشاعر الوحدة المريرة، صحيح إنهم أناس متوحشون همجيون، غير أنهم كانوا آدميين، وبدأت تزحف عليه مخاوف الليل البهيم المتربصة به.

وتوجع «رالف» في أنين خافت، وبرغم أنه كان يشعر بالإرهاق فإنّه لم يستطع اللجوء إلى الاسترخاء والسقوط في بئر من النوم العميق بسبب خوفه من القبيلة، أليس من الممكن أن يسير بشجاعة إلى القلعة ويقول لهم:

السلام عليكم، ويضحك معهم قليلًا وينام بين الآخرين؟ وهل يدعي أنهم مازالوا أولادًا.. أولاد مدارس بحيث يردون عليه قائلين:

- نعم يا سيدي، نعم.

وهم يضعون القبعات على رءوسهم. لو كان الوقت بالنهار لكانت الإجابة عن هذا التساؤل هي:

- نعم.

ولكن الظلام ومخاوف الموت المرعبة حددت الإجابة:

- لا.

وكان يدرك أن الاستلقاء هنالك في الظلام وحيدًا معناه أنه منبوذ من المجتمع.

- كل هذا الذي حدث سببه أنني أتميز عنهم ببعض الإدراك السليم. ومسح خده على ساعده وهو يشم الرائحة الحريفة للملح، والعرق، والبول والقاذورات. وإلى جهة اليسار كانت أمواج المحيط تتنفس وتتراجع في امتصاص لأسفل، وبعدئذ تغلى عائدة فوق الصخرة.

وكانت هناك أصوات آتية من وراء صخرة القلعة، فأخذ «رالف» يصغي بانتباه وحرص وهو يفصل ذهنه عن الإيقاع المطرد للبحر، فاستطاع أن يتبين إيقاعًا مألوفًا له:

- اقتلوا الوحش! اقطعوا رقبته! اسفكوا دماءه!

لقد كانت القبيلة منهمكة في الرقص، وفى مكان ما على الجانب الآخر لهذا الحائط الصخري ستكون هناك حلقة مظلمة ونيران متوهجة ولحوم مشوية، ولسوف يستمتعون بالطعام والراحة الأمن..

وارتعد عندما ترامى إلى سمعه أصوات أكثر اقترابًا، فقد كان المتوحشون يتسلقون صخرة القلعة إلى قمتها مباشرة، وكان بمقدوره سماع أصواتهم، فتسلل إلى الأمام لمسافة ياردات قليلة، وشاهد الشكل عند قمة الصخرة يتغير ويتوسع، ولم يمكث على الجزيرة سوى ولدين فقط كانا يتحركان أو يتكلمان على ذلك النحو.

ومال «رالف» برأسه على ساعديه وتقبل هذه الحقيقة الجديدة كأنها جرح، إذن لقد أصبح «سام» و«إريك» جزءًا من القبيلة، فقد كانا يحرسان صخرة القلعة لكيلا يقترب هو منها، ولم تكن هناك فرصة لإنقاذهما وتكوين قبيلة أخرى طريدة عند الجانب الآخر للجزيرة، فقد كان «سام» و«إريك» متوحشين مثل باقي الأولاد، أمّا «بيجي» فإنّه قد مات، كما أنّ المحارة قد تهشمت وتحولت إلى مسحوق.

وأخيرًا هبط الحراس، وبدا الحارسان اللذان بقيا كأنهما امتداد مظلم للصخرة، وظهر نجم خلفها، وكان يتعرض للخسوف في أية لحظة بسبب أي حركة.

وتقدم «رالف» تدريجيًا للأمام متحسسًا طريقه فوق السطح غير المستوي كما لو كان أعمى. وكانت هناك أميال من المياه الغامضة تقع على يمينه، وكان المحيط الهادر يقع على يساره، وكان مخيفًا مثل فوهة حفرة كبيرة، وفى كل لحظة كانت المياه تتنفس حول صخرة الموت، وتتحول إلى حقل من الزهور البيضاء، وراح «رالف» يزحف إلى أن أمسكت يده بحافة المدخل، وكان الحارسان فوقه مباشرة، وتمكّن من مشاهدة طرف رمح ناتئ فوق الصخرة.

فنادى بصوت منخفض للغاية:

- «سام».. «إريك»..

فلم يتلق ردًا.. إذن عليه أن يرفع صوته قليلًا حتى يصل إليهما، ولكنّه إذا رفع صوته يثير انتباه تلك المخلوقات المعادية المخططة بالألوان التي تتناول وليمة اللحوم بجوار النيران، فكزّ على أسنانه، وبدأ في التسلق، وتحسس الأماكن التي يمسك بها أثناء التسلق، وأعاقته تلك العصا التي

كانت تستند عليها الجمجمة، ولكنّه قرر عدم التخلص من سلاحه على الإطلاق، وأصبح أخيرًا في نفس مستوى «التوءمين» تقريبًا، فتكلم مرة أخرى.

- «سام».. «إريك»..

فسمع صيحة وهياجًا عصبيًا آتيًا من الصخرة. وكان التوءمان قد أمسك كل منهما بالآخر، وراحا يهذيان:

- أنا «رالف»... أنا «رالف».

وحل بهما الرعب الشديد حتى إنهما لم يتمكنا من الجري وتنبيه الآخرين، فرفع «رالف» نفسه لأعلى إلى أن التصق رأسه وكتفاه فوق قمة الصخرة.

- لست سوى «رالف». أنا «رالف».

فانحنيا أخيرًا للأمام، وراحا يحملقان في وجهه:

- لقد اعتقدنا..

- لم نكن نعرف..

- لقد اعتقدنا..

أو هبطت عليهما ذكرى ولائهما الجديد المخجل، فالتزم «إريك» بالصمت. ولكن «سام» حاول تنفيذ الواجب الملقى عليه:

- ينبغي أن تذهب يا «رالف» انصرف الآن على الفور.

وحرك رمحه وظهرت عليه دلائل الوحشية:

- ارحل على الفور، أتفهمني؟

وهز «إريك» رأسه موافقًا على ذلك، وطعن برمحه في الهواء..

فاستند «رالف» على ذراعيه، ولم ينصرف.

- لقد جئت لمقابلتكما أنتما الاثنين.

وكان صوته خشنًا، وكان حلقه يؤلمه في تلك الآونة برغم، أنه لم يصب بأية جراح.

- لقد جئت من أجل رؤيتكما.

ولم تستطع الكلمات التعبير عن الآلام الغامضة التي تكتنف مثل هذه الأمور، فلاذ بالصمت.

وتحرك «سام» في قلق:

- أقول لك بكل أمانة يا «رالف» إنّه يحسن بك أن تذهب، فنظر «رالف» لأعلى مرة أخرى.

- أنتما الاثنان شخصان غير مدهونين الطلاء.. فكيف يمكنكما..؟ لو كنا الآن في ضوء النهار.

لو كان ضوء النهار ساطعًا لكان العار قد حرقهما لدى إقرارهما لهذه الأمور، ولكن الليل كان حالك الظلام، واتخذ «إريك» موقفًا، وبعدئذ بدأ «التوءمان» كلاهما التجاوب:

- ينبغي لك أن تذهب؛ لأن الجو محفوف بالمخاطر.

- لقد عذبونا، لقد آذونا.

- من؟ «جاك».

- أوه. كلا.

وانحنيا نحوه وخفضا من صوتهما.

- انصرف يا «رالف».

- إنها قبيلة.

- لم نستطع أن نفعل شيئًا إزاء ذلك الأمر.

وعندما تحدث «رالف» مرة أخرى كان صوته متخففًا، وبدا كأنه لاهث الأنفاس.

- ما الذي فعلته أنا؟ لقد كنت أحبه، وكل ما هنالك أنني أردت إنقاذ حياتنا جميعًا.

وتناثرت النجوم في أرجاء السماء مرة أخرى. وهز «إريك» رأسه وقال في اهتمام:

- استمع إليَّ يا «رالف»: دعك من تلك الأمور التي تتمشى مع رجاحة العقل ودعك من مسألة الزعامة والرياسة، وينبغي لك أن تتصرف؛ فهذا من مصلحتك، فالرئيس و«روجر»، نعم «روجر»، إنهما يكرهانك يا «رالف» كرهًا شديدًا، وهما سيعملان على قتلك.

- إنهما سيعملان على اصطيادك غدًا.

- ولكن لماذا؟

- لست أدرى فالرئيس «جاك» يقول إنّه من الخطر..

- وإنه ينبغي أن نلتزم الدقة، ونقذف بالرماح مثلما نصوبها على خنزير.

- ولسوف ننتشر في خط عبر الجزيرة.

- ولسوف نتقدم ابتداء من هذا الطرف إلى أن يتم العثور عليك.

- ولسوف نعطي إشارات على هذا النحو.

ورفع «إريك» رأسه وأصدر صوتًا كالولولة بأن راح يضرب على فمه المفتوح، ولكنّه حرص على أن تكون الولولة بصوت خافت، وبعدئذ ألقى نظرة خاطفة وراءه في عصبية.

- على ذلك النحو..

- ولكنّها ستكون بالطبع أكثر ارتفاعًا.

فهمس «رالف» في إلحاح:

- ولكني لم أفعل شيئًا.. كل ما هنالك أنني أردت الإبقاء على النيران مشتعلة.

وتوقف للحظات وراح يفكر في الغد وقد اجتاحته مشاعر البؤس والشقاء وهبط عليه نوع من الشعور بالأهمية البالغة.

ومن أنتم؟

ولم يستطع أن يضع نفسه في إطار محدد في بادي الأمر، ولكن مشاعر الوحدة والخوف لسعته.

- وماذا سيفعلون بي عندما يجدونني؟

فالتزم «التوءمان» بالصمت، وازدانت صخرة الموت بالأزهار مرة أخرى.

- ماذا سيفعلون هم؟ أوه! يا إلهي! إنني أشعر بالجوع.

وبدت الصخرة الشاهقة وكأنها تترنح تحته.

- حسنًا.. ماذا؟

فرد «التوءمان» على تساؤله بطريقة غير مباشرة.

- ينبغي لك أن تتصرف الآن يا «رالف»؟

- وهذا سيكون في صالحك.

- واحرص على الابتعاد.. على أبعد مسافة ممكنة.

- ألن تجيئا معي؟ سنكون ثلاثة أشخاص. فقد يحالفنا الحظ.

وبعد لحظات من الصمت تكلّم «سام» بصوت مخنوق:

- أنت لا تعرف «روجر» تمامًا، فهو شيطان وإرهابي ودموي..

- وكذلك الرئيس.. هأنتما الاثنان.. دمويان، ومثيران للرعب.

وتجمد كلا الولدين من الخوف، فقد كان هناك شخص ما من أفراد القبيلة يصعد ويتسلق نحوهما.

- إنّه قادم إلينا ليرى بنفسه ما إذا كنا نقوم بأعمال الحراسة، أسرع يا «رالف»؟

وبينما كان «رالف» يعد نفسه للنزول على المنحدر الصخري حاول التمسك بالفائدة الأخيرة الممكنة التي يمكن انتزاعها من هذا الاجتماع.

فهمس قائلًا:

- سأذهب إلى مكان قريب.. إلى هذه الأدغال الموجودة هنالك، ولذلك ينبغي لكما إبعادهم عن هذا المكان، وهم لن يخطر على بالهم مطلقًا أن يبحثوا عني في مكان قريب للغاية منهم.

وكان وقع الأقدام مازال على مسافة بعض الشيء..

- «سام»، إنني سأكون على ما يرام، أليس كذلك؟

فالتزم «التوءمان» بالصمت مرة أخرى..

وفجأة قال «سام»:

- خذ هذه.

وشعر «رالف» بكتلة كبيرة من اللحم تدفع نحوه، فأمسك بها في تشبث.

- ولكن ماذا ستفعلون عندما تمسكون بي؟

وساد الصمت في الأعالي، وأحس بسخافة سؤاله.

فأنزل نفسه وبدأ يتدلى هابطًا على جنب المنحدر الصخري.

- ماذا أنتم فاعلو بي عندما؟

ومن قمة الصخرة الشاهقة ترامت إليه الإجابة الغامضة غير المفهومة: لقد برى «روجر» عصًا من الطرفين بحيث أصبحت حادة من الطرفين.

لقد سن «روجر» عصًا من كلتا الناحيتين.. وحاول «رالف» أن يجد معنى لهذه العبارة، ولكنّه لم يفلح في ذلك، وفي نوبة من الغضب استخدم جميع الكلمات السيئة التي يعرفها، إلا أنّ موجة الغضب أفضت إلى التثاؤب.

كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يظل بدون نوم، وأدرك أنه يتحرق شوقًا إلى سرير وملاءات، إلا أنّ اللون الأبيض الوحيد هنا هو اللبن المسفوك المنساب في بطء المشرق المتألق حول الصخرة

التي تقع بالأماكن السفلية على مسافة أربعين قدمًا، حيث سقط «بيجي». وكان «بيجي» موجودًا في كل مكان، وكان فوق العنق، وأصبح سريعًا في الظلام والموت.. لو قدر لـ «بيجي» الخروج الآن من الماء برأسه الشاغر.. وانخرط «رالف» في نشيج وبكاء وتثاؤب مثل طفل صغير. وأصبحت العصا بيده بمثابة عكاز يترنح عليه.

ثم توترت أعصابه مرة أخرى، كانت هناك أصوات تتصاعد فوق قمة قلعة الصخرة. وكان «سام» و«إريك» يتناقشان مع شخص ما. ولكن نباتات السرخس والأعشاب كانت قريبة، وذلك كان هو المكان الذي ينبغي أن يتوارى فيه مؤقتًا، وبعدئذ يهرع إلى الأدغال حيث يختبئ فيها طوال نهار الغد، فهذا - ولمست يداه العشب - هو المكان الذي ينبغي أن يقضى فيه الليل، وهو مكان بعيد عن القبيلة بحيث إذا بزغت له المخاوف المرعبة للخوارق الطبيعية فإنّه يمكن له الاختلاط مع الآدميين بشكل مؤقت، حتى ولو كانت تلك العبارة تعني..

ترى ما هو المعنى الذي استتر وراء تلك العبارة؟

عصًا مبرية من كلا الطرفين، ترى ما هو المعنى المقصود بذلك القول؟

لقد سبق أن صوبوا الرماح عليه وأخطأته الرماح، أخطأته كلها باستثناء رمح واحد، وربما يحدث نفس الشيء في المرّة القادمة أيضًا.

وقبع جالسًا القرفصاء بين العشب الطويل، وتذكر اللحوم التي أعطاها إياه «سام» فبدأ يمزق فيها ويلتهمها في نهم وشراهة، وأثناء تناول طعامه ترامت إلى أذنه أصوات جديدة.. عبارة أصوات تألم صادرة عن «سام» و«إريك».. صيحات مملوءة بالذعر والهلع والغضب. فما معنى هذا؟ معناه أن شخصًا آخر بخلافه كان واقعًا في متاعب، أو على الأقل كان أحد «التوءمين» يتعرض للمتاعب، وبعدئذ مرّت الأصوات نحو أسفل الصخرة، وتوقف عن التفكير فيها. وتحسس بيديه فوجد أوراق سرخس رقيقة ورطبة، وكانت تلك الأوراق مستندة على الأيكة، وكان هذا المكان هو المأوى الذي سيقضي فيه ليلته.. ووضع في خطّته أن يزحف مع ظهور أول ضوء للنهار إلى عمق الغابة، ويلوى نفسه بين سيقان الأشجار الملتوية، ويدفع بنفسه إلى الأعماق، بحيث لا يستطيع أي إنسان آخر أن يخترق غياهب الغابة وراء ه، اللّهم إلا إذا كان شخصًا في مثل مهارته في الزحف، وحتّى إذا زحف شخص وراءه فإنّه سيتمكن من لكزه برمحه، واسوف يجلس هنالك وسيجرى البحث بجواره، ويمرون بالقرب منه، ويتعثر الكردون المضروب حوله، مع الولولة على طول الجزيرة، ولسوف يظل، حرًا طليقًا.

وجذب نفسه إلى نباتات السرخس، وحفر لنفسه نفقًا بينها، وكوم نفسه مستترًا تحت طيات الظلمة الشديدة. وينبغي له أن يتذكر الاستيقاظ حيث يجب أن يستيقظ مع ظهور أول ضوء للنهار، وذلك حتى يتمكّن من مخادعة المتوحشين. ولم يعرف كيف انجرف إلى النوم بسرعة كبيرة. ولم يعرف كيف تمكّن النوم من الإلقاء به في أعماق منحدر داخلي مظلم.

واستيقظ قبل أن تنفتح عيناه، حيث كان يصغي لصوت ترامى إليه من مكان قريب. وفتح عينًا واحدة فوجد شيئًا تفوح منه رائحة كريهة على مسافة بوصة أو نحو ذلك من وجهه، وأمسكت

أصابعه بذلك الشيء الذي يتسرب في بطء بين أوراق نبات السرخس. وأدرك أن الكوابيس المتلاحقة من السقوط والموت قد انتهت، وأن تباشير الصباح قد أقدمت عندما سمع الصوت مرة أخرى. وكان الصوت بمثابة ولولة مستمرة على شاطئ البحر.. ورد على الولولة المتوحش التالي، ثم الذي يليه، ومرت الولولة بسرعة بجواره عبر الطرف الضيق للجزيرة من البحر حتى «اللاجون» مثل صيحة طائر محلق، فأمسك على الفور عصاه المدببة وسار بطريقة متلوية للخلف بين نباتات السرخس، وبعد ثوان قليلة كان يشق طريقه كالدودة إلى داخل الأيكة الكثيفة، ولكن قبل أن يلمح ساقي شخص متوحش يتقدم نحوه. وكانت الأقدام الثقيلة تدق أعناق نبات السرخس، وسمع وقع الأقدام وهي تتحرك بين العشب الطويل.. وولول ذلك الشخص المتوحش المجهول الهوية مرّتين، فتكررت الصيحة. في كلا الاتجاهين ثم تلاشت. فقبع «رالف» ساكنًا ومتشابكًا مع نباتات السرخس، ولم يسمع أية أصوات لبعض الوقت.

وأخيرًا راح يفحص ذلك المكان من الغابة الذي يقبع فيه.. من المؤكد أن أحدًا لا يستطيع مهاجمته في هذا المكان، وعلاوة على ذلك فإن الحظ قد حالفه، فالصخرة الهائلة التي قتلت «بيجي» قد وثبت إلى الغابة وقفزت هنالك في منطقة الوسط تمامًا، وهشمت مساحة تمتد أقدامًا قليلة من كل جهة.. وعندما شق «رالف» طريقه إلى هذه البقعة شعر بالأمن والأمان، وأحس أنه على قدر من الذكاء، فجلس في حذر بين الجذوع المهشمة وانتظر مرور الصيادين. وعندما نظر لأعلى من خلال الأوراق لمح شيئًا أحمر اللون، لا بد أن تلك هي قلعة الصخرة، واطمأن لأنهّا بعيدة ولا تشكل تهديدًا بالنسبة له، وهدأ من روعه، وأحس بمشاعر الانتصار، وسمع أصوات الصيد وهي تتلاشى بعيدًا.

غير أن أحدًا لم يصدر أي صوت، ومع مرور الدقائق تحت الظل الأخضر بدأت مشاعر الانتصار عنده تتلاشى.. وأخيرًا سمع صوتًا، وكان ذلك الصوت هو صوت «جاك»، ولكنّه كان يتكلم في همس.

- أأنت واثق تمامًا مما تقول؟

ولم يرد الشخص المتوحش الذي وجه له هذا التساؤل، وربما رد بحركة من يده أو رأسه.

وتكلم «روجر»:

- إذا كنت تخدعنا..

وبعد هذه العبارة مباشرة ترامى صوت شهقة وصرخة ألم، فانحنى «رالف» غريزيًا، وكان أحد «التوءمين» موجودًا هنالك خارج الغابة مع «جاك» و«روجر».

وبعد هذه العبارة مباشرة ترامى صوت:

- أأنت متأكد أنه كان ينوى التخفي هنالك؟

فرد «التوءم» في أنين خافت، ثم صدرت عنه صرخة ألم مرة أخرى.

- أكان ينوي التخفي هنالك؟

- نعم.. نعم.. أوه!

وتناثرت الضحكات بين الأشجار.

إذن لقد أدركوا حقيقة الأمر.

فالتقط «رالف» عصاه واستعد للدخول في معركة، ولكن ماذا في استطاعتهم أن يفعلوه؟ فإنهم لكي يفتحوا ثغرة في هذا المكان من الغابة سيضطرون للعمل لمدّة أسبوع كامل.. وأي شخص يدفع بجسده متلويًا كالدودة ليشق طريقه في الغابة سيصبح بلا حماية تمامًا. وتحسس سن رمحه بإبهامه، وابتسم لنفسه بدون أن يشعر بالتسلية، فمن يحاول شقّ طريقه إلى الداخل سيضرب بالرمح بحيث يطرح مثل الخنزير.

وأحس هم ينصرفون بعيدًا عائدين في اتجاه صخرة البرج، إذ كان باستطاعته سماع الأقدام وهي تتحرك، ثم سمع شخصًا ما يضحك ضحكة مكتومة، وبعدئذ ترامى إلى سمعه مرة أخرى تلك الصيحة العالية التي تشبه صيحة الطيور، والتي اكتسحت الأجواء على طول الخط، معنى هذا أنّ هناك بعض الأشخاص كانوا لا يزالون يرقبونه، ولكن أكان بعضهم فقط...؟

وساد صمت طويل لاهث، واكتشف «رالف» أن فمه مازال به قشرة لحاء ناجمة عن قضم الرمح، ووقف وحملق لأعلى نحو صخرة القلعة.

وبينما كان يفعل ذلك إذ سمع صوت «جاك» مترامياً من قمة الصخرة:

- ادفعوا للأمام.. ادفعوا للأمام.. ادفعوا للأمام

فاختفت الصخرة الحمراء التي كان يشاهدها فوق قمة المنحدر الصخري مثل الستارة، واستطاع مشاهدة هياكل وسماء زرقاء، وبعد لحظة واحدة اهتزت الأرض، وكان هناك صوت اندفاع في الهواء، وصفعت قمة الغابة كأنما ضربت بيد عملاقة، وقفزت الصخرة في صوت خافت وفى تحطيم تجاه «البلاج»، في حين تناثرت فوق «رالف» كميات هائلة من الأوراق والأغصان المتهشمة.

وكانت القبيلة تموج بالهتاف والتصفيق خلف الغابة.

وساد الصمت مرة أخرى..

ووضع «رالف» أصابعه في فمه وعضها، ولم يتبق هنالك فوق القمة سوى صخرة واحدة، وقد يفكرون في تحريكها وإلقائها، ولكن تلك الصخرة كانت هائلة، وفى نصف حجم الكوخ، أو في حجم السيارة أو الدبابة. وتخيل تقدمها المحتمل بوضوح مثير للألم الشديد.. فقد تبدأ تلك الصخرة الهائلة بحركة بطيئة وتسقط من نتوء صخري آخر ثم تتدحرج عبر العنق مثل أسطوانة بخارية متدحرجة هائلة الحجم.

- ادفعوا للأمام. ادفعوا للأمام. ادفعوا للأمام!

فوضع «رالف» رمحه على الأرض ثم التقطه مرة أخرى. ودفع بشعره إلى الخلف في عصبية، واتخذ خطوتين سريعتين عبر المكان الصغير، ثم عاد ورجع مرة أخرى، ووقف ينظر إلى الأطراف المكسورة للأغصان.

وكان الصوت مازال سائدًا.

ولاحظ ارتفاع وانخفاض عضلة الحجاب الحاجز في جسده، وأصابته الدهشة عندما أدرك أنه كان يتنفس بسرعة كبيرة، وكانت ضربات قلبه مرئية تمامًا في جهة اليسار من جسده، فوضع الرمح على الأرض مرة أخرى.

- ادفعوا للأمام، ادفعوا للأمام، ادفعوا للأمام!

هتاف مطول مملوء بالصياح الحاد.

وترامى هدير من فوق الصخرة الحمراء، وبعدئذ تقافزت الأرض وبدأت تهتز اهتزازات منتظمة، وتزايد الصوت هو الآخر بشكل منتظم، وطار «رالف» في الهواء وألقى به على الأرض في ارتطام مع الفروع والأغصان، وسقط على يده اليمنى، وعلى ساقه.. وعلى بعد أقدام قليلة انحنت الأيكة كلها، وشاهد شيئًا ما أحمر اللون انقلب في بطء مثل عجلة الطاحونة، ثم انقضى ذلك الشيء الأحمر، وتناقص التقدم الضخم الذي يشبه الفيل في اتجاه البحر.

وركع «رالف» فوق التربة المحروثة، وانتظر حتى يهدأ التراب ويعود إلى حالته الطبيعية. وسرعان ما تركزت من جديد الجذوع المحطمة البيضاء، والأغصان المشقوقة، والفروع المتشابكة للأيكة، وكان هناك نوع من الإحساس الثقيل في جسده بالمكان الذي سبق أن شاهد فيه نبضات قلبه.

وخيم الصمت مرة أخرى.

إن الأمر لم يكن كذلك تمامًا، إذ كانوا يتهامسون هنالك، وفجأة ارتعشت الأغصان في غضب في موقعين على يمينه، وظهرت السن المدببة لإحدى الرماح، وفي هلع مشوب بالجنون دفع «رالف» رمحه في الشرخ وضرب بكل قوته.

- آه!

والتوى رمحه قليلًا في يديه ثم سحبه مرة أخرى:

- أوهوه!

وكان هناك شخص ما يئن ويتوجع بالخارج.

وتصاعدت الأصوات في جدال، إذ كانت هناك مناقشة تدور في وحشية، على حين استمر المتوحش الجريح في أنينه وزمجرته، وبعدئذ هدأت الأصوات، ثم تكلّم صوت واحد، وأدرك «رالف» أن ذلك الصوت ليس هو صوت «جاك»:

- هل رأيتم بأنفسكم؟ لقد سبق أن قلت لكم إنّه شخص خطير.

وتوجع المتوحش الجريح مرة أخرى.

ثم ماذا؟ وما هو الشيء الذي سيحدث بعد ذلك؟

وشدد «رالف» من قبضة يديه على رمحه وسقط شعره على وجهه. وكان شخص ما يتمتم على مسافة ياردات قليلة تجاه صخرة القلعة، وسمع أحد المتوحشين يقول:

- لا.

بصوت مهزوز بالصدمة النفسية، وبعدئذ ترامت ضحكات مكتومة، فجلس القرفصاء مستندًا على كعبيه، وكز على أسنانه عند حائط الأغصان، ثم رفع رمحه لأعلى وراح يرقب الموقف وينتظر.

ومرة أخرى ضحكت المجموعة غير المرئية ضحكات مكتومة، ثم سمع صوتًا عجيبًا أعقبه صوت أكثر ارتفاعًا، كما لو كان شخص ما يقوم بفرد ملاءات هائلة من «السيلوفان». وتحركت عصا حركة سريعة في طقطقة، وكتم كحة اعتملت في صدره، وكان الدخان يتسلل بين الأغصان في موجات وكتل بيضاء اللون وصفراء، وتحركت رقعة السماء الزرقاء فوق رأسه إلى لون السحابة الرعدية، وبعدئذ تجمهر الدخان حوله.

وضحك شخص ما في إثارة، وصاح صوت قائلًا:

- الدخان!

فتلوى كالدودة ودفع نفسه إلى أعماق الأيكة نحو الغابة، مع عمله بقدر الإمكان على أن يكون تحت مستوى الدخان. وسرعان ما شاهد مساحة مكشوفة كما شاهد الأوراق الخضراء لحافة الأيكة، وكان هناك ولد صغير متوحش يقف بينه وبين باقي الغابة، وكان ذلك الولد مدهونًا باللونين الأبيض والأحمر، وكان يحمل في يده رمحًا، وكان يتعرض لنوبة من الكحة، ويلون المساحات القريبة من عينيه بالطلاء بظهر يده عندما حاول الرؤية خلال الدخان المتزايد. وأطلق «رالف» نفسه مثل القط، وراح يطعن برمحه، وتكوم الولد المتوحش على الأرض. وصدرت صيحة من وراء الأيكة، وعندئذٍ انطلق «رالف» بسرعة جنونية بين الأعشاب وقد تملكه الرعب الشديد، ووصل إلى ممر للخنازير، وتتبع ذلك الممر لمسافة مائة ياردة تقريبًا، وبعدئذ انحرف مبتعدًا من الممر، وكانت الولولة تدوى خلفه عبر الجزيرة مرة أخرى، وصاح صوت منفرد ثلاث مرات، وخمن أن ذلك الصوت هو بمثابة إشارة للتقدم، فداوم على الهرب مبتعدًا إلى أن أصبح صدره مثل

النيران، وبعدئذ ألقى بنفسه تحت شجيرة وانتظر للحظات لكي يعود تنفسه لحالته الطبيعية، ومرّ بلسانه على أسنانه وشفتيه، ثم سمع ولولة الأولاد الذين يقتفون أثره تترامى من بعيد.

وكانت هناك أشياء كثيرة يمكنه أن يفعلها، إنّه كان باستطاعته تسلق شجرة، ولكن هذا الحل بمثابة جمع البيض في سلّة واحدة، فلو اكتشفوا وجوده فوق الشجرة فستكون مهمتهم سهلة للغاية، حيث سيبقون في انتظاره أسفل الشجرة.

لو كان لديه فقط بعض الوقت لتخيَّر الحل السليم، وصدرت صيحة مزدوجة أخرى على نفس المسافة، فأعانته على فهم خطتهم، فأي شخص متوحش يتعرض للإعاقة في الغابة سيصيح صيحة مزدوجة ويوقف الخط إلى أن يتحرر مرة أخرى، وهم يهدفون بهذه الوسيلة إلى استمرار فرض الحصار عبر الجزيرة. وتذكر «رالف» ذلك الخنزير الذكر الذي اخترق خطوطهم بسهولة كبيرة.. وإذا ضيقوا الخناق عليه أكثر من اللازم فإنّه قد يهجم على الحصار المفروض عليه عندما يكون الحصار ضعيفًا، وفى مراحله الأولى فيقوم بعملية اختراق سريعة ويجرى إلى الوراء.. ولكن إلى أين؟ فقد يدور الحصار المفروض عليه ويكتسح مرة أخرى، وهو - إن عاجلًا أو آجلًا - سيضطر للركون إلى النوم أو تناول الطعام، وبعدئذ قد يستيقظ مع اندفاع الأيدي نحوه لتنشب أظافرها في لحمه، وعندئذٍ تتوقف المطاردة.

فماذا ينبغي له أن يفعل عندئذٍ؟ أيلجأ إلى الصعود إلى الشجرة؟ أيخترق صفوفهم مثل الخنزير البري؟ وكان اختيار أحد هذين الأمرين محفوفًا بالمخاطر المريعة.

صدرت صيحة منفردة، فتزايدت ضربات قلبه، وقفز لأعلى، وانطلق بسرعة جنونية نحو المحيط والأدغال الكثيفة إلى أن وجد نفسه متشابكًا مع النباتات المتسلقة، فبقي هنالك للحظات يرتعد من الخوف، وتمنى أن تكون لديه فترة طويلة من الهدوء تعينه على التفكير في الخروج من المأزق.

ومرة أخرى سمع تلك الولولة عبر الجزيرة، وكانت ولولة حادة وثاقبة، وصاخبة وحتمية، وما إن سمع تلك الولولة حتى جفل كالحصان بين النباتات المتسلقة، وأخذ يجرى مرة أخرى إلى أن أصبح لاهثًا ومتقطع الأنفاس، فألقى بنفسه بجوار بعض نباتات السرخس. الشجرة أم الهجوم؟ وسيطر على أنفاسه للحظات، ومسح فمه، وأمر نفسه بالالتزام بالهدوء، وكان «سام» و«إريك» في مكان ما على ذلك الخط، وكانا يكرهان اشتراكهما في هذه المهمة. أو ربما كانا يكرهان ذلك. ولنفرض أنه بدلًا من أن يتقابل معهما تقابل مع الرئيس أو مع «روجر» الذي يحمل الموت دائمًا بين يديه.

ودفع «رالف» بشعره المتشابك إلى الخلف ومسح العرق عن عينيه، ثم تكلّم بصوت مرتفع:

- فكر في لأمر.

وما هو الشيء المعقول الذي يمكنه أن يفعله؟

لم يكن هناك «بيجي» لكي يتحدث معه ويبدى آراء سديدة، ولم يكن هناك اجتماع وقور لمناقشة الأمور، ولم يكن هناك وقار المحارة.

- فكر في لأمر.

وكل ما كان يخشاه هو أن يتبلد ذهنه وينطفئ عنده الإحساس بالمخاطر، ويصير إنسانًا ساذجًا مغفلًا.

وكانت الخُطة الثالثة هي أن يخفى نفسه تمامًا بحيث يمرّ بجواره الخط المتقدم بدون أن يكتشف وجوده.

وارتفع برأسه عن الأرض، وراح يصغي، وكان هناك صوت آخر يمكنه الإصغاء إليه في تلك الآونة.. صوت دمدمة عنيفة كما لو كانت الغابة نفسها غاضبة منه.. صوت حزين تتخربش عبره الولولات بشكل مثير للآلام، كأنها فوق لوح من الاردواز. وأدرك أنه سبق له أن سمع ذلك الصوت من قبل في مكان ما، غير أنه لم يكن لديه الوقت الذي يعينه على التذكر.

أيكسر الخط!

أم يصعد على الشجرة؟

أم يختبئ ويدعهم يمرون بالقرب منه؟

وترامت إلى سمعه صرخة من مكان قريب فوقف على قدميه، ووجد نفسه ينطلق مهرولًا على الفور بين الأشواك ونباتات العليق، وفجأة وصل إلى أرض مكشوفة، ووجد نفسه مرة أخرى متخبطًا في ذلك المكان المكشوف. وكانت هناك ابتسامة الجمجمة التي يبلغ اتساعها ست أقدام، ولم تعد الابتسامة تسخر من مساحة شديدة الزرقة في السماء، وإنما كانت تنظر في سخرية إلى طبقة رقيقة من الدخان. وبعدئذ كان «رالف» يجرى تحت الأشجار وقد فهم السبب في ظهور تلك الدمدمة بالغابة، لقد حاولوا طرده من الغابة عن طريق إطلاق الدخان في أرجائها، فأشعلوا النيران في الجزيرة.

وكان الاختباء أفضل من الصعود إلى شجرة، لأن الاختباء يعطى المرء الفرصة لكسر خط الحصار في حالة اكتشاف مكانه.

إذن عليك بالتخفي والاختباء..

وساءل نفسه في دهشة:

- ترى هل يوافق خنزير على هذا الإجراء؟ ونظر مكشرًا إلى لا شيء.

- أبحث عن أعمق مكان بالغابة.. عن أكثر الجحور إظلامًا في الجزيرة وأزحف إلى داخله..

ثم انطلق مهرولًا وراح يحملق بنظراته هنا وهناك أثناء الجري، وتخطى العوائق، وبقع ضوء النهار ترفرف فوقه، وكان العرق يتصبب في شكل خطوط متلألئة فوق جسده القذر، وأصبحت الصيحات بعيدة وخافتة في تلل اللحظات.

وأخيرًا عثر على المكان الملائم من وجهة نظره، برغم أن القرار كان يتّسم بالتهور الناجم عن اليأس، فهنا كانت الشجيرات والنباتات المتسلقة متشابكة تمامًا على شكل حصيرة، بحيث كانت تحجب ضوء الشمس، وتحتها كان يوجد فراغ يبلغ ارتفاعه حوالى قدم، برغم أنه كان مملوءًا بالجذوع الصامدة المتوازية التي تخترق التربة، فإذا دفعت بجسدك متلويًا إلى منتصف ذلك الفراغ فإنك ستصبح على مسافة خمس ياردات من الحافة، وستصبح متخفيًا تمامًا، اللّهم إلا إذا قرر الشخص المتوحش الاستلقاء على الأرض والبحث عنك، وحتّى إذا فعل ذلك فإنك ستكون مغلفًا بهالة من الظلام.. وإذا حدث أسوأ الافتراضات بحيث تمكّن من مشاهدتك بالفعل، فإنك تكون لديك الفرصة في الخروج إليه فجأة وإشاعة الارتباك في الخط بأكمله، ويراوغ عائدًا إلى داخل الغابة.

وفى حذر شديد تلوى «رالف» بين الجذوع الصاعدة في حين كانت عصاه تتدلى وراء ه، وعندما وصل إلى وسط الحصيرة استلقى وراح يرهف السمع.

وكانت النيران هائلة وضخمة، وكان التدفق الإيقاعي للكلام - والذي ظن أنه خلفه وراءه لمسافة بعيدة - يترامى إليه من مسافة قريبة، ألا تستطيع النيران أن تتفوق في سرعتها على سرعة حصان منطلق بسرعة؟ وكان باستطاعته مشاهدة الأرض المبرقشة بضوء الشمس فوق مساحة تبعد حوالي خمسين ياردة عن المكان الذي استلقى فيه، وأثناء مراقبته كان ضوء الشمس في كل رقعة من الأرض يومض ويختلج نحوه، وكان هذا يشبه كثيرًا الستارة التي كانت ترفرف في داخل ذهنه، حتى إنّه ظن للحظات أن الرفرفة ترامت من داخله، غير أن رقع الضوء زادت من رفرفتها بسرعة كبيرة في تلك الآونة، ثم تلبدت وانطفأت، حتى إنّه شاهد كثافة هائلة من الدخان تسبح فيما بين الجزيرة والشمس.

لو أن شخصًا حملق تحت الشجيرات وتصادف أن لمح لحومًا بشرية فقد يكون ذلك الشخص هو «سام» أو «إريك» وعندئذٍ سيدعيان إنهما لم يشاهدا شيئًا، ويلتزمان بالصمت. ووضع خده على الأرض التي تكتسي بلون «الشيكولاتة» ولعق شفتيه الجافتين وأغلق عينيه. وتحت الأيكة كانت الأرض تهتز اهتزازات ضئيلة للغاية، أو ربما كانت هناك أصوات مستترة تحت الرعد الواضح للنيران والولولات المخربشة التي كانت منخفضة للغاية، بحيث يتعذّر سماعها.

وصاح شخص ما بصوت مرتفع، فرفع «رالف» خده عن الأرض وحملق في الضوء المعتم في تبلد، وراح يفكر: لابد أنهم قريبون منه للغاية وبدأ صدره يخفق بأصوات مكتومة، اختبئ.. اكسر الخط.. تسلق الشجرة - ترى ما هو التصرف الأفضل؟

وكانت المشكلة هي أنه لم يكن أمامه سوى فرصة واحدة.

وازداد اقتراب النيران منه، فتلك القذائف المنطلقة في آن واحد كانت بمثابة تفجر الأغصان، بل تفجر الجذوع.. الأغبياء! المغفلون! إن النيران تكاد تدخل إلى أشجار الفاكهة.. فماذا سيأكلون غدًا؟

وتحرك «رالف» في قلق في سريره الضيق.. الإنسان يخاطر ويجازف من أجل شيء لا يستحق كل ذلك! ماذا سيفعلون به؟ هل سيضربونه؟ هل سيقتلونه أم ماذا؟ عصا مدببة من كلا الطرفين.

وظهرت الصيحات فجأة من مكان قريب منه، فسرت الرعشة في كيانه وهب واقفًا وتمكّن من مشاهدة شخص متوحش مدهون بالطلاء يتحرك بسرعة خارجًا من كتلة متشابكة خضراء ومتوجهًا نحو الحصيرة التي يختبئ بين طياتها، وكان ذلك الشخص المتوحش يحمل في يده رمحًا، وأمسكت أصابع «رالف» بالتراب.. كن على استعداد الآن لكي تواجهه في حالة مشاهدته لك.

وتحسس «رالف» لكي يمسك برمحه الذي يعد سلاحه الرئيسي، وأدرك عندئذٍ أن رمحه مدبب من الناحيتين.

ووقف الشخص المتوحش على مسافة خمس عشرة ياردة، وأطلق صيحاته.

ربما استطاع سماع دقات قلبي التي تعلو على أصوات النيران.. لا تلجأ للصراخ.. استعد.

وتحرك الشخص المتوحش للأمام بحيث لا يستطيع المرء مشاهدته ابتداء من وسطه فنازلًا، وذلك كان هو مقبض رمحه، وأصبح من الممكن مشاهدته ابتداء من الركبة فنازلًا.. لا تلجأ للصراخ.

وخرج قطيع من الخنازير في صراخ من بين النباتات الخضراء الواقعة خلف الولد المتوحش، واندفعت بسرعة إلى داخل الغابة. وشاركت الطيور في الصراخ، وانخرطت الفئران في الصراخ، ودخل شيء صغير يتقافز ويحجل تحت الحصيرة وجثم مرتعدًا ومنكمشًا.

وتوقف الولد المتوحش على مسافة خمس ياردات، حيث كان واقفًا بجوار الأيكة تمامًا، وأطلق صيحة، فسحب «رالف» قدميه لأعلى وانحنى، وكانت العصا ما زالت في يديه، وهي العصا المدببة من كلا الطرفين، وهي الخازوق الذي تذبذب في عنف شديد، والذي أصبح طويلًا وقصيرًا وخفيفًا، ثم خفيفًا مرة أخرى.

وانتشرت الولولة من شاطئ لآخر، وركع الولد المتوحش عند حافة الأيكة، وكانت هناك أضواء ترفرف في الغابة خلفه، وكان باستطاعة المرء مشاهدة ركبة تثير التراب، ثم مشاهدة الركبة الأخرى، ثم اليدين، ثم مشاهدة رمح.. ووجه.

وحملق الولد المتوشح في المكان المظلم القاتم تحت الأيكة.. ويمكن القول إنّه شاهد ضوءًا على هذا الجانب أو ذاك، ولكنّه لم يشاهد أي شيء في الوسط هناك، ففي المنتصف كانت توجد بقعة من السواد، فقطب الولد المتوحش وجهه لدى محاولة التوغل ببصره في الظلام.

وطالت الثواني واللحظات، وكان «رالف» ينظر في خط مستقيم في عيني الولد المتوحش.

- لا تلجأ للصراخ.

- سوف تتوغل إلى الخلف.

لقد شاهدك الآن، وهو يحاول التأكد من ذلك.. عصًا مبرية.

وصرخ «رالف» صرخة ممزوجة بالخوف، والغضب واليأس والإحباط.. واعتدلت ساقاه، وأصبحت الصرخات مستمرة ومملوءة بالرغاوي والزبد، وانطلقت بسرعة للأمام وتفجرت الأيكة ووقف في المكان المكشوف صارخًا وغاضبًا وملطخًا بالدماء، ولوح بالعصا، وتشقلب الولد المتوحش على الأرض، ولكن كان هناك آخرون متوحشون يهرولون في اتجاهه وهم يتصايحون، فانحرف واندفع كالرمح، ثم أطلق ساقيه للريح في صمت. وعلى الفور اندمجت الأضواء التي رفرفت أمامه وارتفع زئير الغابة بحيث أصبح مثل الرعد، وانفجرت شجيرة طويلة تقع على الممر الذي يجري عليه، وتحولت إلى كتلة هائلة من اللهيب على شكل مروحة، فانحرف إلى اليمين وجرى في استماتة وبسرعة خارقة، وكانت حرارة الجو تضرب على جانبه الأيسر كما كانت النيران تتسابق للأمام مثل تيار المياه الجارية.

وتصاعدت الولولات وراءه وانتشرت، وكانت على شكل سلاسل متتابعة من الصيحات الحادة القصيرة التي تعبر عن نداء المشاهدة. وظهر هيكل بني اللون على يمينه، وارتد مرة أخرى، وكانوا جميعًا مندمجين في الجري ومنهمكين في الصراخ في جنون. وكان باستطاعته سماعهم وهم يشقون طريقهم في صخب جنوني بين الأشجار الكبيرة بالغابة، وعلى اليسار كان هناك الرعد والبرق الساخن للنيران. ونسي جراحه وعطشه وجوعه، وأصبح كتلة من الخوف، خوف يائس فوق أقدام طائرة بسرعة هائلة، ومندفعة بين طيات الغابة نحو «البلاج» المكشوف. وقفزت بقع أمام عينيه وتحولت إلى دوائر حمراء أخذت في التوسع والانتشار بسرعة إلى أن أصبحت غير مرئية. وتحته كانت ساقا شخص ما تبدأان في الإحساس بالتعب، وتقدمت الولولات المميتة مثل حافة تهديد مشقوقة، وكادت تصل إلى أعلى رأسه.

وتعثر فوق أحد الجذور، وارتفعت الصيحة التي تقتص أثره أكثر وأكثر. وشاهد كوخًا يتفجر ورفرفت النيران عند كتفه اليمنى، وكانت هناك تألقات المياه. وبعدئذ سقط على الأرض متدحرجًا ين الرمال الساخنة، ومنحنيًا في إذلال، ورافعًا يده لأعلى؛ لكي يتفادى الضربات، ومحاولًا الصراخ طالبًا للرحمة.

وترنح فوق قدميه، وشعر بالتوتر الشديد، وتوقع حدوث مزيد من الأهوال. وكانت تلك القبعة لها حز علوي أبيض اللون، وفوق الظل الأخضر للحافة الناتئة كان يوجد تاج ومرساة وزخارف ذهبية اللون.. وشاهد سترة بحرية بيضاء اللون بها نسيج مقصب فوق الكتف، كما شاهد مسدسًا وصفًا من الأزرة المطلية بالذهب أسفل صدر الزي الرسمي.

لقد كان هناك ضابط بحري يقف على الرمال وينظر لأسفل نحو «رالف» في دهشة ممزوجة باليقظة والحذر، وخلفه على «البلاج» كان يوجد زورق بخاري حكومي مسلح، وكانت المجاديف الأماميّة الخاصّة بهذا الزورق مسحوبة لأعلى بمعرفة اثنين من جنود الأسطول. وعند مؤخرة الزورق كان يوجد جندي بحري آخر يمسك بمدفع رشاش.

وتداعت الولولات، ثم تلاشت تمامًا.

ونظر الضابط إلى «رالف» نظرات مملوءة بالشك والريبة للحظات قليلة، ثم رفع يده عن مقبض مسدّسه:

- مرحبًا!

فرد «رالف» في شيء من الخجل والارتباك، حيث كان يدرك أن مظهره قذر ومشوب بالقاذورات.

- مرحبًا.

فأومأ الضابط برأسه كما لو كانت الإجابة على تساؤله قد تمت.

- أيوجد هناك أي أشخاص يافعين - أي أشخاص كبار راشدين معك؟

فهز «رالف» رأسه في شيء من البكم والصمت كأنه أخرس، ثم استدار قليلًا فوق الرمال، فشاهد نصف دائرة من الأولاد الصغار بأجسامهم المخططة بالصلصال الملون، وبعصيهم المدببة في أيديهم، وكانوا يقفون على «البلاج» بدون أن تصدر عنهم أية ضوضاء على الإطلاق.

فقال الضابط:

- اللّهو والمرح واللعب.

ووصلت النيران إلى أشجار جوز الهند القريبة من «البلاج» وابتلعتها في أصوات صاخبة. ويبدو أن ألسنة النيران انفصلت وتأرجحت مثل «الأكروبات» ولعقت قمم أشجار جوز الهند الموجودة فوق الرصيف، وعندئذٍ تحولت السماء إلى اللون الأسود.

وابتسم الضابط لـ «رالف» في بهجة:

- لقد شاهدنا الدخان الذي أطلقتموه. وماذا كنتم تفعلون؟ أكنتم تشتبكون في قتال أو أي شيء من هذا القبيل؟

فأومأ «رالف» برأسه.

وفحص الضابط الهزيل الرث الثياب الماثل أمامه، وأدرك أن الولد في مسيس الحاجة لأخذ حمام وقص شعره، وتنظيف أنفه، بالإضافة إلى كمية كبيرة من المراهم.

- آمل ألا يكون قد قُتِل أحد؟ هل توجد أية جثث؟

- لم يُقتَل سوى اثنين فقط، وقد اختفت جثتاهما..

فانحنى الضابط لأسفل وحملق في وجه «رالف»:

- قَتِل اثنان؟ قَتلا؟

فأومأ «رالف» برأسه مرة أخرى. ووراءه كانت الجزيرة بأكملها ترتعد وترتجف بألسنة اللهيب. وكان الضابط يدرك عادة متى يقول الناس الصدق، فأطلق صفارة خافتة في شيء من الدهشة.

وبدأ أولاد آخرون يظهرون، وكان بعضهم من الأطفال الصغار، وكات بشرتهم بنية اللون، وكانت بطونهم منتفخة مثل بطون الأولاد المتوحشين الصغار، واقترب واحد منهم من الضابط ونظر نحوه لأعلى.

- أنا.. أنا..

ولكن لم تصدر عنه أية كلمات أخرى. وراح «بارسيفال ويمز ماديسون» يبحث في رأسه عن تعويذة كانت قد انزلقت إلى طي النسيان.

واستدار الضابط ونظر إلى «رالف»:

- سوف ننقلكم معنا، كم عدد الموجودين منكم الآن؟

فهز «رالف» رأسه، ورفع الضابط نظره عن «رالف» وراح ينظر إلى مجموعة الأولاد المدهونين بالطلاء.

- من هو الرئيس هنا؟

فقال «رالف» بصوت مرتفع:

- أنا.

وتقدم للأمام ولد صغير يرتدي بقايا قبعة سوداء غير عادية على شعره الأحمر، ويحمل في يديه بقايا نظارة عند وسطه، إلا أنه غير رأيه ووقف ساكنًا.

- لقد شاهدنا الدخان الذي أطلقتموه، ولكن ألا تعرفون عدد الأولاد في هذا المكان؟

- لا يا سيدي.

وقال الضابط وهو يقيم ويتفحّص الأولاد الموجودين أمامه:

- لقد اعتقدت.. لقد اعتقدت أن أي مجموعة من الأولاد البريطانيين - وأنتم جميعًا من البريطانيين.. أليس كذلك؟ - كان بإمكانهم أن يظهروا بشكل أفضل من هذا - أقصد..

ففال «رالف»:

- لقد كنت على ذلك النحو في بادئ الأمر. وذلك قبل أن.. وتوقف عن الكلام.

- لقد كنا في بادئ الأمر معًا مؤتلفين.

فأومأ الضابط برأسه معززًا كلام «رالف»:

- أدرك ذلك.. لقد قدمتم عرضًا رائعًا بهيجًا مثل جزيرة الشعاب المرجانية.

فنظر إليه «رالف» في شيء من السكون، وفى لحظة واحدة انطلقت صورة بسرعة خاطفة عن السحر الغريب الذي اكتنف الأغصان في يوم ما، ولكن الجزيرة أصبحت محترقة مثل غابة ميتة - ومات سيمون - كما أنّ «جاك»...

وبدأت الدموع تنساب من عينيه، وبدأ نشيج البكاء يهز كيانه، وسلم نفسه آنئذ لهم لأول مرة فوق الجزيرة، تشنجات هائلة لا إرادية مروعة من الحزن بدت وكأنها تمزق جسده بأكمله. وارتفع صوته تحت الدخان الأسود، وأمام الحطام المحترق للجزيرة، وسرت عدوى ذلك الانفعال العاطفي بين الأولاد الصغار الآخرين، فانخرطوا في البكاء والنشيج. وكان «رالف» يقف في وسط الأولاد بجسده المتسخ، وبشعره المتلبد، وبأنفه المملوء بالمخاط، وكان يبكي بسبب انتهاء البراءة، وبسبب ظلام قلب الإنسان، وبسبب سقوط الصديق المخلص المثالي الحكيم الذي يُسمّى «بيجي» عبر طيات الهواء.

وتأثر الضابط الذي أحاطته هذه الأصوات، وشعر بشيء من الارتباك، فاستدار مبتعدًا لكي يعطيهم الوقت الكافي لكي يستردوا رباطة جأشهم ويستجمعوا قواهم. وظل منتظرًا وقد تثبتت عيناه على السفينة الحربية الجميلة المزودة بكافة التجهيزات الواقفة على مسافة بعيدة.

تمت الرواية

المؤلف

وليام جولدينج

ولد وليام جولدينج في كورنوول في ١٩ من سبتمبر ١٩١١ في عالم يتّسم برجاحة العقل والمنطق والإبهار. فالعبارة التي ينطق بها العالم التجريبي في مسرحيته «الفراشة النحاسية»: «حياتي تتعرض لحالة من الدهشة التي تأخذ بالألباب» ربما يكون قد قالها والده «إليك جولدينج» غير أن الذكريات الأولى التي قدمها لنا عن فترة طفولته في كتابه الذي يتناول سيرة حياته الذاتية تحت عنوان «السلم والشجرة» هي حياة تتسم بالرعب والظلام: فالظلام والرعب الذي يتعذّر وصفه، جعل لهما وجودًا حقيقيًا في البدرونات المشيدة من الحجر الصوان لمنزلهم المشيد في القرن الرابع عشر في مدينة «مارلبورو» وفى الجبانة التي يطل عليها المنزل:

«هل كانت والدتي تخاف من هذا المنزل الظليل ومن الجبانة الملاصقة له عندما كانت تذهب إلى هناك معي وأنا مازلت طفلًا رضيعًا؟ كانت والدتي من أهالي مقاطعة كورنوول، وأهالي كورنوول لا يسكنون في منازل ملاصقة للجبانات بمحض اختيارهم، وكان والدي ناظرًا لمدرسة إعدادية محلّيّة، ومن ثم كان وضعنا الاجتماعي منخفضًا».

الواضح أن مسألة الطبقة الاجتماعية ليست سببًا، وإنما هي فقط جزء من الظروف والأحوال التي تكتنف الورطة الشخصية لجولدينج، وعلى ما يبدو لم يكن من المهم لدى جولدينج أن تكون مدينة «مارلبورو» مدينة محلّيّة بقدر ما هي مدينة تقع عند شوارع المدينة الرئيسية في فترة ما قبل التاريخ، والتي كانت كاتدرائيتها هي «ستونهينج» أو ذلك البناء الحجري الذي يقع في سهل «سالزبري» ويرجع عهده إلى فترة ما قبل التاريخ.

أما الحدث الرئيسي الذي كان سببًا في فقدان جولدينج الثقة في الناس الحكماء فيرجع إلى الوقت الذي كان فيه مجرد طفل صغير: «أذكر أن والدتي قالت لي ذات يوم: إن إدراكها بأن العالم هو مكان ملئ بالمباهج المثيرة، ولكنّه في الوقت نفسه مملوء بالمخاطر المهلكة - يرجع إلى اليوم الذي غرقت فيه الباخرة «تيتانيك»، وهي لم تستطع أن تعرف السبب في ذلك، وإنما أدركت فقط أن السنوات السابقة كانت سنوات مطمئنة وهادئة، ومليئة بالسلام، في حين أن السنوات التي جاءت بعد ذلك بدت مليئة على نحو طبيعي بالعواصف الهوجاء». وكان ذلك عقب أبريل ١٩١٢.

وما إن وصل جولدينج إلى سن السابعة من عمره حتى بدأ يربط ما بين الظلام وقدماء المصريين، فهو قد تعلم من قدماء المصريين الغموض والاتجاهات الرمزية، فضلًا عن الخلط بين الموت والحياة، بالإضافة إلى اتجاه عقلي يتّسم بالشك في المنهج العلمي الذي ينحدر عن الإغريق.

فهو يقول عن نفسه في مرحلة الطفولة في كتابه «مصر من داخل كياني»:

«لدي معرفة واسعة بالرموز دون أن أعرف على وجه الدقة ما أعرفه، وأنا أدرك أنه يتعذّر وصف معاني الرموز أو وصف تأثيراتها؛ نظرًا لأن الرمز هو بمثابة ذلك المعنى أو التأثير الذي

لا يمكن وصفه. فأنا لم يسبق لي قط أن سمعت عن مستويات المعنى، ولكنني أعيش في تلك المستويات من خلال التجربة، ففي المفكرة الخاصّة بي تجد أن الجعران يرمز إلى الحياة عند قدماء المصريين».

ويقول جولدينج:

«على الرغم من أنني معجب بالإغريق فإنني لست واحدًا منهم.. فأنا في حقيقة الأمر إنسان مصري فرعوني قديم بكل ما لدى الفراعنة من هوس وجنون وبراغماتية روحية، ومقدرة على الإيمان الذي يُفهم بأكثر من طريقة. وإذا قمت بالاعتراض والاحتجاج وقلت لي: إن البحوث تشير إلى أن الفراعنة لم يكونوا على ذلك النحو - فإنني لا يسعني إلا أنّ أجيب في رطانة لغة جيلي قائلًا: إنّه فيما يتعلق بي فإن الفراعنة قد أظهروا لي تلك الصورة.

وفى كل هذا توجد صورة لعبقرية جولدينج الحاضرة تتمثل في طريقته في الكتابة تقع عند الحافة ما بين وعى ملئ الشكوك الحادة، ومتجه نحو بناء بنية عضوية وبين إدراك قوى للظلام الموجود تحت الوعي، وإنه لصحيح أيضًا أنه يعيش بالقرب من «ستونهينج» وهي معبد علم الفلك الذي يكاد يكون متخذًا الطابع الإغريقي من حيث أسلوب البناء والنسب، يكمن تأثيره من حيث إن تعرضه للأحوال الجوية واكتساءه بالأشنة والحزاز والأخاديد التي حفرتها الأمطار قد جعله يبدو وكأنه شيء ما يبزغ من طبيعة غير بشريّة.

وهو في كتابه الأول الصادر في عام ١٩٣٤ تحت عنوان «الأشعار» عندما كان عمره ٢٢ عامًا نجده قد وصف الأشعار بأن قال عنها إنها «تلك الأشياء الهزيلة المسكينة» غير أن حب الاستطلاع نحوها يثار على الفور من خلال تعليقه: «إن الروائي هو شخص متشرد.. لأنّه ممزق وحائر بين وسيلتين من وسائل التعبير... ويمكنك أن تقول إنني أكتب النثر؛ لأنني لا أستطيع أن أكتب الشعر».

وفى الفترة ما بين صدور كتابه «الأشعار» وصدور روايته الأولى «أمير الذباب» التي طُبعت في عام ١٩٥٤ نجد أن جولدينج قد مر بتجربتين هامتين، مما جعله يعتقد أن هاتين التجربتين قد أحدثتا تأثيرًا هائلًا على كتاباته: التجربة الأولى هي الحرب. والتحاقه بالخدمة في سلاح البحرية. والتجربة الثانية - والتي تمت في نفس سنوات الحرب - تتمثل في تعلمه للغة اليونانية القديمة. والتجربة الأولى أكدت له - ابتداء من غرق الباخرة تيتانيك - تحطم الصورة الليبرالية التفاؤلية للإنسان، والتجربة الثانية ربما كان لها تأثير هائل على أسلوبه. فهناك شيء ما في اللغة اليونانية متسم بالديناميكية والحيوية والمادية الملموسة المحددة تجعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأن «جولدينج» قد تأثر بها على ما يبدو، فهي لغة نجد فيها أنفسنا غير واعين تمامًا بأن لدينا شعرًا طويلًا مثلما نكون فيها واعين بنمو شعرنا بحيث نشعر بالشعر من حيث هو حركة في داخل شيء ما بنفس الطريقة التي نشعر بها بأنفسنا من حيث هي حركة:

ومما يوضح الأمور ويلقى المزيد من الضوء هو أن نتناول النثر الخاص به من خلال النظر إلى ما لا يفعله في أشعاره، فمن الواضح أن تأثيره علينا في قصائده لا ينبع من أستاذيته وسيطرته

على تأثيرات النغمة والصوت الدقيقة المراوغة من حيث علاقاتها بالمعنى، ومع ذلك فهو أستاذ الكلمات. وهو يقول إنِّه منذ طفولته وهو «لديه ولع شديد بالكلمات في حد ذاتها، حتى إنِّه كان يجمعها مثل طوابع البريد أو مثل بيض الطيور». وربما كان من المقبول أن نقول إن مشاعره تجاه الكلمات فيها شيء ما من الانسجام المتزامن، أو بها شيء متسم بأنه مرئي أكثر مما هو سمعي.

وخاصية الانسجام المتزامن ربما تتبدى - مثلما تتبدى في جوسلين ومارتن ولوك - في «الوارثون» في حدة الخيال المرئي الذي يرويه جولدينج ويستقيه من طفولته: «وليس لدى شك في أنه لو نظر شخص ما في تجهم وعبوس لفترة طويلة في الصفحة فإن الصفحة سوف تلمع وتشرق وتدب فيها الحياة، بل إن الصفحة قد فعلت ذلك في الحقيقة، إذ اختفت الكلمات والورقة وبزغت الصورة، وأصبحت التفاصيل موجودة هنالك؛ لكي تسمع وتشاهد وتلمس».

ولذلك فإن روايات «جولدينج» تتحرك على مستوى الظواهر أو مستوى الأشياء التي تحدث في العالم المادي الفيزيقي والعالم الروحي وإلى تطور أشكال التجربة الخاصة بها، ومن بين النتائج المترتبة على هذا - وربما على نحو أكثر من أي روائي آخر - أن عملية قراءة رواية من تأليف «جولدينج» تعد أمرًا بالغ الأهميّة، إذ ينبغي عليك ألا تكون نفس الشخص عند الانتهاء من قراءة إحدى رواياته، وبحيث تكون مختلفًا عما كنت عليه لدى البدء في قراءة الرواية؛ ولذلك فالرواية في حد ذاتها ينبغي ألا تكون هي نفس الرواية. والطريقة التي يلجأ إليها «جولدينج» عادة لكي يحقق هذا التأثير تشتمل على عملية التأويل والتفسير من جديد والتي تبدأ بمجرد ترسيخ الصورة الأولى لما يتم من أحداث؛ أو التي تبدأ عقب انتهاء الفصل الأول بالرواية تقريبًا. فعند نقطة ما يجد القارئ نفسه مستغرقًا للغاية في مفاهيم الفصل الرئيسي، لدرجة أن الرأي الخاص به عن الأمور التي تحدث يتوارى إلى الخلف، ويقوم التفسير الثاني بإقحام نفسه أكثر فأكثر على التفسير الأول ويتعاظم تدريجيًا نحو تغطية جميع الظواهر، وعندما يصبح هذا مستكملًا تنتقل الرواية فجأة إلى عالم سوي وتنتهي. ولكن البناء الكامل للرواية يعتمد على عملية التأويل والتفسير من جديد، وتكون هناك حاجة إلى التحول إلى الوضع الطبيعي السوي لكي تتجه الرواية إلى إيقاع القارئ في نهاية الأمر.

ولكن برغم أن التعبير في نهاية الرواية ليس مجرد وسيلة بارعة لحل المشكلة، فإن التأثير الذي ينجم عن رواية لجولدينج يتشوه إذا كان المرء يعرف الكيفية التي يتم بها التفسير من جديد قبل أن يشرع في القراءة الأولى للرواية؛ ولذلك فإنّه ليس من الحكمة أن يقرأ المرء تحليلات نقدية عن روايات جولدينج قبل أن يشرع في قراءتها.

وقد أجاب عن الاستفسار الذي وجهه الناشرون الأمريكيون لرواية «أمير الذباب» أعلن «وليام جولدينج» أنه وُجِّه في نشأته ليصير عالمًا، ولكنّه وقف ضدّ هذا الاتجاه، وبعد أن أمضى عامين في أكسفورد قام بتغيير اتجاهه التعليمي من العلوم إلى الأدب الإنجليزي ثم كرس نفسه للأنجلو / ساكسون. وبعد نشر كتابٍ من الشعر فإنّه ضيع السنوات الأربع التالية هباء وسدى.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية التحق بالبحرية الملكية البريطانية. وعلى مدى السنوات الخمس التالية انهمك في الشئون البحرية، باستثناء شهور قليلة في نيويورك، وستة أشهر مع لورد شيرويل في «مؤسسة أبحاث». وخرج من مهنته البحرية وهو في رتبة ملازم أول مسئول عن قيادة سفينة صواريخ، ولقد شهد عمليات حربية ضدّ بوارج حربية وغواصات وطائرات. وعقب انتهاء الحرب بدأ في التدريس والكتابة والتأليف.

ويصف لنا «جولدينج» الفكرة الأساسية التي ترتكز عليها رواية «أمير الذباب» فيقول: «إن موضوع هذه الرواية هو محاولة لتتبع نقائص وعيوب المجتمع، وإرجاعها إلى نقائص الطبيعة البشريّة. والمغزى هو أن شكل أو نظام المجتمع ينبغي أن يعتمد على الطبيعة الأخلاقية للفرد، وليس على النظام السياسي مهما كان نظامًا منطقيًا أو جديرًا بالاحترام من الناحية الظاهرية. والقصة بأكملها رمزية في طبيعتها، باستثناء مشهد الإنقاذ في نهاية الرواية، حيث تبدو حياة اليافعين جليلة ومشرفة وقديرة وبارعة، إلا أنها في حقيقة الأمر متورطة في نفس الشرور، مثل الحياة الرمزية للأطفال على الجزيرة، فالضابط الذي حال دون اصطياد إنسان وبدأ يستعد لنقل الأطفال من الجزيرة إلى سفينته الحربية سوف يبحر على الفور لاصطياد عدوه من الآدميين بنفس الطريقة الخالية من الرحمة أو العطف، ومن ذا الذي سينقذ الشخص اليافع وسفينته الحربية؟..

ومن المميزات التي تتميز بها رواية «جولدينج» استخدامه الرائع للرمز. و«أمير الذباب» هي ترجمة للكلمة العبرية «Baalzevuv (Beelzevuv) اليونانية» وقد ذهب البعض إلى أنها ترجمة خاطئة لكلمة مكتوبة بحروف لغة أخرى أعطتنا هذا الاسم الذي يُطلق على الشيطان، وهو شيطان يُوحي اسمه بأنه يكرس نفسه لتحقيق الفساد والدمار، وتدهور المستوى الأخلاقي، والهستيريا، والهلع الجنوني؛ ولذلك فهو شيطان يتلاءم تمامًا مع الموضوع الذي تناوله «جولدينج» في روايته.

والشيطان على هذا النحو غير موجود في أي اتجاه تقليدي. والشيطان الذي صوره لنا «جولدينج» هو المعادل الحديث للقوى الدافعة الفوضوية اللا أخلاقية التي يسميها أنصار فرويد باسم Id أو الجانب اللاشعوري من النفس الذي يعد مصدر الطاقة البهيمية والذي تنحصر مهمته على ما يبدو في العمل على ضمان بقاء الجماهير التي يعد جزءًا منها، أو مندمجًا فيها، والذي يؤدى مهمته في عناد هائل وعزم أكيد، ومع أنه من الممكن العثور على أسماء أخرى لهذه القوى فإن الصورة الحديثة للشخصية - سواء أكانت مرسومة بمعرفة علماء اللاهوت أو المحللين النفسيين - تتضمن حتمًا هذه القوى، أو تتضمن التركيبات الروحية الخارقة للطبيعة، على أساس أنها المبدأ الرئيسي للإنسان الفطري Natural Man. ومعتقدات الحضارة والقواعد الأخلاقية والاجتماعية، والأنا Ego، والذكاء في حد ذاته، لا تشكل سوى مظهر خارجي خادع فوق هذه القوى الحماسية الشديدة السخونة، والقوى الجامحة التي لا يمكن السيطرة عليها. ولقد عثر «دوستويفسكي» على الخلاص في هذه الحرية، وإن كان قد وجد فيها أيضًا الإدانة واللعنة، أمّا ييتس Yeats فقد وجد فيها المصدر الوحيد للعبقرية الخلاقة (مهما يكن من لهب فوق الليل / فقد غذاه القلب الراتنجي للإنسان).

و«كونراد» قد روعه «قلب الظلام» هذا. ويجد الوجوديون في إنكار هذه الحرية مصدر الإفساد لجميع القيم الإنسانية. وحقيقة الأمر أن المرء باستطاعته - إذا كان ميالًا للغاية - أن يتفحّص بدقة مجموعة المبادئ والقوانين والمعايير الخاصّة بالأدب والفلسفة وعلم النفس، ويجد هذا الدافع الأساسي الهائل الذي يحدد النتائج الجوهرية والأحكام الرئيسية للفكر المعاصر.

وظهور هذه الوحشية الأساسية المستترة هو موضوع هذه الرواية. فالصراع بين «رالف» الذي يمثّل الحضارة ببرلماناته، وبالمقدرة العقليّة الفائقة لصديقه، وبين «جاك» الذي تتحرق في داخله شرارة الوحشية على نحو أشد وأقرب إلى السطح مما هي عليه عند «رالف» والذي يعد قائدًا لقوى الفوضى في الجزيرة ويعد أيضًا الصراع في المجتمع الحديث بين في تلك القوى على نطاق عالمي:

«إنني إنسان جاد ووقور للغاية، وأنا أعتقد أن الانسان يعاني من جهل مروع بالطبيعة الخاصّة به، وأنا أولي بوجهة نظري، اعتقادًا منى بأن رأيي ربما يكون شيئًا ما شبيهًا بالحقيقة، وإنني مهتم للغاية بورطة الجنس البشري، ولكني أنظر إلى تلك الورطة على أنها أكثر أهميّة بكثير من مجموعة المشاكل التي تضم مسألة الضرائب وعلم الفلك.

لقد كتب «وليام جولدينج» تلك الكلمات ردًا على استبانة أدبية قامت بها إحدى المجلات تحت عنوان: «الأديب من خلال العصر الذي يعيش فيه». إذ أثارت الاستبانة مسألة اهتمامات الأديب: هل ينبغي للأديب أن يشغل نفسه بالقضايا السياسية والاجتماعية التي تبزغ في عصره؟ وإجابة «جولدينج» على هذا التساؤل هي إجابة واضحة: إن مهمّة الكاتب هي أن يبين للإنسان صورته المتنوعة. الاهتمام على هذا النحو - وليس الاهتمام باللحظة الحاضرة، وإنما الاهتمام بما هو أساسي وجوهري في الوضع الإنساني، وفي الهياكل والأشكال - هو الذي جعل «جولدينج» يخلق ويبتدع ويصبح متفردًا.

وقد وصف «جولدينج» نفسه بأنه «مواطن وروائي».

ووصف «جولدينج» رواياته بأنها أساطير، وبأنها قصص خرافية ذات مغزى، وكلا هذين الوصفين يشيران بالفعل إلى خاصية في رواياته، وهي أنه من الضروري أن تعترف أن رواياته تعكس أفكارًا أخلاقية، مرسومة بدقة غير عادية، وموضوعة في قالب من المفاهيم الذهنية، ومتخذة الطابع القياسي. ولكن مازال الوصفان غير مقنعين تمامًا؛ لأن كليهما يوحى بوجود درجة من التجريد، ووجود عنصر الأساطير الخرافية، وهو أمر غير موجود في روايات «جولدينج». ويبدو أنه من الأفضل لنا أن نسمي رواياته بأنها مجرد «روايات» مع الاعتراف في نفس الوقت بأن لها خصائص معينة متعلقة بالشكل أو القالب، مما يجعلها متميزة، ومختلفة تمامًا عن معظم الروايات السائدة.

وأهم هذه الخصائص هي أن «جولدينج» يكيف طريقة أساليبه الروائية بحيث يجعل منها صورًا للأفكار والآراء، ويجعل منها صيغًا إبداعية خياليّة للتعميمات، بمعنى أن الشكل أو القالب في حد ذاته يحمل المعنى، بغض النظر عن المعاني التي يتم التلميح إليها عن طريق إحدى الشخصيات

بالرواية، أو المعاني التي يذكرها المؤلف على نحو تعليمي ووعظي وإرشادي إلى حد ما. ولقد قال «جولدينج»: «لقد أوحيت في جميع رواياتي إلى شكل أو قالب في الكون قد يقوم بتقديم تعليل أو تفسير للأمور والأشياء».

ولكي يجذب «جولدينج» انتباه قرائه إلى ذلك القالب أو الشكل فإنّه قد اختار مواقف من شأنها أن تعزل ما هو أساسي وجوهري، مع تجنب كل من الوجود الموضوعي والذاتي للمؤلف. وجميع رواياته - باستثناء رواية واحدة - توظف موقفًا يتّسم بأنه بعيد في الزمان أو المكان، وتستخدم شخصيات تختلف عن المؤلف اختلافًا جذريًا وجوهريًا، كما تستخدم أسلوبًا قصصيًا يتسم بأنه أسلوب رفيع المستوى وتحليلي، علاوة على اتصافه بالحصافة وحسن التمييز، وبالتالي فإنّه ينبغي علينا أن نبحث عن النواحي الإنسانية المتصلة بالعمل المكيف وفق نموذج معين، فإذا قمنا بتحديد «التطابق» فإن ذلك التطابق ينبغي أن يكون تطابقًا مع مغزى القصة - ومع المفهوم الذهني عن الإنسان وعن الكون - وليس مع هذه الشخصية أو تلك.

والقوالب التي يستخدمها «جولدينج» تحمل في طياتها معانٍ وتضمينات لكل من نوع العمل الذي تم اختياره ونوع الشخصيات المتضمنة في داخل العمل. ونظرًا لأن «جولدينج» يعتزم تضمين الحقائق العامة في داخل رواياته فإنّه يكون ملتزمًا باختيار وانتقاء تلك التجارب البشريّة التي يمكن النظر إليها من النوع الذي يكون نموذجًا أو مثلًا يحتذى به، وليست مجرد شيء طبق الأصل، إذ لا يكفي الإشارة إلى أن الحدث الروائي قد يحدث في الحياة الواقعية، فالحدث في روايات «جولدينج» لكي تكون له مبرراته فإنّه ينبغي أن يحمل نصيبه من المعنى الذي يسير وفق نموذج، وبالتالي فإن روايات «جولدينج» تميل في معظمها لأن تكون قصيرة ولها نسيج أو بنية مكثفة، بالإضافة إلى أن الشخصيات - والتي عادة ما تكون مخلوقات آدمية لها أبعاد ثلاثة على نحو مقنع - قد توظف أيضًا على أنها نماذج أصلية لواجهات طبيعة الإنسان - أو واجهات للإدراك السليم، أو الشراهة، أو الإرادة.

ومن أهم مواهب «جولدينج» مقدرته على جعل الشخصيات تقدم نموذجًا للأمور المجرّدة بدون أن تتحول في حد ذاتها إلى أمور مجردة.

وما نعترف به - إذا ما اخترنا أن نسمي «جولدينج» كاتبًا روائيًا - هو أن القصة كلها لا يمكن اختصارها أو تحويلها إلى افتراض أو قضية أخلاقية - فمن الواضح أنّ هذا غير صادق - وإنما يمكن القول إنّه يكتب من منطلق افتراضات أخلاقية قوية وواضحة. ولكن إذا كان إيسوب Aesop ولافونتين La Fontaineقد كتبا القصص الخرافية ذات المغزى Fables فإننا نكون بحاجة إلى اصطلاح آخر نطلقه على القصص التي كتبها «جولدينج». ولعلنا نستعير اصطلاحًا من علم الجمال السكولاستي المدرسي فنسمي روايات «جولدينج» بأنها روايات مجازية أو أخلاقية Topological، بمعنى أن رواياته تنفرد بخاصية أنها تشير إلى قالب أو شكل في الكون، وأنها تُبنى كنماذج لمثل هذه القوالب الأخلاقية. وإذا كانت كلمة مجازية Topological تبدو عالية ونقدية أكثر من اللازم فإنّه يمكن أن نكتفى بالقول بأنها نماذج أخلاقية more models فما نريد أن نقوله هو أنّ هناك ما يوحى بوجود خاصية السير وفق نماذج يحتذى بها في روايات

جولدينج، مع الاعتراف بالافتراضات التي تشير إليها تلك الخاصية، إذ نجد أن جولدينج يتقبل أفكارًا تقليدية معينة عن الإنسان وعن مكانه في هذا العالم، وأن العقل البشري من خلال التأمل والتفكير يمكنه أن يصل إلى معرفة الحقائق، ولربما يجد العقل البشري معاني موجودة في الماضي البعيد، ومع ذلك فهي معان متلائمة مع الوقت الحاضر، ومتاحة من خلال الذاكرة، بل ولربما يهتم العقل البشري بالأمور الميتافيزيقية والنواحي الأخلاقية، وليست كل هذه الأفكار سائدة ومنتشرة الآن، وهي بالتأكيد ليست سائدة بين الرواد الأوائل في الفن القصصي الروائي، وبالتالي فإن الإنتاج الأدبي لجولدينج قد يبدو في سياق عصره وزمانه أكثر اتسامًا بالمواعظ التعليمية والأخلاقية عما هو عليه في حقيقة الأمر، فعلى الرغم من أن «جولدينج» متمسك في حياته بمبادئ الفضيلة والأخلاق الحميدة، ويعد موجهًا معنيًا برفع مستوى الأخلاق عند الناس - فإنّه ليس صانعًا للمغزى من وراء القصص، وبالتالي فإن رواياته لا تنتمى إلى نوع قصص «إيسوب»، وإنما تنتمى إلى الروايات الرمزية الهامة التي تميز بها القرن العشرون، بل وتنتمى إلى روايات كل من: «ألبير كامي»، «وفرانز كافكا».

لقد بنى «جولدينج» روايته «أمير الذباب» على عدد من الأعراف والاصطلاحات والعادات المتبعة السائدة تقريبًا، فهو أولًا - وقبل كل شيء - قد استخدم العرف المتبع في قصص الخيال العلمي عندما وضع سلسلة الأحداث التي تشكل الأثر الأدبي - أو الـ Action في زمن المستقبل، وبذلك وضع ما هو محتمل في نهاية الأمر محل ما هو حقيقي على نحو قوي مما كان يحمى قصته من الأحكام الموضوعية الحرفية المتعلقة بالتفاصيل أو المتعلقة بالمصداقية والمعقولية. إذ يتم نقل حمولة طائرة من الأولاد من إنجلترا المتورطة في حرب ما مستقبلية ضدّ «الشيوعيين»، وعقب رحيل الطائرة التي تقل هؤلاء الأولاد تسقط قنبلة ذرية على إنجلترا، وتصبح الحضارة بإنجلترا في حالة من الخراب والدمار، وتنطلق الطائرة بالأولاد متجهة نحو الجنوب والشرق، متوقفة في جبل طارق وأديس أبابا، وتواصل انطلاقها نحو الشرق. وفوق المخيط الهندي أو ربما فوق الباسفيك تتعرض الطائرة لهجوم من جانب طائرة معادية، ويتم إلقاء الأولاد من الطائرة التي تقل الأولاد، وبعدئذ تنفجر الطائرة التي كانت تقل الأولاد وتشتعل فيها النيران وتتحطم تمامًا، ويهبط الأولاد فوق جزيرة صحراوية بدون أن يصابوا بأية أضرار.

وبعدئذ يدخل تقليد أو عرف أدبي آخر، فالجزيرة الصحراوية تشترك في بعض الخصال والصفات الأدبية مع قصص الخيال العلمي، فكلتاهما تعرض موقف «ما الذي يمكن أن يحدث إذا..»، والذي يتم فيه تبسيط التجربة الحقيقية لكي يتم النظر إلى بعض القيم والمشكلات بمعزل عن باقي الأمور، وكلتاهما تميل إلى تبسيط القضايا الأخلاقية الإنسانية من خلال تجسيد وتبرير الخير والشر، وكلتاهما تقدم المناسبات الخاصّة بالنزوات والخيالات اليوتوبية.

ويمكننا أن نقول إن «أمير الذباب» هي بمثابة دحض أو تفنيد لرواية «جزيرة المرجان»، وإن «جولدينج» يريد أن يوضح لنا أن الشيطان لا ينشأ عن القراصنة وأكلة لحوم البشر وغيرها من المخلوقات الغريبة، وإنما ينشأ عن الظلام الموجود في قلب الإنسان. والاتجاه السائد في جزيرة المرجان يوجد في رواية «أمير الذباب» - إذ نجد أن «جاك» يبدو متشابهًا إلى حد كبير مع جاك

الذي قدمه لنا «بلانتين» عندما يقول: «على كل حال نحن لسنا متوحشين وهمجيين، وإنما نحن إنجليز».

ونظرًا لأن رواية «أمير الذباب» هي رواية رمزية، فإن أفضل تناول لها هو أن نتفحص أولًا معنى كل شخصيّة من الشخصيات الرئيسية، وبعدئذ نعكف على التأمل في مدى أهميّة العلاقات المتداخلة بين تلك الشخصيات. وهنا نجد أن «رالف» - وهو الراوي الذي يستخدم صيغة المتكلم في رواية جزيرة المرجان - يقدم وجهة النظر الراسخة؛ لأنّه يتكلم نيابة عنا، فهو يعبر عن الجنس البشري العقلاني غير المعصوم من الخطأ، فرالف هو الرجل الذي يتقبل المسئولية ويشعر أنه غير لائق لتحمل المسئولية، ومع ذلك فهو يتقبلها؛ لأنّه يعتقد أن البديل عن المسئولية هو الوحشية والفوضى الأخلاقية، ويتخذ المحاورة كطوطم أو رمز مقدس خاص به، جاعلًا من المحاورة الرمز الخاص بالمناقشات العقلانية المنظمة.

والخصم اللدود لرالف هو جاك الذي يمثل «العالم البراق للصيد والقنص والتكتيكات والانتعاش الوحشي والمهارات»، في حين أن «رالف» يمثل عالم الإدراك السليم المملوء بالحيرة والارتباك والتشوق، وبينهما توجد علاقة أو رابطة يتعذّر تحديد طبيعتها، فهما مثل قابيل وهابيل على النقيض من بعضهما البعض، إلا أنهما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا مع بعضهما البعض - الرجل المدمر في مواجهة الرجل المسالم المحافظ. وجاك هو الصياد وهو الولد الذي يصبح وحشًا مفترسًا.

وهو الذي يستخدم كلمة «اقتل» كفعل لازم. فالقتل في حد ذاته هو غاية من وجهة نظره، وهو أيضًا الدكتاتور ورجل السلطة الفاشستي الذي يبرز على مسرح الأحداث كرقيب للتدريب العسكري، يمقت الاجتماعات، ويكره المناقشات، ويبغض المحاورة، والذي يصبح في غاية الأمر هو الحاكم المطلَق على قبيلته. ويقوم بابتكار القناع المطلي بالألوان الخاص بالصياد، والذي يمكن الولد أن يتخفى وراءه، ويتحرر من الخجل والعار والارتباك أمام الآخرين.. وهو من خلال ولائه للأولاد يحولهم إلى دهماء وغوغاء مجهولي الهوية، وإلى وحوش قاتلة مفترسة، ويحولهم إلى «مجتمع معتوه، ولكنّه مجتمع ينعم نسبيًا بالأمن والأمان».

وجاك هو أول شخص من بين الأولاد الأكبر سنًا الذي يقبل «الوحش» على أنه شيء يحتمل وجوده، وهو الشخص الذي يقدم التضحيات الاسترضائية الاستعطافية للوحش، فهو الكاهن الأعظم للشيطان أو لأمير الذباب.

وتتبقى شخصيّة «سيمون» وهي أصعب الشخصيات من حيث المعالجة، فهو ولد خجول ومليء بالرؤى الخلاقة والخيالات الإبداعية، وهو ذكي وسريع الفهم، ولكنّه عاجز عن التعبير عن رأيه والإفصاح عمّا يدور في ذهنه.

وهناك فارق واحد بين روايات «جولدينج» وبين القصة الرمزية، وهو أن روايات «جولدينج» تبرز المعاني من خلال سلسلة الأحداث التي تشكل العمل الأدبي Meaning-in-action فالحقائق العامة تعطي القالب القصصي أو الدرامي من خلال التخيل الخلاق. وإذا تأملنا في معنى «أمير الذباب» فإنّه لا يمكننا أن نتوقف فقط عند فكرة أن تفحص معنى الشخصية character

meaning ينبغي أن تبزغ من سلسلة الأحداث التي تشكل الشخصية character-in-action. ففي سلسلة الأحداث القصصية تبرز مشاهد معينة من حيث هي مشاهد حاسمة، ومعظم هذه المشاهد تعلن عن أهميتها من خلال كونها مشاهد رمزية صريحة وعلنية.

هذه الرواية قالب رمزي، ولكنّها ليست رواية رمزية، فمن بين مظاهر هذا التمييز أن جولدينج قد ألَّف رواية لها نسيج لفظي مكثف غالبًا ما يتخذ طابع الشعر. وفى داخل ذلك النسيج تعمل كل من الصورة والاستعارة أو المجاز مثلما تعملان في الشعر، وبحيث تثري وتخفف الدلالات المكشوفة العارية للقالب الأخلاقي وفى هذا الصدد نجد أن معالجة «جولدينج» لموت «سيمون» يعتبر مثالًا واضحًا يدل على ذلك بصفة خاصة.

ذلك هو الأسلوب الرائع لجولدينج في أغنى صوره، ولكنّه أسلوب يخدم الغرض الذي يهدف إليه «جولدينج» فاللغة المجازية للضوء والمدلول الدقيق لكلمة شعاع القمر Moon-beam والفضة والإشراق والرخام يحدث ما يُسمّى بالتجلي، أو تغيير الشكل الخارجي، مما يجعل من جثة الطفل الميت أمرًا جديرًا الاهتمام، ويجعل موته نوعًا من السمو والنبل، مثل تجلي السيد المسيح فوق الجبل، وبمعايير المجاز أو الاستعارة فإن هذا النوع من إعطاء أهميّة استعارية ربما يكون غامضًا وخادعًا ومضللًا، وبمعايير القصة الرمزية فإن الأمر يبدو وكأنه تطبيق شرعي ومنطقي لفن كاتب بارع ومتمكن.

ولكي نعود لنتناول في اختصار مسألة مستويات الشرح والتفسير: فإنّه يبدو من الواضح أن الرواية «أمير الذباب» ينبغي أن تُقرأ على أنها رواية أخلاقية تشتمل على مفهوم ذهني عن الرداءة الإنسانية التي يمكن أن توجد أو تتعايش مع النظرية المسيحية الخاصّة بالخطيئة الأولى. والقول بأن هذه القصة هي رواية دينيّة يوحي بأن القيم الخاصّة بها أكثر تطورًا وأكثر إيجابية ما هي عليه في حقيقة الأمر. فجولدينج لا يشير إلى الرحمة الإلهية أو إلى الألوهية، وإنما هو يشير فقط إلى الظلام الموجود في قلوب الناس. وربما يكون «سيمون» قدِّيسا، والقديسية هي حالة إنسانية لها قيمتها العالية، ولكنّه لا يوجد دليل في الرواية يشير إلى أن قدسية «سيمون» قد أحدثت تأثيرًا على أي شخص، باستثناء سيمون نفسه. والرواية تحدثنا كثيرًا عن الشرور والآثام والخطايا، ولكنّها تلتزم بالصمت إزاء الإنقاذ والخلاص.

عبد الحميد الجمال

- ولد في ٢٢ من يناير سنة ١٩٣٤ بقرية كفر الجمالة - الشهداء - منوفية.
- حصل على ليسانس الفلسفة من جامعة القاهرة عام ١٩٥٦.
- عمل بالتدريس في المملكة العربيّة السعودية.
- يعمل مديرًا للسياحة بمحافظة مطروح.

من أهم ترجماته:

- جذور: لأليكس هيلي.
- مغزى القرن العشرين: لكنيث بولدنج.
- الأوتوبيس الجامع: لجون شتاينبيك - روايات الهلال ١٩٨٨.
- النسر: لمادلين لينجيل - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩.

المحتويات:

الفصل الأول: صوت المحارة

الفصل الثاني: نيران فوق الجبل

الفصل الثالث: أكواخ على «البلاج»

الفصل الرابع: الوجوه المطلية والشعر الطويل

الفصل الخامس: وحش قادم من الماء

الفصل السادس: وحش قادم من الهواء

الفصل السابع: الظلال والاشجار الطويلة

الفصل الثامن: هدية من أجل الظلام

الفصل التاسع: مشهد الموت

الفصل العاشر: الصدفة والنظارة

الفصل الحادي عشر: صخرة القلعة

الفصل الثاني عشر: صيحة الصيادين

المؤلف

المترجم